تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة
يوسف القرضاوي

في الطريق إلى الله
(5)
الورع والزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا ومعلِّمنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن اتَّبع هداه.

(وبعد)

فإن الله تعالى قد خلقنا لنعرفه ونعبده وحده لا شريك له، ونقوم بخلافته في أرضه، وهي المنزلة التي اشرأبَّت إليها أعناق الملائكة أن تُناط بهم، قائلين: **{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** [البقرة:30]، فخصَّ الإنسان بالاستخلاف في الأرض، ومكَّن له فيها، وجعل له فيها معايش، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، وجعل الإنسان مبتلى فيها، **{إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ}** [الإنسان:2].

ومما ابتلاه به: أمانة التكاليف، جمع تكليف، وهو إلزام ما فيه كُلفة ومشقَّة، وهي الأمانة التي عُرضت **{عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [الأحزاب:72،73].

وكان من تمام نعمة الله على الإنسان: أنه أمدَّه بكلِّ ما يعينه على أداء مهمَّة العبادة لله والاستخلاف في الأرض، وبلوغ كماله المقدَّر له، فمنحه العقل الذي به يفكِّر، والإرادة التي بها يرجِّح، والقدرة التي بها ينفِّذ، وآتاه من المواهب والملكات النفسية والروحية ما لم يؤته مخلوقًا آخر، وأنزل عليه الكتب، وبعث له الرسل، مبشِّرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل.

كما كان من تمام الابتلاء للإنسان: أن سلَّط عليه نفسه التي بين جنبيه، وهي أمَّارة بالسوء، تحبُّ العاجلة، وتَذَرُ الآخرة، وسلَّط عليه عدوَّه إبليس اللعين (الشيطان) وجنوده، وقد حلف أمام الله جلَّ وعلا: **{فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}** [الأعراف:16، 17].

ومن يومها والمعركة دائرة بين الشيطان والإنسان، وقد حذَّر الله منه أشدَّ التحذير: **{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [فاطر:6].

وقام الأنبياء وورثتهم من العلماء بمهمَّتهم في تنبيه الخلق من غفلتهم، وإمدادهم بالأسلحة التي تُعينهم في معركتهم، حتى لا يستحوذ عليهم الشيطان فينسيهم ذكر الله، وينضمُّوا إلى حزب

الشيطان، المجافي والمعادي لحزب الرحمن، وركْب الإيمان. وبيَّنوا ما عهد الله إليهم من عبادته عزَّ وجلَّ، ومعاداة عدوِّه: **{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}** [يس:60، 61].

فالله تعالى يريد من عباده أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا بعبادته أحدًا ولا شيئًا، وذلك باتِّباع منهجه الرباني الذي شرعه على ألسنة رسله، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، والشيطان يريدهم أن يتَّبعوا منهجه، ويَدَعوا منهج الله، فيَدَعوا الهدى إلى الضلال، والنور إلى الظلام.

ومن هنا قام الربانيون في كلِّ جيل، متأسِّين برسول الله، مقتبسين من مشكاة نبوَّته، ليردُّوا الناس إلى الله، ويسوقوهم إلى الجنة، مرغِّبين ومرهِّبين، وألاَّ تغرُّهم الحياة الدنيا، ولا يغرُّهم بالله الغرور، وأن يسيروا في طريق عبادة الله، مخلصين له الدين حنفاء، وعبادة الله هنا تشمل العبادة الظاهرة، والعبادة الباطنة.

وإذا كان (علم الفقه) يعنى (بالعبادات الظاهرة) من الصلاة والزكاة، والذكر والتسبيح والدعاء، فإن (علم السلوك) أو (فقه السلوك) يعنى (بالعبادات الباطنة) من النية والإخلاص، والتوكُّل والتوبة إلى الله، والرجاء والخوف، والشكر والصبر، والورع والزهد، والمراقبة والمحاسبة، وغيرها من منازل السائرين، ومدارج السالكين إلى مقامات (إياك نعبد وإياك نستعين)، حسب تعبير الإمام الهروي.

ونحن نعلم أن القرآن قد جعل النجاة في الآخرة منوطة بسلامة القلب: **{يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [الشعراء:88،89]، والقلب السليم، هو السليم من الشرك والنفاق، والكبر والحقد والرياء، وآثار البدع والمعاصي.

كما أن الجنة لا يدخلها إلاَّ مَن كان ذا قلب منيب: **{هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ}** [ق:32-34]، وفي الحديث المتَّفق عليه: "ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه"[1].

هذا، وقد كنتُ أصدرت أربع كتب في سلسلة (فقه السلوك) أو الطريق إلى الله، حول: الربانية والعلم، النية والإخلاص، التوكُّل، والتوبة إلى الله، واليوم أُتبعها بخامس عن (الورع والزهد)، ولعله كان ينبغي أن يقدَّم على بعض ما نُشر، ولكني جرت عادتي أن أكتب فيما ييسِّر الله لي الكتابة

[1]- متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وسيأتي بعد.

فيه، ثم أنشره على حاله، وإن لم يكن على الترتيب الذي أحبُّه. ولعل ذلك يحدث، بعد أن تتمَّ أجزاء السلسلة، فإما أن أرتِّبها أنا إن قدَّر الله لي ذلك، أو يرتِّبها من بعدي مَن يقوم على تراثي، وكلُّ شيء عند الله بأجل مسمًّى.

أسأل الله جلَّ ثناؤه، وتباركت أسماؤه، أن ينفع بهذه السلسلة من فقه السلوك، وبغيرها من كلِّ ما يُقرأ ويُسمع ويُشاهد من عملي، وأن يجعلها نورًا لمَن استهدى بها، وطوق نجاة من النار لمَن اعتصم بها، وهاديًا إلى الله بإذنه، وأن يجعلنا من عباده المقبولين عنده، المرضيين لديه، **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [البقرة:127]، **{وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [البقرة:128]، **{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}** [إبارهيم:40، 41].

محرم 1431هـ

يناير 2010م

يوسف القرضاوي

تمهيد
أهداف الناس في هذه الدنيا

للناس في هذه الدنيا أهداف شتَّى، فهم بالنظر إليها أنواع:

منهم مَن لا يعرف له غاية يعيش لها، ولا يعرف لحياته معنى، فهذا ميِّت وإن عُدَّ في الإحصاء مع الأحياء. فهؤلاء الذين قال عنهم الإمام الغزالي: (يأكلون ليكسبوا، ثم يكسبون ليأكلوا! وهذا مذهب الفلاَّحين والمحترفين، ومَن ليس له تنعُّم في الدنيا، ولا قدم في الدين. فإنه يتعب نهارا، ليأكل ليلا، ويأكل ليلا ليتعب نهارا! وذلك كسير السواني – الدواب في الساقية – فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت!)[1].

ومنهم مَن يعيش لغاية قريبة، هي أن يتمتَّع بحياته، ويُشبِع شهواته، فهو يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب، ويركض وراء اللذَّات الحسيَّة، والمطالب الماديَّة الدنيويَّة، ثم يَنفُق كما تَنفُق الدابة، فهو أشبه بمَن قال الله تعالى فيهم: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}** [محمد:12].

ومنهم مَن عرَف أنه خلق لغاية، وأنه يعيش لرسالة، يحيا بها, ويموت عليها، ويعمل بها، ويعمل لها، وهذا هو الذي يستحقُّ الحياة في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

وهذا النوع أصناف كذلك، ودرجات بعضها فوق بعض، وهم الذين قال فيهم القرآن: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}** [فاطر:12].

وهؤلاء الذين يجاهدون أنفسهم في سلوكهم في الطريق إلى الله، ليصلوا إلى جنته ورضوانه في الآخرة، وإلى سكينة النفس والحياة الطيبة في الدنيا، كما قال تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [النحل:97].

وقال سبحانه: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** [الرعد:28]، **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}** [الفتح:4].

---

[1]– الإحياء للغزالي (228/3).

وإلى هذا النوع الأخير بأصنافه ودرجاته نكتب هذه السلسلة في (فقه السلوك)، أو في الطريق إلى الله، التي ظهر منها أربعة أجزاء منذ سنوات، ثم توقَّفت لانشغالي بموضوعات أخرى، منها كتابي في (فقه الجهاد)، الذي أسأل الله تباركت أسماؤه أن ينفع به أمتنا في مسيرتها، ويفقِّهها به في دينها ورسالتها، ويجمع كلمتها على الهدى، وقلوبها على التقوى، ويؤلِّف بينها على نصرة دينه بالجهاد الحقِّ، كما بعث الله به رسوله الكريم، وأنزل به كتابه المبين، لا كما يتوهَّمه الغلاة والمفرِّطون.

الورع والزهد:

وفي هذا الجزء نتحدَّث عن محطَّتين مهمَّتين من محطَّات الطريق إلى الله، وبعبارات رجال السلوك: منزلتين من منازل السائرين إلى الله، وإلى عبادته، وهما: الورع والزهد، فما الفرق بين الورع والزهد؟

قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي المالكي (ت:520هـ): الورع هو: اجتناب المحرمات والمتشابهات. قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: "الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور متشابهات، فمَن اتَّقى المشتبهات استبرأ لدينه وعِرضه" الحديث[1]، فاجتناب المحرَّمات واجب، واجتناب الشبهات مستحبٌّ.

ولا ينطلق اسم الورع إلا على مَن اجتنب المحرَّمات والمشتبهات.

والزهد هو: ما يبعث على اجتناب المحرَّمات والمشتبهات، وترك التنعُّم بالمباح من الشهوات. فكلُّ زاهد ورِع، وليس كلُّ ورع زاهدًا، فالورع أعمُّ من الزهد[2] اهـ.

وكذلك الورع يسبق الزهد، فهو مقدِّمة له.

قال العلاَّمة ابن القيم: سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

قال ابن القيم: وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها[3].

وقال الحسن: مثقال ذرَّة من الورع؛ خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة[4]!

1- سيأتي تخريجه بتوسع.

2- الجامع من المقدمات لأبي الوليد محمد بن رشد القرطبي، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي

3- مدارج السالكين (10/2)، طبعة دار الحديث، القاهرة.

4- ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (22/2).

وهو يشير الى أهمية أعمال القلوب، بالنسبة الى أعمال الجوارح.

وقال سلمان (الفارسي): جلساء الله غدًا أهل الورع والزهد[1].

وقال أبو واقد الليثي: تابعنا الأعمال، فلم نجد شيئًا أبلغ في طلب الآخرة من الزهد في الدنيا[2].

وقال أيضًا: ما وجدنا شيئًا أعون على أخلاق الإيمان من الزهادة[3].

وقال ابن المبارك: ما رأيت شيئًا يتقوَّى به على العبادة مثل الجوع والزهادة[4].

فمما لا ريب فيه، ومما علَّمناه الإسلام في قرآنه العظيم، وسنَّة نبيِّه الكريم: أن الله تعالى خلقنا ليمتحننا ويبتلينا بالإيمان به، والإسلام له، وتحقيق العبودية له؛ لنعبده وحده لا نتعبَّد لأحدٍ سواه، **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات:56].

وكذلك لنقوم بخلافته في أرضه، نقيم فيها الحقَّ والعدل والخير والصلاح، ونطارد فيها الباطل والظلم والشرَّ والفساد. كما قال تعالى للملائكة حين أراد خلق آدم عليه السلام: **{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}** [البقرة:30].

كما خلقنا عزَّ وجلَّ لنعمر أرضه ونصلحها، كما قال تعالى: **{هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}** [هود:61]، ومعنى **{اسْتَعْمَرَكُمْ}**: أي طلب إليكم أن تَعْمُروها ولا تخرِّبوها، وأن تصلحوها ولا تفسدوها، كما قال سبحانه: **{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}** [الأعراف:56]، أي: بعد أن خلقها الله صالحةً لسُكناكم ولمعيشتكم، ولإعانتكم على رسالتكم فيها، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}** [الأعراف:10]، وقال تباركت آلاؤه: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}** [الملك:10].

كيف نحقق العبودية لله سبحانه؟

ولكي نقوم بعبادة الله وخلافته وعمارة أرضه، لا بد لنا أن نتَّبع منهجه الذي شرعه لنا في كتابه، وعلى لسان رسوله، الذي أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كلِّه.

1- ذكره السيوطي في الجامع الصغير (3597)، وعزاه لابن لال، عن سلمان، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (2632)، ونسبه ابن القيم في مدارج السالكين لأبي هريرة (22/2).

2- رواه هناد في الزهد (558)، ووكيع في الزهد (2)، وابن أبي شيبة في الزهد (35767)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10682).

3- رواه ابن الأعرابي في الزهد (58)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10683)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (278/67).

4- رواه ابن الأعرابي في الزهد (59).

ومقتضى هذا: أن نتحرَّر من عبوديتنا لهوانا أو أهواء الآخرين، لنعبد الله وحده، ولننقاد لشرعه بكلِّ ما فيه من أوامر ونواهٍ، وعقائد وأحكام. فإنما مهمَّة الشرع أن يُخرِج الإنسان من اتباع هواه أو هوى سواه، إلى اتباع هدى الله، **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [القصص:50].

حقيقة الدين:

وهذا هو حقيقة الدين: أن تسلم وجهك إلى الله، وتُحسن عملك في رضا الله، **{وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}** [لقمان:22]، **{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** [النساء:125].

ابتلاء الله عباده بالتكليف:

والدين قائم على التكليف الذي ابتلى الله به عباده، وهو التزام ما فيه كُلفة ومشقَّة، **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}** [الإنسان:2]. وهو الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. إنها أمانة التكليف، وهي مسؤولية ما أثقلها!

وإنما ابتلى الله بني آدم بهذا التكليف، ليصقلهم ويعدَّهم به في الدنيا للخلود في الآخرة، دار البقاء. وقد هيَّأهم الله بما آتاهم من نعمة العقل، ونعمة الإرادة، وبما بعث لهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب.

التكليف فعل وترك:

والتكليف فعل وترك، لأنه أوامرُ ونواه. فما تُؤْمر به مطلوبٌ أن يُفعل، وما تُنهى عنه مطلوب أن يُترك، وإن اختلفت مراتب الطلب.

وهكذا كلُّ منازل الطريق إلى الله إنما هي فعل وترك.

الورع والزهد يدخلان في جانب الترك:

و(الورع) و(الزهد) يدخلان في باب الترك والاجتناب في أصلهما.

إذ (الورع) في حقيقته هو ترك ما حرَّم الله، أو ترك ما نهى الله عنه، أو ما لا يحبُّه الله من عباده، وهذا ضربٌ من عبادته سبحانه، فليست كلُّ العبادات شعائر ومناسك يُتقرَّب بها إلى الله سبحانه، بل منها: اتِّقاء ما يغضبه تعالى من الأقوال والأفعال، ظاهرة أو باطنة، كما قال عزَّ وجلَّ: **{وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ}** [الأنعام:120].

وهنا يأتي الحديث االقائل: "اتقِ المحارم تكن أعبد الناس"[1]، فهنا يجعل الحديث عبادة الله مُجسَّدة في ترك المُحرَّمات "اتقِ المحارم".

وفي بعض روايات الحديث: "كن ورعًا تكن أعبد الناس"[2]، فجاء بلفظ (الورع).

وكذلك (الزهد) هو تركٌ أيضًا، لأن حقيقته الإعراض عن متاع الدنيا وزخارفها، رغبةً فيما عند الله جلَّ شأنه، سواء كان زهدًا في الحرام، أم في الشبهات، أم في فضول الحلال. وبعبارة أخرى: هو ترك كل ما يشغل عن الله سبحانه.

وفي ضوء هذه المُسلَّمات نبحث في حقيقة كلٍّ من الورع والزهد، لنعرف ما جاء فيها من هُدَى الله تعالى في كتابه، ومن هَدْي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنَّته وسيرته.

وما قاله علماء السلوك من سلف الأمة، الذين يُقتدى بهم فيُهتدى، قبل أن تشيع البدع، وتنتشر الضلالات والمحدثات، حتى يتبيَّن الحقُّ، وتتَّضح الغاية، ولا يلتبس الطريق على السائرين.

الميزان الذي لا يميل والمعيار الذي لا يضل:

على أن كلَّ ما ننقله من أقوال، وما نقصُّه من قَصص، وما نسوقُه من مواقف، يلزمنا أن نردُّه إلى الميزان الذي لا يميل، والمعيار الذي لا يضلُّ، وهو المحكمات من كتاب ربِّنا، ومن سنة نبينا، **{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [آل عمران:101]، لأنَّ أقوال الخلق وأعمالهم – وإن كانوا من الزاهدين الصالحين – ليست حُجَّة في دين الله، لأن الخطأ جائز عليهم، ولا معصوم إلا مَن لا ينطق عن الهوى، **{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}** [النجم:4]، ولا سيما في هذا المقام، فالغلوُّ فيه متوقَّع، والشطط فيه وارد؛ لأنه أمر يتعلق بالوجدان الإنساني، وبخاصَّة أنه دخلت عليه مفاهيم وقِيَم من أمم وديانات وفلسفات أخرى غير الإسلام، فأثَّرت في طريقه، وفي أهله، شئنا أم أبينا.

لذا كان من المهم هنا: أن نُخلِّص المفهوم الإسلامي المحض من الشوائب التي اختلطت به، لنعيده إسلاميًا ربانيًا قرآنيًا محمديًا. وهو الذي يلزمنا أن نتَّبعه، ونسير على هداه. وسنقسم بحثنا أو كتابنا هذا إلى قسمين: قسم للورع، وآخر للزهد.

الورع سابق على الزهد:

1- رواه أحمد (8095)، وقال مخرِّجوه: حديث جيد، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي طارق السعدي، والترمذي في الزهد (2305)، وقال: غريب، وأبو يعلى (6240)، والطبراني في الأوسط (7054)، والبيهقي في الشعب باب إكرام الجار (9543)، عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (100).

2- رواه ابن ماجه في الزهد (4217)، وأبو يعلى (5865)، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (5750)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (4580).

وسنبدأ (بالورع) لأنه سابق على الزهد؛ لأنه كالمقدِّمة له، أو لأن الورع يمثِّل التخلية، والزهد يمثِّل التحلية، والتخلية تسبق التحلية.

ولذا روى ابن الأعرابي في كتابه (الزهد وصفة الزاهدين)، عن أبي سليمان الداراني – وهو أحد أئمة التربية والسلوك – أنه قال: القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد. قال: فهذا أول الرضا. يعني: القناعة. وهو أول الزهد. يعني: الورع[1].

وروى ابن الأعرابي أيضًا، عن عثمان بن عمارة قال: كان يُقال: الورع يبلغ بالعبد إلى الزهد في الدنيا، والزهد يبلغ به إلى حبِّ الله[2]!

1– رواه وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (365)، وابن الأعرابي في الزهد (24)، وأبو نعيم في الحلية (274/9).

2– رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (301)، وابن الأعرابي في الزهد (62).

القسم الأول
الورع

مراتب الورع

تعريف الورع:

الـورع لغـة: مصـدر قـولهم: وَرِعَ يَـرِعُ وهـو مـأخوذ مـن مـادة (ورع) التـي تـدل علـى الكـف والانقباض.

وقال ابن منظور: الورع: التحرُّج، والورِع – بكسر الراء – هو: الرجل التقي المُتحرّج.

واصـطلاحا: قـال المُنـاوي: قيـل فـي تعريفـه: الـورَع تـرك مـا يَرِيبـك، ونفـي مـا يَعيبك، والأخـذ بالأوثق، وحمل النفس على الأشق.

وقيـل: النظـر فـي المطعـم واللبـاس، وتـرك مـا بـه بـأس، وقيـل: تجنـب الشـبهات، ومراقبـة الخطرات[1].

وقال الراغب: الورع عبارة عن ترك التسرع إلى تناول أعراض الدنيا[2].

وقيل ترك ما لا بأس به حذرا مما به بأس.

وقيل هو: ترك الشبهات، وهو الورع المندوب، ويطلق على ترك المحرمات[3]

وقالوا: الورع أخذ الحلال الصِّرف، وترك كل ما فيه شبهة.

قال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كُتب عند الله صديقا.

وقال سهل التُّسْتَري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى.

وقال يونس بن عُبيد: الورع: الخروج من كلِّ شبهة، ومحاسبة النفس كل طرفة عين.

قال الصحابة: كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام.

والورع ظاهر وباطن: فالظاهر: ألا تتحرك إلا إلى الله، والباطن: ألا تُدخل قلبك سواه.

درجات الورع ومراتبه:

عرفنا حقيقة الورع، وبقي أن نعرف درجاته ومراتبه.

1– التوقيف على مهمات التعاريف (337).

2– الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص323).

3– دليل الفالحين لابن علان الصديقي (26/3)

للورع – عند علماء السلوك – مراتب ودرجات بعضها أعلى من بعض، كمعظم مقامات الدين، ومنازل السالكين إلى الله. فهناك أعلى، وهناك أدنى، وهناك وسط، ولكلِّ مجتهدٍ نصيبٌ، ومَنْ سار على الدرب وصل.

والله تعالى يقول: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}** [العنكبوت:79].

وقد قسم الراغب الأصفهاني الورع إلى ثلاث مراتب:

1- واجب: وهو الاحجام عن المحارم، وذلك للناس كافة.

2- مندوب: وهو الوقوف عن الشبهات، وذلك للأواسط.

3- فضيلة: وهو الكف عن كثير من المباحات، والاقتصار على أقل الضرورات، وذلك للنبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين[1].

1. الورع عن اقتراف الكبائر:

أدنى مراتب الورع: الورع عن ارتكاب الكبائر. وهي التي سمَّاها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (الموبقات)، أي: المهلكات، هي مهلكات للفرد، وهي مهلكات للجماعة، هي مهلكات في الدنيا، ومهلكات في الآخرة. وفيها جاء الحديث المتفق عليه: "اجتنبوا السبع الموبقات". قيل: وما هنَّ، يا رسول الله؟ قال: "الشرك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله، وقَذْف المُحْصنات الغافلات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف"[2]. يعني الفرار يوم ملاقاة العدو. ومن المُؤكَّد أن هذه الموبقات السبع ليست هي كلُّ الكبائر.

تعريف الكبيرة:

وقد اختلف العلماء في تعريف الكبيرة، ما هي؟ وأرجح الأقوال: أنها كلُّ معصية لله شُرع لها حدٌّ في الدنيا، أو جاء فيها وعيد شديد في الآخرة.

والمراد بالوعيد الشديد: أن يكون بالعذاب في نار جهنم، أو يتضمَّن غضب الله تعالى ولعنته، أو حرمانه من دخول الجنة، أو نحو ذلك.

1- الذريعة إلى مكارم الشريعة (323).

2- متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (2766)، ومسلم في الإيمان (89)، كما رواه أبو داود (2874)، والنسائي (3671)، كلاهما في الوصايا، عن أبي هريرة.

فما شُرع له حدٌّ في الدنيا مثل: السرقة والزنى والقذف به للمرأة أو للرجل، وقطع الطريق، وشرب الخمر، وإن كان هناك من العلماء مَن يرى عقوبة الخمر تعزيرا. والظاهر أنه مذهب الإمام البخاري[1].

على أن هذه الذنوب والمعاصي كلَّها، جاء فيها وعيد شديد، مثل نفي الإيمان عمَّن ارتكبها، كما في الصحيح: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن"[2]. ولا يتصوَّر أن ينفي الإيمان عمَّن اقترف صغيرة من الصغائر.

وقال تعالى في الزنى: **{وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}** [الإسراء:32]، وقال في الخمر والميسر: **{قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}** [البقرة:219]، فنصَّ القرآن على أن فيهما إثمًا كبيرًا، وهذا كافٍ في اعتبارهما من الكبائر.

الكبائر التي يغفل عنها كثير من الناس:

وهناك كبائر أخلاقية واجتماعية كثيرًا ما يغفل الناس عنها، لأن أعينهم مركَّزة – عند ذكر الكبائر – على الزنى والسُّكْر ونحوهما. وذلك مثل: عقوق الوالدين، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، والمشي بين الناس بالنميمة، ومعاصي القلوب: كالكِبْر والعُجْب، والشحِّ والبخل، والرياء، والحسد والبغضاء، وحب الدنيا، واتباع الهوى.

وقد جاء في الصحيح عن أبي بكرة: "ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟". قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: "الإشراك بالله تعالى، وعقوق الوالدين". وكان متَّكئا فجلس، فقال: "ألا وشهادةَ الزُّور، ألا وقولَ الزُّور" فما زال يُردِّدها، حتى قلنا: ليتَه سكت[3].

وقال: "لا يدخل الجنة قاطع"[4]. فُسِّر بقاطع الرحم، وهو لفظ رواية مسلم.

وقال تعالى: **{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}** [محمد:22، 23].

1- قال ابن حجر: وأظن الأول – أي: الرأي الأول؛ هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل في شرب الخمر حدًّا معلومًا- رأي البخاري، فإنه لم يترجم بالعدد أصلًا، ولا أخرج هنا في العدد الصريح شيئًا مرفوعًا. فتح الباري (534/15، 535)، تحقيق نظر محمد الفريابي، طبعة دار طيبة، الرياض.

2- متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (2475)، ومسلم في الإيمان (57)، كما رواه أحمد (8895)، وأبو داود في السنة (4689)، والترمذي في الإيمان (2625)، والنسائي في الأشربة (5659)، وابن ماجه في الفتن (3936)، عن أبي هريرة.

3- متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (2654)، ومسلم في الإيمان (87)، كما رواه أحمد (20385)، والترمذي في البر والصلة (1901).

4- متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (5984)، ومسلم في البر والصلة (2556)، كما رواه أحمد (16732)، وأبو داود في الزكاة (1696)، والترمذي في البر والصلة (1909)، عن جبير بن مطعم.

وقال عليه الصلاة والسلام: "لا يدخل الجنة قتَّات"[1]. أي: نمَّام. وقال: "لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر"[2].

وقال: "ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى متَّبع، واعجاب المرء برأيه"[3]. وقال: "إيَّاكم والظلمَ؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش؛ فإن الله لا يحبُّ الفحش ولا التفحُّش، وإياكم والشحَّ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا"[4].

والكبائر تشمل فعل المحظور، مثل: الزنى والسُكر. كما تشمل ترك المأمور، ولا سيما إذا كان من الأركان ومهمَّات الدين، مثل: الصلاة والزكاة، وقد صحَّ في ترك الصلاة ومنع الزكاة وعيد شديد.

اجتناب كبائر الإثم:

والمقصود أنَّ أول مراتب الورع، بالنسبة لمَن يسلك الطريق إلى الله: أن يجتنب كبائر الإثم والفواحش، وقد مدح الله بذلك جماعة المؤمنين حين قال: {**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**} [الشورى:37]، وفي موضع آخر قال: {**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**} [النجم:32].

تفسير اللَّمَم:

وفُسِّر اللمم هنا بأحد معنيين:

الأول: صغائر الذنوب، التي كثيرًا ما تكون مقدِّمات إلى الكبائر، مثل: النظرة بشهوة إلى المرأة، والقبلة، واللمسة، والخَلوة.

الثاني: أن يُلمَّ بالكبيرة مرَّة أو مرَّتين، ثم يتوب منها ولا يعود.

ترك الكبائر مكفر للصغائر:

1- متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (6056)، ومسلم في الإيمان (105)، كما رواه أحمد (23247)، وأبو داود في الأدب (4871)، والترمذي في البر والصلة (2026)، عن حذيفة.

2- رواه مسلم في الإيمان (91)، وأحمد (4310)، وأبو داود في اللباس (4091)، والترمذي في البر والصلة (1999)، وابن ماجه في المقدمة (59)، عن ابن مسعود.

3- رواه البزار (7293)، والطبراني في الأوسط (5452)، وأبو نعيم في الحلية (160/2)، والبيهقي في الشعب باب الخوف من الله (745)، وقال الألباني: في صحيح الترغيب والترهيب (453): حسن لغيره، وقال المنذري في الترغيب والترهيب باب الترغيب في الأذان وما جاء في فضله (654): هو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى، عن أنس بن مالك.

4- رواه أحمد (6837)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والطيالسي (2386)، وابن حبان في الغضب (5176)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، عن عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب باب بر الوالدين (2604).

وقد علم الله جلَّ ثناؤه – الذي خلق الإنسان ضعيفًا – أنه لا بدَّ واقع في صغائر الذنوب، فغفرها له بفضله ورحمته، إذا اجتنب كبائر الإثم والفواحش.

فإذا ترك الكبيرة – وهو قادرٌ عليها راغبٌ فيها – خوفًا من الله تعالى، ورغبةً في ثوابه، ورهبةً من عقابه، فهذا الترك أو الاجتناب مكفِّر لما ارتكب من الصغائر، كما قال تعالى: **{إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}** [النساء:31].

وروى مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفِّرات لما بينهنَّ ما اجْتُنبت الكبائر"[1].

كبائر ترك المأمورات أشد من كبائر فعل المحظورات:

في هذه المرتبة من الورع: لا بد أن يتورَّع عن الكبائر، التي هي ترك المأمورات. بل هذه الكبائر أشدُّ وأكبر من الكبائر التي هي فعل المحظورات كترك الصلاة تكاسلًا.

كبيرة ترك الصلاة:

ومن هنا جاء التشديد في شأنها، فالقرآن يجعل أداء الصلاة بثقل وتكاسل من صفات المنافقين، كما قال تعالى: **{وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا}** [التوبة:142].

فما بالك بمَن لا يقوم إلى الصلاة، لا نشيطًا ولا كسلانًا؟

إنَّ شأنهم شأن المشركين الذين وصفهم القرآن بقوله: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ}** [المرسلات:48]، كما حدَّثنا القرآن عن المجرمين الذين يُعذَّبون في سقر، حين يسألهم أهل الجنة: **{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}** [المدثر:42-44].

ويتوعَّد القرآن مَن سَهَا عن الصلاة وتشاغل، حتى فات وقتها، فيقول: **{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** [الماعون:4، 5].

بل صحَّ في الحديث: إطلاق اسم الكفر على مَنْ ترك الصلاة، وقال عليه الصلاة والسلام: "العهد الذي بيننا وبينهم الصَّلاة، فمَن تركها فقد كفر"[1]، وقال: "بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة "[2].

1- رواه مسلم في الطهارة (233)، وأحمد (8715)، والترمذي في الصلاة (214).

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون من الأعمال شيئًا تركه كفر غير الصلاة[3]. ومن العلماء مَن أخذ بظاهر هذه الأحاديث، وكفَّر تارك الصلاة، كما هو مشهور عن الإمام أحمد، ومنهم مَن تأوَّل هذه الأحاديث على مَن أنكر فرضية الصلاة، أو استخفَّ بها. ولكنهم اعتبروا ترك الصلاة من أكبر الكبائر، التي قد تؤول إلى الكفر.

كبيرة ترك الزكاة:

وإذا كان هذا شأن الصلاة، كانت الزكاة شقيقتها في القرآن والسنة، ولهذا قرنها القرآن بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعًا، وقال سيدنا أبو بكر فيمن امتنعوا عن أداء الزكاة: والله لأقاتلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة[4].

فالصلاة عمود الدين، والزكاة قنطرة الإسلام، يقول القرآن: **{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ}** [التوبة:5]، **{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}** [التوبة:11]، وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن آتاه الله مالا فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع (ثعبانا لا شعر له) يأخذ بلِهْزِمَتَيه - يعني بشدقيه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك". ثم تلا قول الله تعالى: **{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** [آل عمران:180][5].

ومثل ذلك ترك صيام رمضان، وترك الحج لمن استطاع إليه سبيلا، أعني إصراره على الترك.

كبائر الإثم والفواحش في عصرنا:

ومن الضروري هنا: أن نُبيِّن للمسلم المعاصر بعض الكبائر الموبقة، والفواحش المدمِّرة، التي تُروَّج في عصرنا، وقد تخفى على بعض الناس، الذين كثيرًا ما يحصرون الكبائر في الزنى وشرب الخمر ونحوها. وهذه كبائر فردية، قد تقتصر أضرارها وآثارها على الأفراد، أو على أسرهم. أما

1- رواه أحمد (23007)، والترمذي في الإيمان (2621)، وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الصلاة (463)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (1079)، وصححه الألباني في المشكاة، عن بريدة.

2- رواه مسلم في الإيمان (82)، وأحمد (15183)، والترمذي في الإيمان (2618)، عن جابر.

3- رواه الترمذي (2622)، والحاكم (7/1)، كلاهما في الإيمان، وقال الذهبي: لم يتكلم عليه وإسناده صالح، عن عبد الله بن شقيق العقيلي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (565).

4- متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (7284)، ومسلم في الإيمان (20)، كما رواه أحمد (239)، وأبو داود في الزكاة (1556)، والترمذي في الإيمان (2607)، والنسائي في الزكاة (2443)، عن عمر بن الخطاب.

5- رواه البخاري في الزكاة (1403)، وأحمد (8661)، والنسائي في الزكاة (2482)، عن أبي هريرة.

كبائر العصر، فهي أشد خطرًا، وأبعد أثرًا، وأوسع ضررًا، من هذه الكبائر التقليدية، وهي شائعة ومنتشرة في مجتمعاتنا للأسف الشديد، تفسد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية، بل ربَّما تدمِّرها، وتأتي على بنيانها من القواعد.

إن تزوير الإنتخابات من كبائر الإثم في عصرنا، بل من أكبر الكبائر. وانتخاب تجَّار المخدِّرات وأمثالهم للمجالس النيابية: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

والتسويق للحكَّام الظالمين والمفسدين من رجال الإعلام والسياسة والأثرياء: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

واعتقال الناس وسَوْقهم من بيوتهم إلى السجون بغير محاكمة، أو بتهم ملفَّقة، وأمام محاكم لا يجلس فيها قضاة: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

وتغيير الدساتير لتوافق أهواء الحكَّام، وتُحقِّق مطالبهم: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

واستيراد بعض الكبار والمُقرَّبين الأغذية الفاسدة أو المُلوَّثة بالإشعاع، أو التي انتهت صلاحيتها: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

واستيراد البذور المفسدة للتربة، والمضرَّة بالزراعة: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

وانتقاص الكميات اللازمة من الحديد والأسمنت في بناء العمارات، مما يؤدِّي إلى انهيارها على سكَّانها (عمارات الموت): من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

واحتكار المواد الضرورية للشعب من الأغذية، والأدوية، أو الملابس، أو مواد البناء، لتستفيد منها طبقة معينة أو أفراد معينون: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

وإنتاج الأفلام أو المسرحيات أو المسلسلات الهابطة التي تروِّج للخلاعة، وتدعو إلى الإباحية والفجور: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

2. **<u>الورع عن ارتكاب الصغائر:</u>**

والمرتبة الثانية من مراتب الورع: اجتناب صغائر المُحرَّمات المقطوع بتحريمها. مثل مُحرَّمات العين والأذن واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح، وهي مُحرَّمات كثيرة الوقوع في حياة الناس، وكثيرًا ما تراهم يستهينون بها، مثل النظر إلى المرأة الأجنبية بشهوة، وأكثر من النظر لمسها كذلك، أو الخَلوة بها.

<u>لغو الحديث والخوض في الباطل:</u>

ومثل ذلك: لغو الحديث، والخوض في الباطل الذي لا يفيد، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: **{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}** [المؤمنون:3]، **{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}** [القصص:55].

فاكهة المجالس: الغيب والاستماع إليها:

وأشدُّ منه خطرًا: الحديث عن الناس واتخاذه فاكهة المجالس, وقد يدخل بعض هذا في الكبائر.

قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}** [الحجرات:11، 12].

وليس المُحرَّم قول الكلام الخبيث فقط، بل الاستماع إلى ذلك، فالمستمع شريك المتكلِّم، كما قال تعالى: **{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ}** [النساء:140].

وهذه الآية تذكِّر بآية أخرى نزلت في سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آَيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [الأنعام:68].

ولذا قال العلماء في الغِيبة: السامع شريك المغتاب. وقالوا: لُعنت النائحة والمستمعة إليها.

الاستماع إلى الأغاني الخليعة:

ومثل ذلك: الاستماع إلى الأغاني الخليعة، التي تنافي العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق الإسلامية، أو التي تؤدَّى بميوعة وتكسُّر وخضوع في القول، أو التي تقترن بمحرَّم، مثل الخمر أو التبرُّج، أو الرقص الخليع، أو نحو ذلك[1].

وهذه المرتبة أعلى من سابقتها، وهي مرتبة اجتناب الكبائر، ومَن اجتازها فقد قطع في الطريق إلى الله شوطًا مهمًّا. وهي أصعب في جهاد النفس من ترك الكبائر، لابتلاء الناس بها، وإحاطتها بالإنسان من كلِّ جانب.

هل في الصغائر من خطر؟

1- انظر: كتابنا (فقه الغناء والموسيقى)، فصل: ضوابط الغناء المباح صـ185- 194، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة 1427هـ 2006م.

ربما يظنُّ بعض الناس أن خطر المعاصي يتجسَّد في الكبائر وحدها، ولكن أيضًا في الصغائر خطرها. والخطر في هذه الصغائر يتمثَّل في عدَّة أمور:

أولاً: في الإصرار عليها، أعني الإكثار منها، والمواظبة عليها، فإن القليل على القليل كثير. ولهذا قالوا: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار.

وقد جاء في الحديث التحذير من هذه (المُحقَّرات) إذا تكاثرت وتفاقمت، قال عليه الصلاة والسلام: "إياكم ومحقّرات الذنوب، فإنهنَّ يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه". ثم ضرب لهنَّ مثلا[1].

"إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنَّ لها من الله طالبًا"[2].

ثانيا: إنها يُخشى أن تَجُرَّ إلى كبيرة، لأن الشيطان – عدو الإنسان – كثيرا ما يسحبه إلى المعاصي خطوة خطوة، ويرنو به إلى الشرِّ درجة فدرجة، وهي التي سمَّاها القرآن: **{خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}** قال تعالى: **{وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}** [البقرة:208].

ولذا يقول الناس في أمثالهم: الألف تجرُّ إلى الياء. ويقول الشاعر:

كلُّ الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغَر الشرر

ولذا يبدأ مروِّجو المخدرات والسموم القاتلة مع الشباب (بالسيجارة) أولاً، حتى إذا ما أدمنها، ألقَوه في هُوَّة المخدرات.

ثالثًا: إذا أنس المسلم بصغائر الذنوب يُخشى أن يضعف إحساسه بها، ويستخفَّ بحرمتها، ويستهين بنهي الله تعالى عنها، وعقوبته عليها. وفي هذا خطر على قلب المؤمن، أن يفقد الإحساس شيئًا فشيئًا حتى يموت. وهو ما حذَّر منه الحديث النبوي.

وجاء في حديث ابن مسعود: "المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا وهكذا"[3]. يعني: أطاره بيده.

وقال بعض السلف: إن الذنب الذي يُخشى ألا يُغفر، هو الذي يقول فيه صاحبه: ليت كلَّ ذنب فعلتُه مثل هذا!!

1- رواه أحمد (3818)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، والطبراني في الكبير (212/10)، والأوسط (2529)، عن عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثِّق (308/10)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2470): صحيح لغيره.

2- رواه أحمد (24415)، وقال مخرجوه: إسناده قوى، وابن ماجه في الزهد (4243)، والدارمي في الرقاق (2726)، والطبراني في الأوسط (2377)، والبيهقي في الشعب باب معالجة كل ذنب بالتوبة (7261)، عن عائشة، وصححه الألباني في الصحيحة (513).

3- متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (6308)، ومسلم في التوبة (2744)، كما رواه أحمد (3627)، والترمذي في صفة القيامة (2497).

وكلما حيت القلوب، أحسَّت بخطر الذنوب، وكلما ضعف حسُّها، قلَّ انتباهها لخطرها. كما قال أنس رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدقُّ في أعينكم من الشعر، إن كنا نعدها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات[1].

وذلك لنقص درجة الرُّوحانية العالية التي كانوا عليها في عهد النبوة.

ويشير القرآن إلى هذا المعنى، حين تحدَّث عن الإفك ومَن جاؤوا به، ويلوم بشدَّة الذين استمعوا إليه وأفاضوا فيه، ولم يردُّوه بقوَّة ويقولوا: هذا إفك مبين. فقال تعالى: {**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ**} [النور:15].

وقد مرض أحد الصالحين، فزاره بعض أصحابه فوجدوه يبكي بحُرقة، فقالوا له: لم كلُّ هذا البكاء، وما رأينا لك فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها! فقال لهم: والله ما أبكي فريضة تركتُها، ولا حرمة انتهكتها، ولكني أخشى أن أكون قد أتيت ذنبًا أحسبه هيِّنًا وهو عند الله عظيم!

رابعًا: ثم إن هناك أسبابًا تجعل الصغيرة تكبُر، مثل الفرح بها، وكذلك المجاهرة بها، ففي الحديث: "كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين"[2]. وكذلك أن تصدر من عالم يُقتدى به، فكأنه بمنزلة الذي يزين لغيره المعصية، إلى آخر هذه الأمور، وقد شرحناها في كتابنا عن (التوبة)[3].

خامسًا: يزداد خطرها، إذا غفل الإنسان عنها، ونسي أن يستغفر الله منها، بل الواجب أن يسارع، فيتذكَّر الله تعالى، ويستغفره منها، وإن صغرت، فقد قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى كبرياء من عصيته[4]. وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأيُّ عبيد لك لا ألمَّا"[5]!

ويقول: "إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة"[6].

ويُروى عن إبليس اللعين أنه قال: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، فأهلكوني بالاستغفار!

1- رواه البخاري في الرقاق (6492)، وأبو يعلى (4207)، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (187/10)، عن أنس.

2- متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (6069)، ومسلم في الزهد (2990)، عن أبي هريرة.

3- صـ172-190، من سلسلة تيسير فقه السلوك، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية 1421هـ 2000م.

4- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (280/3)، عن بلال بن سعد.

5- رواه الترمذي في التفسير (3284)، وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم في التفسير (469/2)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب معالجة كل ذنب بالتوبة (7055)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (2279)، عن ابن عباس.

6- رواه مسلم في الذكر والدعاء (2702)، وأحمد (18291)، وأبو داود في الصلاة (1515)، عن الأغر بن يسار المزني.

وقد أثنى الله تعالى على عباده (المتقين) الذين أعدَّ لهم جنات عرضها السموات والأرض، فكان ممَّا مدحهم به: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}** [آل عمران:135، 136].

أبانت لنا الآية الكريمة: أن المتقين ليسوا ملائكة مطهَّرين، ولا أنبياء معصومين، ولكنهم يخطئون ويصيبون، ويطيعون ويعصون، ولكنهم سرعان ما يتذكَّرون فيذكرون، ويندمون فيتوبون، وإلى ربهم يرجعون، ومن ذنوبهم يستغفرون.

ورع العدول:

ويُسمِّي الإمام الغزالي الورع عن الحرام – كبائره وصغائره – ورع (العدول)[1]، يعني: الذي يتحقَّق به صفة (العدالة)، التي بها تُقبل شهادة الشاهد في القضايا، وتُقبل بها رواية الراوي، وكما قال تعالى: **{وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ}** [الطلاق:2].

والحرام هنا يُعرف من فتوى أهل الذكر والاختصاص، وهم الفقهاء من علماء الحلال والحرام.

3. الورع عن الشُّبهات:

والمرتبة الثالثة من مراتب الورع: هي ترك الشُّبهات، وهي التي جاء فيها الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أنَّه صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ الحلال بيِّن، وإنَّ الحرام بيِّن، وبينهما مُشْتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمَن اتَّقى الشُّبهات استبرأ لدينه وعِرْضه، ومَن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالراعى يرعى حَوْل الحِمى يُوشك أن يرتَعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى ألا وإنَّ حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهى القلب"[2].

فبيَّن الرسول الكريم بهذا الحديث مراتب ثلاثًا:

أ- مرتبة الحلال البيِّن الذي لا احتمال فيه، والإذن فيه واضح من الشرع.

ب- ومرتبة الحرام البيِّن الذي لا احتمال فيه، والمنع فيه واضح من الشرع.

ج- ومرتبة المشتبه فيه عند كثير من الناس، وهذا يُلحقه المؤمن بالنوع الثاني، وإن لم يكن تحريمه جليًّا لا شكَّ فيه، بل هو يتَّقيه ويتجنَّبه طلبًا للبراءة لدينه وعرضه، أي: يصون دينه أن

1- الإحياء (94/2).

2- متفق عليه: البخاري في الإيمان (52)، ومسلم في المساقاة (1599)، كما رواه أحمد (18368)، وأبو داود (3329)، والترمذي (1205)، والنسائي (4453)، ثلاثتهم في البيوع، وابن ماجه في الفتن (3984).

يُخدَش، وعرضه أن يمسَّ. فهو من باب: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"[1]، كما في الحديث الشريف.

وخصوصًا إذا كانت الشبهة قوية، وحاكت في صدره، كما جاء في الحديث "الإثم ما حاك في الصدر، وكرهت أن يَطَّلع عليه الناس"[2].

من أين تأتي الشبهة؟

والشبهة قد تأتي من احتمال دليلها، وعدم الجزم به، فهو يحتمل وجهين أو أكثر، لمَن يتأمَّل فيه، ويحاول أن يستنبط منه الحكم.

وقد تأتي من اختلاف العلماء في فَهمه، فمنهم مَن يُحرِّم، ومنهم مَن يُكرِّه، ومنهم مَن يُحلِّل، وَفْقًا لمشرب كلٍّ منهم، أو لفَهمه أو لمدرسته. فمدرسة الأثر غير مدرسة الرأي، ومدرسة الظاهر غير مدرسة المقاصد.

وقد تأتي الشبهة من تطبيق الحكم على الواقعة: أتدخل فيه أم لا تدخل؟ فنحن متَّفقون على أنَّ لحم الخنزير حرام، ولكن هذا اللحم في هذا المطعم لحم خنزير أم لا؟ وهل الإناء الذي يُغْرف فيه كان فيه خنزير ولم يطهَّر بعد أو لا؟ وكذلك نحن متَّفقون على أن الخمر حرام، بل من الكبائر. ولكن هل هذا الشراب فيه خمر أو لا؟

ونحن متَّفقون على أنَّ الثوب النجس لا يُصلَّى فيه، ولكن هل هذا الماء الذي أصاب الثوب نجس أو لا؟ إلى غير ذلك من الصور. وهنا مجال الدخول في بعض الشطط والتشدُّد عند بعض الناس إلى حد الوسوسة، أو التساهل عند آخرين إلى حد التفريط. والورع عن الشبهات يسمِّيه الغزالي **(ورع الصالحين)**[3].

التورع عن المكروه التحريمي:

ويدخل إلى هذه المرتبة من الورع: ما يُسمِّيه الفقهاء (المكروه تحريمًا)، وهو ما كان إلى الحرام أقرب، بخلاف (المكروه تنزيهًا)، وهو ما كان إلى الحلال أقرب.

وبخاصَّة أن بعض السلف كانوا يتورَّعون من إطلاق كلمة (الحرام)، إلا على ما عُلم تحريمه جزمًا. ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون أن ينزل الله تعالى بيانًا شافيًا في تحريم الخمر،

1- رواه أحمد (1723)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في صفة القيامة والرقائق (2518)، وقال: حديث صحيح، والنسائي في الأشربة (5711)، عن الحسن بن علي، وصححه الألباني في الإرواء (12)، وصحح إسناده الحافظ في التغليق (211/3).

2- رواه مسلم في البر والصلة (2553)، وأحمد (17631)، والترمذي في الزهد (2389)، عن النواس بن سمعان.

3- الإحياء (18/1).

رغم نزول قوله تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}** [البقرة:219]، وقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}** [النساء:43]، ولم يطمئنُّوا إلى التحريم إلا بعد نزول آية المائدة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [المائدة:90].

ومعلوم أن الحنفية يتشدَّدون في إثبات الفرضية وإثبات التحريم، فلا يقولون: هذا الأمر فرض من الله، إلا إذا ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه، كما لا يقولون: هذا الأمر حرام إلا بمثل ذلك.

وما كان من الأدلَّة دون القطعية في الأوامر، يقولون فيه: واجب، وما كان كذلك في المنهيات، يقولون عنه: مكروه، أي: تحريمًا.

وقال يونس بن عُبيد: الورع: الخروج من كلِّ شبهة، ومحاسبة النفس في كلِّ طرفة عين[1].

وقال سفيان الثوري: ما رأيتُ أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه[2]!

وهذا الأمر الذي لا يرى الإمام الثوري أسهل منه، كم هو صعب على الناس؟!

وقال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة. وترك ما لا يعنيك، هو ترك الفضلات[3]. أي: الفضول.

4. الورع عن بعض الحلال:

والمرتبة الرابعة من مراتب الورع، وهي المرتبة العليا، والتي سمَّاها الإمام الغزالي (مرتبة المتقين)[4]: هي ترك بعض الحلال، كما قال سيدنا عمر: تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا[5]!

وفي الحديث الذي رواه الترمذي: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس"[6].

الورع عن المكروهات التنزيهية:

1- رواه البيهقي في الزهد الكبير (840).

2- مدارج السالكين (22/2). وقد اقتبس سفيان هذا المعنى من مشكاة النبوة، ففي حديث البر والإثم: "والإثم ما حاك في صدرك، وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس".

3- مدارج السالكين (21/2).

4- الإحياء (95/2).

5- رواه عبد الرزاق في البيوع (14683)، واسناده منقطع بين الشعبي وعمر.

6- رواه الترمذي في صفة القيامة (2451)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الزهد (4215)، والحاكم في الرقاق (319/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والطبراني (168/17)، والبيهقي في الكبرى كتاب البيوع (335/5)، عن عطية السعدي، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (1081).

ويدخل في هذه المرتبة من باب أوْلى (المكروهات التنزيهية)، وهي ما كان إلى الحلال أقرب، بخلاف (المكروهات التحريمية)، وهي ما كان إلى الحرام أقرب، كما ذكرنا في المرتبة السابقة. فهذه يمكن أن تلحق بمرتبة الورع عن الصغائر لقربها من الحرام، أو بمرتبة الورع عن الشبهات، لأنها ليست حلالًا صِرْفًا، ولعل هذا أرجح وأولى.

كما يدخل في هذه المرتبة، مرتبة الورع عن بعض الحلال، ما يُسمِّيه الفقهاء (خلاف الأَوْلى).

لذا فإن ميمون بن مهران يقول كما ذكَرعنه الإمام أحمد في كتاب الورع: لايتم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال. ولهذا السبب كان الصحابة يتركون أبوابا كثيرة من الحلال خوفا من الوقوع في شيء من الحرام.

ونقل العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، في تعليقاته النفيسة على (رسالة المسترشدين) (قول العلامة زين الدين ابن المُنيِّر في شرحه على (صحيح البخاري) عند رواية البخاري: "ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام": إنَّ شيخهُ القدوة الزاهد الشيخ أبا القاسم بن منصور القبَّاري الإسكندراني كان يقول: المباح: عقبة بين العبد وبين المكروه، فمن استكثر من المباح تطرَّق إلى المكروه! والمكروه عقبة بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المكروه تطرَّق إلى الحرام!

قال الحافظ ابن حجر بعد نقله في (فتح الباري) 118-1: وهو مَنزِعٌ حسن، ويؤيده رواية ابن حبِّان من طريقٍ ذكر مسلم إسنادها ولم يَسُق لفظها، فيها من الزيادة: "اجعلوا بينكم وبين الحرام سُترة من الحلال، من فعل ذلك فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن أرْتع فيه كان كالمُرتع إلى جَنْب الحمى يوشك أن يقع فيه".

ثم قال الحافظ ابن حجر : ومعنى الحديث: أنَّ الحلال حيث يُخشى أن يؤول فعلُه مطلقًا إلى مكروه أو محرم ينبغي اجتنابه، كالإكثار مثلًا من الطيبات فإنه يُحوج إلى كثرة الإكتساب الموقع في أخذ ما لا يستحق، أو يُفضي إلى بَطرِ النفس، وأقل ما فيه الاشتغال عن مواقف العبودية، وهذا معلوم بالعادة مشاهدة بالعيان. ويختلف ذلك باختلاف الناس:

فالعالم الفطنُ: لا يَخفى عليه تمييزُ الحكم، فلا يقع له ذلك إلا في الاستكثار من المباح أو المكروه كما تقرر قبل.

ومَنْ دونه: تقع له الشبهة في جميع ما ذُكر بحسب اختلاف الأحوال.

ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصيرُ فيه جرأة على ارتكاب المنهيّ عنه في الجملة، أو يحملُه اعتيادُهُ ارتكاب المنهيَّ عنه غيرِ المحرَّم على ارتكاب المنهيِّ عنه المحرَّم إذا كان من جنسه، أو يكون ذلك لشبهةٍ، وهو أن من تعاطى ما يُنهى عنه يصيرُ مظلم القلب لفقدان نور الورع! فيقع في الحرام ولو لم يَختر الوقوع فيه!

وقال العلامة العسقلاني في (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) عند هذا الحديث191/1: بالله عليك ما لم تعلم حِلّه يقينًا: اتركه، كتركه صلى الله عليه وسلم تمرةً خشيةَ أن تكون من تمر الصدقة، وأعلى الورع تَرْكُ الحلال مخافة الحرام، كترك ابراهيم بن أدهم أُجرتهُ لشكه في وفاء عمله، وطَوَى عن جوعٍ شديد.

وقالت أختُ بشر الحافي لأحمد بن حنبل: إنا نغزلُ على سطوحنا فيَمرُّ بنا مشاعلُ الظاهرية – الحرس – ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال: من أنت عافاك الله؟ قالت: أخت بشر الحافي، فبكى وقال: من بيتكم يَخرُج الورعُ الصادق، لا تغزلي في شعاعها.

وأقامت السيدة بديعة الإيجيَّة من أهل عصرنا هذا – القرن العاشر – بمكة أكثر من ثلاثين سنة لم تأكل من اللحوم والثمار وغيرها المجلوبة من (بَجِيلة) لمَّا قيل أنهم لا يُورِّثون البنات. وامتنع أبوها نور الدين من تناول ثمر المدينة لمَّا ذُكر أنهم لا يُزكون. ومن ترخّص ندم، والأورعُ أسرع على الصراط يوم القيامة.

وحكى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (15/5) في ترجمة الحافظ ابن عُقدة أنَّ والده محمد بن سعيد المُلقب بعقدة، وكان ورِعًا ناسكًا: سقطت منه دنانيرُ على باب دار أبي درّ الخزَّاز، فجاء بنخّال ليطلبها، قال عُقدة: فوجدتها، ثم فكرتُ فقلتُ: ليس في الدنيا غيرُ دنانيرك؟! فقلتُ للنخال: هي في ذمتك، ومضيتُ وتركتُه.

وحصل مثلُ هذا للإمام أبي اسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في عصره، وصاحب (المُهذب في المذهب)، وكان على خشونة شديدة من الفقر والإملاق، وفي غاية من الورع والصلاح، دخل المسجد يوما ليأكل فيه شيئًا فنسي دينارا! فذكره في الطريق فرجع، فلما وجده تركه ولم يمسّه، وقال: ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري. ذكره النووي في (تهذيب الأسماء173/2).

وانظر باب الورع في (الرسالة القشيرية) تقف على العجائب المشرقة المدهشة. وللإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: (كتاب الورع)، وهو كتاب نفيس فيه الآيات البينات من ورع السلف، يُخيِّلُ

لقارئه أن الإمام أحمد دخل الجنة، ثم جعل يتحدّث عن أخلاق أهلها. فعليك بمطالعته فإنك منتفع به ولا ريب)[1] انتهى.

ترك كل ما يشغل عن الله والآخرة:

وهناك مرتبة ذكرها الغزالي في إحيائه، وهي تختلف عن المرتبة السابقة، وهي ترك ما لا بأس به خوفًا ممَّا به بأس، فهذه لا يخاف منها بأسًا، ولكن فيها شغل عن الآخرة، وعن الله جلَّ جلاله، وهو شغل مباح لا شائبة فيه، فهذه مرتبة أعلى مما قبلها، وهي أشبه بما قالوا: حسنات الأبرار سيّئات المقرَّبين. وسمَّاها الغزالي (ورع الصدِّيقين)[2]. وهي الإعراض عن كلِّ ما يشغل عن الله تعالى والدار الآخرة.

وبهذا تتجلَّى أمامنا درجات الورع تصاعديًّا بيّنةً واضحة.

ورع عن الكبائر.

ورع عن الصغائر.

ورع عن الشُّبهات والمكروهات التحريمية.

ورع عن المكروهات التنزيهية وبعض الحلال.

ورع عن خلاف الأَوْلى.

ورع عن الحلال الذي يُخاف منه بأس.

ورع عن الحلال الذي لا يُخاف منه بأس، ولكنه يشغل عن الله تعالى.

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها:

عُني الإمام الغزالي في كتاب (الحلال والحرام)[3] من (ربع العادات) من (الإحياء) بالحديث عن الورع ودرجاته، من ورع العدول، إلى ورع الصالحين، إلى ورع المتقين، إلى ورع الصديقين. ثم عقد فصلا لإيراد الأمثلة والشواهد التاريخية والعملية على الورع، فحكى فيها وقائع عن الصحابة والتابعين وسلف الأمّة تُمثِّل درجات الورع التي ذكرها وأمثلتها.

ورع العدول:

---

[1]- رسالة المسترشدين للمحاسبي، تحقيق: الشيخ عبدالفتاح ابو غدة، ص42-44.

2- الإحياء (97/2).

3- الإحياء (88/2).

(أما الدرجة الأولى، وهي ورع العدول: فكل ما تقتضي الفتوى تحريمه ممَّا يدخل في المداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام، لفقد شرط من الشروط، فهو الحرام المطلق الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية، وهو الذي نريده بالحرام المطلق، ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد.

ورع الصالحين:

وأما الدرجة الثانية، فأمثلتها: كلُّ شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحبُّ اجتنابها، كما سيأتي في باب الشُّبهات، إذ من الشُّبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام.

ومنها: ما لا يُكره اجتنابها، فالورع عنها ورع الموسوسين، كمَن يمتنع من الاصطياد خوفًا من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه، وهذا وسواس.

ومنها: ما يُستحبُّ اجْتنابها ولا يجب، وهو الذي ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: "دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك"[1].

يُحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم؛ لأنه حاك في قلبه شيء. مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به. فأمثلة هذه الدرجة نذكرها في التعرُّض لدرجات الشبهة، فكلُّ ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة.

1- سبق تخريجه.

ورع المتقين:

أما الدرجة الثالثة، وهي ورع المتقين، فيشهد لها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس"[1]. وقال عمر رضي الله عنه: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام[2]. وقيل: إن هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال أبو الدرداء: إنَّ من تمام التقوى: أن يتَّقي العبدُ في مثقال ذرَّة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال، خشيةَ أن يكون حرامًا، حتى يكون حجابًا بينه وبين النار[3]. ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان فحملها إليه فأخذ تسعة وتسعين، وتَورَّع عن استيفاء الكلِّ، خيفة الزيادة.

وكان بعضهم يتحرَّز، فكلُّ ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبَّة، وما يعطيه يوفيه بزيادة حبَّة؛ ليكون ذلك حاجزًا من النار.

ومن هذه الدرجة: الاحتراز عما يتسامح به الناس، فإن ذلك حلال في الفتوى، ولكن يخاف مَن فتح بابه أن ينجرَّ إلى غيره، وتألف النفس الاسترسال، وتترك الورع.

ومن ذلك ما رُوي: أن عمر رضي الله عنه وصله مسك من البحرين، فقال: وددتُ لو أن امرأة وزنت، حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة: أنا أجيد الوزن. فسكت عنها ثم أعاد القول، فأعادت الجواب، فقال: لا، أحببتِ أن تضعيه بكفَّة، ثم تقولين: فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك، فأصيب بذلك فضلا على المسلمين[4].

وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة، وقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه[5]؟ لما استُبعِد ذلك منه.

وأخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة، وكان صغيرًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كخ كخ"[6] أي ألقها.

1- سبق تخريجه.

2- سبق تخريجه.

3- رواه ابن المبارك في الزهد (79)، وأحمد في الورع صـ48.

4- ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (460/2)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ 2005م.

5- ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (460/2).

6- متفق عليه: رواه البخاري (1491)، ومسلم (1069)، كلاهما في في الزكاة، كما رواه أحمد (9308)، والنسائي في الكبرى كتاب السير (8591)، عن أبي هريرة.

ومن ذلك ما روى بعضهم، أنه كان عند محتضر فمات ليلا، فقال: أطفئوا السراج، قد حدث للورثة حقٌّ في الدُهن (يعني زيت السراج).

وروى سليمان التَّيْمي، عن نعيمة العطارة قالت: كان عمر رضي الله عنه يدفع إلى امرأته طيبًا من طيب المسلمين لتبيعه، فباعتني طيبًا، فجعلت تقوم وتزيد وتنقص، وتكسر بأسنانها، فتعلق بأصبعها شيء منه، فقالت به هكذا بأصبعها، ثم مسحت به خمارها، فدخل عمر رضي الله عنه فقال: ما هذه الرائحة؟ فأخبرته فقال: طيب المسلمين تأخذينه! فانتزع الخمار من رأسها، وأخذ جرَّة من الماء، فجعل يَصُبُّ على الخمار، ثم يدلكه في التراب، ثم يشمَّه، ثم يصبُّ الماء ثم يدلكه في التراب ويشمَّه، حتى لم يبقَ له ريح، قالت: ثم أتيتها مرَّةً أخرى، فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها، فأدخلت أصبعها في فيها، ثم مَسَحت به التراب.

فهذا من عمر رضي الله عنه ورع التقوى، لخوف أداء ذلك إلى غيره، وإلا فغسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين، ولكن أتلفه عليها زجرًا وردعًا، واتِّقاءً من أن يتعدَّى الأمر إلى غيره.

ومن ذلك: لما سُئل أحمد بن حنبل رحمه الله، عن رجل يكون في المسجد يحمل مجمرة لبعض السلاطين، ويبخر المسجد بالعود، فقال: ينبغي أن يخرج من المسجد، فإنه لا ينتفع من العود إلا برائحته! وهذا قد يقارب الحرام، فإن القدر الذي يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد، وقد يبخل به، فلا يدري أنه يتسامح به أم لا؟

وسئل أحمد بن حنبل عمَّن سقطت منه ورقة فيها أحاديث، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردها؟ فقال: لا، بل يستأذن ثم يكتب[1]. وهذا أيضًا قد يشكُّ في أن صاحبها هل يرضى به أم لا؟ فما هو في محلِّ الشكِّ والأصل تحريمه، فهو حرام، وتركه من الدرجة الأولى.

ومن ذلك: التورُّع عن الزينة، لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها، وإن كانت الزينة مباحة في نفسها. وقد سُئل أحمد بن حنبل عن النعال السبتية، فقال: أما أنا فلا أستعملها، ولكن إن كان للطين فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا[2].

1- ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (466/2).

2- ذكره ابن تيميه في اقتضاء الصراط المستقيم صـ84.

ومن ذلك: أنَّ عمر رضي الله عنه لما ولي الخلافة كان له زوجة يحبُّها فطلَّقها، خيفة أن تشير عليه بشفاعة في باطل فيعطيها، ويطلب رضاها[1]. وهذا من ترك ما لا بأس به، مخافة مما به البأس، أي: مخافة من أن يفضي إليه، وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات، حتى استكثار الأكل، واستعمال الطيب للمتعزِّب، فإنه يحرِّك الشهوة، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر، والفكر يدعو إلى النظر، والنظر يدعو إلى غيره.

كذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجمُّلهم مباحٌ في نفسه، ولكن يُهيِّج الحرص، ويدعو إلى طلب مثله، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحلُّ في تحصيله.

وهكذا المباحات كلُّها إذا لم تُؤخذ بقدر الحاجة، في وقت الحاجة، مع التحرُّز من غوائلها، بالمعرفة أولا، ثم بالحذر ثانيًا، فقلَّما تخلو عاقبتها عن خطر.

وكذا كلُّ ما أخذ بالشهوة، فقلَّما يخلو عن خطر، حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان، وقال: أما تجصيص الأرض، فيمنع التراب، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها[2]. واستدلَّ بما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه سُئل أن يُكحَّل المسجد – أي يُطلى بشيء مثل الكحل – فقال: "لا، عريش كعريش موسى!"[3]، وإنما هو شيء مثل الكحل يُطلى به، فلم يرخِّص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه.

وكره السلف الثوب الرقيق، وقالوا: مَن رقَّ ثوبه رقَّ دينه[4]! وكلُّ ذلك خوفًا من سريان اتِّباع الشهوات في المباحات إلى غيرها، فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة، وإذا تعوَّدت الشهوة المسامحة استرسلت، فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كلِّه، فكلُّ حلال انفكَّ عن مثل هذه المخافة، فهو الحلال الطيِّب في الدرجة الثالثة، وهو كلُّ ما لا يخاف أداؤه إلى معصية ألبتة.

ورع الصديقين:

أما الدرجة الرابعة، فورع الصدِّيقين، ومن أمثلته: ما رُوي عن ذي النون المصري أنه كان جائعًا محبوسًا، فبعثت إليه امرأة صالحة طعامًا على يد السجَّان، فلم يأكل، ثم اعتذر، وقال: جاءني

1- لم أقف لهذه الرواية على سند، وهي غير مقبولة بموازين الشرع؛ لأن هذا الورع جَارَ على حقِّ المرأة، فما ذنبها حتى يكسر قلبها بالطلاق، من أجل خشية قد لا تحدث، إلا إذا رضيت المرأة بالطلاق.

2- ذكره أحمد في الورع صـ182- 183.

3- رواه عبد الرزاق في الصلاة (5135)، عن أبي بن كعب وأبي الدرداء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (4007).

4- رواه الدولابي في الكنى والأسماء (898/2)، عن أبي الغدير المليكي، تحقيق نظر بن محمد الفريابي، طبعة دار ابن حزم، بيرت، 1421هـ 2000م.

على طبق ظالم[1]. يعني أن اليد التي أوصلت الطعام إليَّ لم تكن طيِّبة، وهذه الغاية القصوى في الورع.

ومن ذلك أن بِشرا (الحافي) رحمه الله، كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء. فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه، وإن كان الماء مباحًا في نفسه، فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأُجَرَاء، وقد أُعطوا الأجرة من الحرام.

ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كَرْم حلال، وقال لصاحبه: أفسدتَه إذ سقيتَه من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة! وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء؛ لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء.

وكان بعضهم إذا مرَّ في طريق الحجِّ لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة! مع أن الماء مباح، ولكنه بقي محفوظًا بالمصنع الذي عُمل به بمال حرام، فكأنه انتفاع به. وامتناع ذي النون من تناول الطعام من يد السجَّان أعظم من هذا كلِّه، لأنَّ يد السجَّان لا توصف بأنها حرام، بخلاف الطبق المغصوب إذا حمل عليه، ولكنه وصل إليه بقوَّة اكتُسبت بالغذاء الحرام.

ولذلك تقيَّأ الصدِّيق رضي الله عنه، من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوَّة، مع أنه شربه عن جهل[2]. وكان لا يجب إخراجه، ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصدِّيقين.

ومن ذلك؛ التورُّع من كسب حلال اكتسبه خيَّاط يخيط في المسجد.

فإن أحمد رحمه الله، كره جلوس الخياط في المسجد.

وأطفأ بعضهم سراجًا أسرجه غلامه من قوم يكره مالهم.

وامتنع من تسجير تنور للخبز، وقد بقي فيه جمر من حطب مكروه.

وامتنع بعضهم من أن يحكم شسع نعله في مشعل السلطان.

فهذه دقائق الورع عند سالكى طريق الآخرة.

أول الورع وغايته:

والتحقيق فيه: أنَّ الورع له أول: وهو الامتناع عما حرَّمته الفتوى، وهو ورع العدول. وله غاية، وهو ورع الصدِّيقين، وذلك هو الامتناع من كلِّ ما ليس له، ممَّا أخذ بشهوة، أو توصّل إليه

1- ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (321/2).

2- رواه البخاري في فضائل الصحابة (3842)، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الغصب (97/6)، وفي الشعب باب المطاعم والمشارب (5770)، عن عائشة.

بمكروه، أو اتَّصل بسببه مكروه. وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان العبد أشدَّ تشديدًا على نفسه، كان أخفَّ ظهرًا يوم القيامة، وأسرع جوازًا على الصِّراط، وأبعد عن أن تترجَّح كفَّة سيئاته على كفَّة حسناته.

وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حقِّ الظلمة، بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث.

وإذا علمتَ حقيقة الأمر، فإليك الخيار، فإن شئتَ فاستكثر من الاحتياط، وإن شئتَ فرخِّص، فلنفسك تحتاط، وعلى نفسك ترخِّص، والسلام)[1].

كمال الورع في تحقيق ابن تيمية:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: تمام الورع أن يَعْلم الإنسان خير الخيْرين، وشر الشَّرَّيْن، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يُوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يَدَع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعا، ويَدَعُ الجُمُعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة، أو فجور، ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة العِباد، وأخذ عِلم العالم لما في صاحِبِه من بدعة خفية، ويرى تَرْك قبول سماع هذا الحقِّ الذي يجب سماعُهُ من الورع[2].

القدوات يُعلِّمون الورع:

وانظر – رعاك الله – إلى هذه المرأة – التي أوردنا قصتها من قبل – التي بلغت من الورع أقصى المراتب، تسأل الإمام أحمد: إنا نغزل على سطوحنا فيمر بنا مشاعل الظاهرية – الحرس – أفيجوز لنا أن نغزل في شعاعها؟ فسألها الإمام أحمد: من أنت عافاك الله؟ قالت: أخت بشر الحافي! فبكى وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق!

إنها أخت بشر الحافي الذي كان يقول: أشتهي شواء منذ ثلاثين سنة، ولكن لم يصفُ لي درهمه!

وهاك مثلا في التربية الفذة على الورع، فعن حماد بن زيد قال: كنتُ مع أبي فأخذتُ من حائط تبنة، فقال لي: لم أخذتها؟ قلتُ: إنما هي تبنة! قال: لو أن كل واحد من الناس أخذ تبنة هل

1- انظر: الإحياء (2/98-95).

2- الفتاوى 512/10

كان يبقى في الحائط تبن؟! يُعلِّم ولده عدم استصغار التبنة؛ حتى لا يستصغر في المستقبل ما هو أكبر منها.

وهذا الحسن بن عبد العزيز الجروي، شيخ البخاري، لم يقبل من إرث أبيه شيئًا لشبهة خالطته.

قال عبد المجيد بن عثمان صاحب تاريخ تِنّيس: كان صالحًا ناسكًا، وكان أبوه مَلِكًا على تِنّيس، ثم أخوه عليٌّ، ولم يقبل الحسن من إرث أبيه شيئًا، وكان يُقارن بقارون في اليَسار! أي: الغنى.

وأما ابن المبارك الإمام، فقد سافر من بلاد مرو بخراسان إلى الشام ليردَّ قلَّما كان قد استعاره من رجل هناك، فلما عاد إلى مرو وجد القلم معه، فعاد مرَّة أخرى إلى الشام ليردَّ القلم[1].

فهل هناك أمل أن نحاول أن نسير على طريق الورع، حتى نلحق بالرجال الورعين، ونعيد لأمتنا سالف مجدها.. هذا الطريق واضح فأين السالكون؟!

---

[1]– سياتي الحديث عن ورع ابن المبارك وزهده في آخر الكتاب.

القسم الثاني
الزهد

(1)
في حقيقة الزهد ومكوناته

حقيقة الزهد ما هي؟

لم تجئ في القرآن الكريم كلمة (الزهد) ولا مشتقَّاتها إلا مرَّة واحدة في قِصَّة يوسف الصِّدِّيق عليه السلام, حين باعه السيَّارة الذين التقطوه من الجبِّ[1]، **{وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً}** [يوسف:19]، فقال تعالى واصفًا حالهم: **{وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ}** [يوسف:20]، أي: باعوه.

وجاءت هذه الكلمة في السنة النبوية في أكثر من حديث، بعضها من طرق صحيحة، وبعضها من طرق ضعيفة, ومنها الحديث المشهور في الزهد، الذي اجتهد بعض العلماء أن يرقى به إلى درجة الحديث الحسن لغيره، وذلك هو الذي رواه ابن ماجه، والحاكم، والطبراني، والبيهقي، وأبو نُعيم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن رجلا سأله: يارسول الله, دلَّني على عمل إذا عملتُه أحبَّني الله, وأحبَّني الناس؟ قال: "ازهد في الدنيا يحبُّك الله, وازهد فيما في أيدي الناس يحبُّك الناس"[2]، وهو من أحاديث (الأربعين النووية) الشهيرة.

وأضعف منه حديث أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا: أن لا تكون بما في يديك أوثق ما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبتَ بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك"[3]. والأصوب أن يكون من كلام بعض التابعين.

ومن الأحاديث الصحيحة: حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أصيب إخوانكم بأُحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظلِّ العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم،

1- هذا هو الصحيح، وليس إخوة يوسف كما قال عدد من المفسرين، بدليل قوله تعالى بعدها: **{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ}** [يوسف:21]، إذ لا يمكن لإخوة يوسف أن يذهبوا إلى مصر ويبيعوه هناك.

2- رواه رواه ابن ماجه في الزهد (4102)، والحاكم في الرقاق (348/4)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: خالد بن عمرو القرشي وضاع، والطبراني (193/6)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10523)، وقال: خالد بن عمرو ضعيف، وأبو نعيم في الحلية (253/3)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (3310)، عن سهل بن سعد الساعدي.

3- رواه الترمذي (2340)، وقال: هذا حديث غريب، وعمرو بن واقد منكر الحديث، وابن ماجه (4100)، كلاهما في الزهد، عن أبي ذر، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (405).

قالوا: مَن يبلِّغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أبلِّغهم عنكم، قال فأنزل الله: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}** [آل عمران:169][1].

وعن أبي هريرة قال: قلنا: يا رسول الله، ما لنا إذا كنا عندك رقَّت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك، فآنسنا أهالينا، وشممنا أولادنا، أنكرنا أنفسنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك، لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد، كي يذنبوا فيغفر لهم ..."[2].

وكذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تُزهِّد في الدنيا وتُذكِّر الآخرة"[3].

عن أبي تميمة، عن رجل من قومه، أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أوصني. قال: "لا تسبنَّ أحدا، ولا تزهد في معروف"[4].

عن أبي خلاد – وكانت له صحبة – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا، وقلة منطق، فاقتربوا منه، فإنه يُلقي الحكمة"[5].

عن الربيع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كفى بالموت مُزهِّدا في الدنيا، ومُرغِّبا في الآخرة"[6].

<u>الكتب المؤلفة في الزهد:</u>

اشتهرت كلمة الزهد فيما بعد، حتى أصبحت (مصطلحًا) على اتجاه في السلوك, يقوم على الإعراض عن ملذَّات الدنيا، وأُلِّفت فيها كتب تحمل هذا العنوان (الزهد)، مثل: (الزهد والرقائق)

1- رواه أحمد (2388)، وقال مخرِّجوه: حسن، وأبو داود في الجهاد (2520)، وأبو يعلى (219/4)، والحاكم (97/2)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب الجهاد (4240)، كلاهما في الجهاد، وفي الكبرى جماع أبواب السير (163/9)، عن ابن عباس، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (2199).

2- رواه الترمذي في صفة الجنة (2526)، وقال: ليس إسناده بذاك القوي، وليس هو عندي بمتصل، وابن المبارك في الزهد (1075)، والطبراني في الأوسط (7111)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في ضعيف الترمذي دون قوله: قال: قلت: يا رسول الله، مم خلق الخلق؟ قال: "من الماء"... (454).

3- رواه ابن ماجه في الجنائز (1571)، وعبد الرزاق في الجنائز (6714)، وابن حبان في الرقائق (981)، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، والحاكم في الجنائز (531/1)، والبيهقي في الكبرى كتاب الجنائز (77/4)، عن ابن مسعود، وصحح إسناده المنذري في الترغيب (189/4)، ضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (343).

4- رواه أحمد (20636)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، النسائي في الكبرى كتاب الزينة (9611).

5- رواه ابن ماجه في الزهد (4101)، والطبراني (392/22)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10529)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (894).

6- رواه ابن أبي شيبة في الزهد (35470)، وقال عوامة: الإسناد في دائرة الحسن، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10555)، وقال: هذا مرسل، عن الربيع.

للإمام ابن المبارك (ت180هـ)، و(الزهد) للمعافى بن عمران الموصلي (ت185هـ)، ولوكيع (ت197هـ)، ولأسد بن موسى (ت212هـ)، ولأحمد بن حنبل (ت241هـ)، ولأبي داود السجستاني (ت275هـ)، ولأبي حاتم الرازي (ت277 هـ)، ولابن أبي الدنيا (ت281هـ)، ولابن أبي عاصم (ت287هـ)، ولهناد بن السري (ت243هـ)، و(الزهد وصفة الزاهدين) لأحمد بن بشر المعروف بـ(ابن الأعرابي) (ت340هـ)، و(الفوائد والزهد والرقائق والمراثي) لجعفر الخلدي (ت340هـ)، و(الزهد الكبير والصغير) للحافظ البيهقي (ت458هـ).

واشتهر بهذا الوصف (الزهد) أناس من السلف أطلق عليهم (الزهَّاد)، قبل أن يعرف الناس مصطلح (الصوفية), وقد بدأ ذلك من عصر الصحابة رضي الله عنهم، حيث اشتهر بالزهد منهم جماعة مثل: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وأبي الدرداء. واشتهر بعدهم مثل: أويس القرني، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم[1].

هل يجوز استخدام كلمة (الزهد)؟

وإذا كانت كلمة (الزهد) لم ترد في القران الكريم، بمعناها المعروف في علم السلوك، ولم ترد في السنة إلا في ذلك الحديث الواحد – على ما فيه – فليس معنى ذلك أن مضمونها غير وارد في القران أو الحديث، كلا، فإنَّ القرآن والسنة حافلان بالتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، كما سنُبيّن ذلك.

ولهذا لا مانع من استخدام المصطلح (الزهد)، على أن يفسَّر معناه، ويحدَّد مضمونه، فلا نقع في التجاوزات والتطرُّفات التي وقع فيها الغلاة من الأمم والأفراد، قبل الإسلام وبعده، من الذين ناصبوا الحياة، وناصبوا البدن الإنساني العداء، واعتبروا أن العناية بالجسم سبب لتعاسة الرُّوح، وأنه إذا ارتقي الجسم انتكست الرُّوح، والعكس بالعكس، وأن الاهتمام بالدنيا نقص في الدين، وعدوان على الآخرة.

لقد رأينا ذلك جليًّا في الفلسفة البرهمية في الهند، والبوذية في الصين، والمانوية في فارس، والرواقية في اليونان، والرهبانية في الديانة النصرانية.

1– انظر: كتاب (الزهاد الأوائل) للدكتور مصطفى حلمي، دار الدعوة، الأسكندرية، الطبعة الأولى 1400هـ 1979م.

كانت فلسفة هؤلاء جميعًا تقوم على مقاومة الجسد أو تعذيبه، فكلما حوصر الجسد بالحرمان والإيذاء صفت الرُّوح، وترقَّت في مدارج الكمال.

حكم الزهد:

قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي المالكي (ت520هـ): الزهد نافلة مستحبة لا فريضة، يستوجب الزاهد بها، رِضا الله عزَّ وجلَّ عنه، ورفيع الدرجات في جنة المأوى، وإن كانت الواجبات كلها لا تكون إلا بالزهد، فلا يسمى بشيء منها زاهدا، إذ قد اختصت من الأسماء بما هو أليق بها من الزهد ألا ترى الإيمان لا يكون إلا بالزهد في كل معبود سواه، والصلاة لا تكون إلا بالزهد في الاشتغال بما يصد عنها، ويمنع منها؟ وكذلك سائر الفرائض والطاعات[1]

مكونات حقيقة الزهد:

الزهد مقام من مقامات الدين, ومنزل من منازل السائرين إلى مقامات (إياك نعبد وإياك نستعين)، كما سمَّاها العلامة الهروي, وكلُّ مقام من مقامات الدين, يتكوَّن عند الإمام الغزالي من معجون مركَّب من ثلاثة عناصر, يسمِّيها: العلم والحال والعمل.

وإذا أردنا أن نتحدَّث عن هذا التعريف أو نُعبِّر عنه بعبارة معاصرة قلنا: إنه يتكون من عنصر عقلي معرفي إدراكي, وعنصر وجداني انفعالي شعوري, وعنصر حركي عملي سلوكي.

والزهد في الحقيقة هو الحال أو الوجدان أو الشعور الذي يخُطُّ أغواره في النفس الإنسانية، بحيث تشعر معه أن الدنيا متاع قليل, ومتاع الغرور, ومتاع زائل ,وأنها دار ممر إلى دار مقرٍ, وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية, وأن إليها المنتهى, وأنها خيرٌ وأبقى, وأن الفوز فيها هو الفوزالعظيم, والخسران فيها هو الخسران المبين, وأن الخير كلَّ الخير في إيثار الآخرة على الدنيا, وأن يزرع المرء هنا ليحصد هناك, وتعيش النفس في هذا الوجدان المعرض عن الدنيا الراغب في الآخرة.

وهذا الحال, أو هذا العنصر الوجداني أو الشعوري, مبدؤه ومنشؤه معرفة عميقة, وعلم راسخ بحقيقة الدنيا, وصغر منزلتها, وهوانها على الله, وأن الله جعلها دار ابتلاء لأنبيائه ورسله وعباده الصالحين, وأن أشدَّ الناس بلاء فيها هم الأنبياء, ثم الأمثل فالأمثل[2], وأن المفلح في الدنيا هو المتزوِّد منها للآخرة, وخير الزاد التقوى, وأن الخاسر في الدنيا هو مَن عاش لدنياه وحدها، وأن

1– الجامع من المقدمات لأبي الوليد بن رشد القرطبي، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ص184.

2– إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (1481)، وقال مخرجوه: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن بهدلة وهو صدوق، والترمذي في الزهد (2398)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (4023)، عن سعد بن أبي وقاص بلفظ: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل".

الآخرة هي الحياة الحقيقية عند ذوي البصيرة، كما قال تعالى: **{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** [العنكبوت:64].

وإذا كانت الحال الوجدانية أثرا للعنصر المعرفي, فإنها تؤثِّر في العنصر العملي والسلوكي, الذي يتجلَّى في الإعراض عن الدنيا, والإقبال على الآخرة, والاجتهاد في عمل الصالحات, واجتناب السيئات, والحذر من المحرَّمات والشبهات والمكروهات, بل من التوسُّع في المباحات, خشية أن تغري بغيرها, وتفضي إلى ما به بأس.

التحذير من فتنة الدنيا

أولا: تحذير القرآن من الدنيا:

مَن قرأ القرآن من أوله إلى آخره، مكيّه ومدنيّه: أيقن أنَّ من مقاصده الأصلية: أن يُزهِّد الناس في الدنيا، ويُعرّفهم بخسَّتها، وقلَّتها، وانقطاعها، وسرعة فنائها، وحقارة متاعها، وأن يرغِّبهم في الآخرة، ويخبرهم بشرفها، ودوامها، وأنها عند الله خير وأبقى، فإذا أراد بعبد خيرًا، أقام في قلبه شاهدا، يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أحقُّ بالإيثار.

وحسبنا هذه الآيات: {**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**} [الحديد:20].

{**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**} [يونس:24].

{**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ**} [النحل:96].

{**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا *الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا**} [الكهف:45، 46].

{**قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً *أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**} [النساء:77، 78].

وقال: {**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**} [الأعلى:16، 17].

{**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**} [طه:131].

{**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا *وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**} [الكهف:7، 8].

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف:28].

{وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف:33-35].

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران:185].

{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [هود:15، 16].

{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [الإسراء:18، 19].

{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [الشورى:20].

وذكر القرآن في آيات كثيرة عن الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله: أنهم غرتّهم الحياة الدنيا، كالذين ذمهم الله بقوله: {الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف:51].

وقال سبحانه: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأنعام:130].

وقال تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأنعام:32].

{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت:64].

إيثار الدنيا على الآخرة من أسباب الانحراف عن الحق:

والقرآن يرى أنَّ من أسباب الانحراف عن الحقِّ إلى الباطل، وعن الدين إلى الهوى، إنما هو إيثار الدنيا على الآخرة، وقد ذمَّ القرآن بني إسرائيل على تحريفهم دينهم، وتلاعبهم بأحكامه بسبب انهماكهم في حُبِّ الدنيا، قال تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** [البقرة:84 –86].

ذم الذين باعوا بالدنيا آيات الله ودينه:

والقرآن يسمِّي الدنيا كلَّها **{ثَمَنًا قَلِيلًا}**، ويذمُّ أولئك الذين باعوا بهذا الثمن القليل آيات الله ودينه وعهده وإيمانه، وكل القيم الدينية والأخلاقية، كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [174، 175]، كما مدح القرآن قوما من أهل الكتاب رفضوا مثل هذا السلوك، قال سبحانه: **{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}** [آل عمران:199].

وبيَّن القرآن أن التحذير من الدنيا هو طريق الأنبياء والمؤمنين، كما عرض موعظة مؤمن آل فرعون، الذي وقف يعظ قومه ويحذِّرهم قائلا: **{يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}** [غافر:38، 39].

غرور الدنيا:

ولهذا كرَّر القرآن تحذيره من غرور الدنيا، فقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}** [فاطر:5].

وقال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شيئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**} [لقمان:33].

ونلاحظ في الآيتين السابقتين: أن الخطاب نهى الناس كافَّة، مؤمنهم وكافرهم، أن تغرَّهم الحياة الدنيا، وتخدعهم ببريقها وفتنتها وزينتها، فتحُول بين الكافرين والإيمان، وتحُول بين المسلمين وطاعة الرحمن.

كما نلاحظ أنهما تنهيان عن الغرور والانخداع بالحياة الدنيا، وبالغَرور الذي هو الشيطان، عدو الإنسان، فكلاهما يقوم بدور الإضلال للإنسان.

عَرَض الدنيا:

كما ذمَّ القرآن بعض ما يُفعل أو يُترك، كما لام المسلمين في عهد النبوة على موقفهم من قبول فداء أسرى المشركين في غزوة بدر، فقال تعالى: **{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ}** [الأنفال:67].

كما لام الذين يرفضون التلفُّظ بالشهادة دليلا على الإسلام في بعض الغزوات، من أجل الدنيا، فقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا}** [النساء:94].

ثانيا: التحذير من الدنيا في السنة النبوية:

والسنة النبوية حافلة بالأحاديث الوفيرة في التحذير من الغرور بالدنيا وزينتها، والفتنة بمتاعها الأدنى، والترغيب في الدار الآخرة، وهي خير وأبقى، وسأكتفي هنا بما ذكره الحافظ المنذري في كتابه (الترغيب والترهيب)، مقتصرين على الصِّحاح والحسان، مما انتقيناه في كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب) وعلَّقنا عليه، وزدنا في تخريجه. وهو كمٌّ كبير:

1- عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء رضي الله عنهما قالت: قلتُ له: ما لك لا تطلب ما يطلب فلان وفلان؟ قال: إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن وراءكم عقبة كَؤودا لا يجوزها المُثقِلون". فأنا أحبُّ أن أتخفَّف لتلك العقبة. رواه الطبراني، بإسناد صحيح[1].

2- وعن أبي أسماء، أنه دخل على أبي ذر وهو بالرَّبَذَة وعنده امرأة سوداء مُشَنَّعة ليس عليها أثر المحاسن، ولا الخَلُوق فقال: ألا تنظرون إلى ما تأمرني هذه السويداء؟ تأمرني أن آتي العراق، فإذا أتيتُ العراق مالوا عليَّ بدنياهم، وإن خليلي صلى الله عليه وسلم، عهد إليَّ أن "دون جسر

---

[1]- رواه ابن الأعرابي في الزهد (110)، والحاكم في الأهوال (574/4)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (226/1)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10408)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات (259/3). "الكؤود" بفتح الكاف، وبعدها همزة مضمومة: هي العقبة الصعبة. والمثقلون: ذوو الحمل الثقيل.

جهنم طريقا ذا دَحْض ومَزَلَّة، وإنا أن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتِدَار واضطِمَار أحرى أن ننجو، من أن نأتي عليه ونحن مَوَاقِير[1]". رواه أحمد، ورواته رواة الصحيح[2].

(الدَّحْض) – بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين وبفتح الحاء أيضا وآخره ضاد معجمة – هو الزلق.

3– وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله عزَّ وجلَّ ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبُّه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب". رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد[3].

4– وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أحبَّ الله عزَّ وجلَّ عبدا حماه الدنيا، كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء". رواه الطبراني، بإسناد حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم بلفظه من حديث قتادة[4]، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[5].

5– وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "هل تدرون أول مَن يدخل الجنة من خلق الله عزَّ وجلَّ؟". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "الفقراء المهاجرون، الذين تُسدُّ بهم الثغور، وتُتَّقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عزَّ وجلَّ لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم. فتقول الملائكة: ربنا نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلِّم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادا يعبدوني، ولا يشركون بي شيئًا، وتُسدُّ بهم الثغور، وتُتَّقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء". قال: "فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كلِّ باب: **{سَلَامٌ**

---

[1]– مشنعة: أي متفرقة الشعر، ويروى "مسفعة" بالسين مهملة بعدها فاء – أي مسودة اللون قليلا. والخلوق: الطيب. والمزلة: الزلل. والاقتدار: القدرة على احتمالنا. والاضطمار: أصله الضمور والهزال، وأراد الخفة. وأحرى: أي أولى. ومواقير: أي مثقلون.

[2]– رواه أحمد (21416)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي أسماء فمن رجال مسلم، وأبو نعيم في الحلية (161/1)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (453/10).

[3]– رواه الحاكم في الطب (208/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

[4]– في الترغيب: أبي قتادة، والتصويب من (الموارد) (والمستدرك)، وهو قتادة بن النعمان.

[5]– رواه الترمذي الطب (2036)، وقال: حسن غريب، وابن حبان في الرقائق (669)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والطبراني (252/4)، والحاكم في الرقاق (309/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:24]". رواه أحمد، والبزار، ورواتهما ثقات، وابن حبان في صحيحه[1].

6- وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن حوضي ما بين عدن إلى عمان، أكوابه عدد النجوم، ماؤه أشدُّ بياضا من الثلج، وأحلى من العسل، وأكثر الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين". قلنا: يا رسول الله، صفهم لنا؟ قال: "شُعثُ الرؤوس، دُنْس الثياب، الذين لا ينكحون المتنعِّمات، ولا تفتح لهم السُّدَد، الذين يُعطَون ما عليهم، ولا يُعطَون ما لهم". رواه الطبراني، ورواته رواة الصحيح، وهو في الترمذي، وابن ماجه بنحوه[2].

"السُّدَد" هنا: هي الأبواب. [جمع سُدَّة، والمراد: أبواب الأمراء والكبراء].

7- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا". فقيل: صِفهم لنا؟ قال: "الدنسة ثيابهم، الشعثة رؤوسهم، الذين لا يُؤذن لهم على السُّدات، ولا ينكحون المُنعَّمات، تُوكَّل بهم مشارق الأرض ومغاربها، يُعطون كلَّ الذي عليهم ولا يُعطَون كلَّ الذي لهم[3]". رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورواته ثقات[4].

ورواه مسلم مختصرا: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن فقراء أمتي المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفا". ورواه ابن حبان في صحيحه مختصرا أيضا، وقال: "بأربعين عاما"[5].

1- رواه أحمد (6570)، وقال مخرجوه: إسناده جيد، والبزار (2457)، وابن حبان في مناقب الصحابة (7421)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصححه شاكر (6570)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهما ثقات (455/10).

2- رواه الترمذي في صفة القيامة (2444)، وقال: حديث غريب، وابن ماجه في الزهد (4303)، والطبراني (99/2)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (457/10).

3- الحديث وما قبله يصوِّر أناسا مشغولين، بغيرهم عن أنفسهم، وبمخبرهم عن مظهرهم، وبواجباتهم عن حقوقهم. ولهذا وصفوا بأنهم "يعْطون كل الذي عليهم، ولا يعطون كل الذي لهم" كما جاء في حديث البخاري: "طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه". فقد شغله الجهاد عن ترجيل الشعر ونظافة القدمين، ولا يفهم من هذه الأحاديث بحال أن السنة ضد النظافة والتجميل.

4- رواه الطبراني في الكبير (315/12)، والأوسط (3477)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات (458/10).

5- رواه مسلم في الزهد (2979)، وأحمد (6578)، وابن حبان في الرقائق (677).

8- وعن أسامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قمتُ على باب الجنة، فكان عامة مَن دخلها المساكين، وأصحاب الجَدَّ محبوسون[1]، غير أن أصحاب النار، قد أمر بهم إلى النار. وقمتُ على باب النار، فإذا عامة مَن دخلها النساء". رواه البخاري، ومسلم[2].

"الجَدُّ" بفتح الجيم هو: الحظُّ والغنى.

9- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم أحيني مسكينا، وتوفَّني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين[3]". رواه ابن ماجه[4].

10- وعن عائذ بن عمرو، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدوِّ الله مأْخَذَها. فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأجاره، فقال: "يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربك". فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي. رواه مسلم وغيره[5].

11- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير: أوصاني أن لا أنظر إلى مَن هو فوقي، وأنظر إلى مَن هو دوني، وأوصاني بحبِّ المساكين، والدنوِّ منهم، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت. الحديث. رواه الطبراني، وابن حبان في صحيحه[6].

---

[1]- محبوسون: أي لم يؤذن لهم بعد في دخول الجنة.

[2]- متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (5196)، ومسلم في الرقاق (2736)، وأحمد (6578).

[3]- المسكنة هنا لا تعني الفقر فقد استعاذ بالله من شره في أكثر من حديث. وإنما تعني التواضع والبعد عن بريق المظاهر المادية.

[4]- رواه ابن ماجه في الزهد (4126)، والحاكم في الرقاق (358/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب قبض اليد على الأموال (5499)، وفي الكبرى كتاب قسم الصدقات (13/7)، وأسرف ابن الجوزي فذكره في الموضوعات (140/3)، قال ابن حجر: وليس كذلك، فقد صححه الضياء في (المختارة). وقال مرة أخرى: وكأنه أقدم عليه لما رآه مباينا للحال التي مات عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم، لأنه كان مكفيًّا. كذا في (الفيض) (102/2)، وصحح الألباني في صحيح الجامع (1261)، ولعل من صححه لشواهده عن أنس وعائشة وعبادة بن الصامت.

[5]- رواه مسلم في الفضائل (2504)، والنسائي في الكبرى كتاب المناقب (8219).

[6]- رواه أحمد (21415)، وقال مخرجوه: حديث صحيح وهذا إسناد حسن، والطبراني في الكبير (156/2)، والأوسط (7739)، والصغير (758)، وابن حبان في البر والإحسان (449)، وقال: الأرناؤوط: حديث صحيح، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الصغير والكبير ورجاله رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة (523/7).

12- وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف مُستضعَف، لو يقسم على الله لأبرَّه. ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عتلٍّ جوَّاظ مستكبر". رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه[1].

(العُتُلُّ) بضم العين والتاء وتشديد اللام هو: الجافي الغليظ. و(الجَوَّاظُ) بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره ظاء معجمة هو: الضخم المختال في مشيته. وقيل: القصير البطين. وقيل: الجَموع المَنُوع.

13- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "احتجَّت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبَّارون والمتكبِّرون. وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم. فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي، أرحم بك مَن أشاء، وإنك النار عذابي، أعذِّب بك مَن أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها". رواه مسلم[2].

14- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة". رواه البخاري، ومسلم[3].

15- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مرَّ رجل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لرجل عنده جالس: "ما رأيك في هذا؟". قال: رجل من أشراف الناس، هذا والله، حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يشفَّع. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مرَّ رجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما رأيك في هذا؟". فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا أحْرَى[4]

---

[1]- متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4918)، ومسلم في الجنة وصفتها (2853)، وابن ماجه في الزهد (4116)، وكذا الترمذي في صفة جهنم (2605).

[2]- لم يذكر مسلم لفظه، بل روى حديث أبي هريرة قبله، ثم ذكر عن أبي سعيد بسنده إلى أبي صالح، وفي أوله: احتجت الجنة والنار .. قال: فذكر نحو حديث أبي هريرة. إلى قوله: " ولكليكما على ملؤها" الحديث (2847). ومقتضى القواعد: "ولكلتيكما" ولعل التأويل أنهما مكانان النعيم والعذاب، وتأنيثهما مجازي.

[3]- متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4729)، ومسلم في صفة القيامة (2785).

[4]- أحرى: أجدر وأحق، يعني أنه ليس أهلا لأن يزوج ويشفع ... إلخ

إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يشفَّع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"[1]. رواه البخاري، وابن ماجه[2].

16- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظر أرفع رجل في المسجد". قال: فنظرتُ فإذا رجل عليه حُلَّة، قلتُ: هذا. قال: قال لي: "انظر أوضع رجل في المسجد". قال: فنظرتُ فإذا رجل عليه أخلاق[3]، قال: قلتُ: هذا. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لهذا عند الله خير يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا". رواه أحمد، بأسانيد رواتها محتجٌّ بهم في الصحيح، وابن حبان في صحيحه[4].

17- وعن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه، أن له فضلا على مَن دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم"[5] رواه البخاري[6]، والنسائي وعنده: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما تُنصر هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم"[7].

18- وعن محمود بن لَبِيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير من الفتنة، ويكره قلَّة المال، وقلَّة المال أقلُّ للحساب". رواه

---

[1]- الإسلام لا يقيس الناس بأموالهم أو بجاههم فإن الله لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال، ولهذا حرص النبي صلى الله عليه وسلم، أن يؤكد هذه الحقيقة، في أكثر من حديث بهذا الأسلوب التربوي العملي، تثبيتا له في الأذهان والضمائر.

[2]- رواه البخاري في النكاح (5091)، وابن ماجه في الزهد (4120).

[3]- أخلاق: ثياب رثة خلقة.

4- رواه أحمد (21395)، وابن حبان في الرقاق (681)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح (458/10)، وقال أيضاً: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بأسانيد ورجال أحمد وأحد إسنادي البزار والطبراني رجال الصحيح (468/10).

[5]- يشير الحديث إلي قضية اجتماعية مهمة، وهي أن الفئات الضعيفة من العمال والفلاحين والحرفيين ونحوهم، هم عدة النصر في الحرب، وعدة الإنتاج في السلم. وهذا بعض ما يُفهم من: " تنصرون وترزقون". وانظر كتابنا (فقه الجهاد) (626/1).

[6]- قال النووي في الرياض: رواه البخاري هكذا مرسلا، فإن مصعب بن سعد تابعي، ورواه الحافظ أبو بكر البرقاني في صحيحه متصلا عن مصعب عن أبيه اهـ. وكذلك رواه النسائي موصولا وسنده صحيح. قال ابن حجر في الفتح: قال الدارقطني: وهذا مرسل، قلتُ: صورته صورة المرسل، إلا أنه موصول في الأصل معروف من رواية مصعب بن سعد عن أبيه، وقد اعتمد البخاري كثيرا من أمثال هذا السياق، فأخرجه على أنه موصول إذا كان الراوي معروفا بالرواية عمن ذكره (362/1).

[7]- رواه البخاري (2896)، والنسائي (3178)، كلاهما في الجهاد.

أحمد، بإسنادين رواة أحدهما محتجٌّ بهم في الصحيح، ومحمود له رؤية، ولم يصحَّ له سماع فيما أرى[1].

19- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه". رواه مسلم[2].

20- وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أمتي مَن لو جاء أحدكم يسأله دينارا لم يعطه، ولو سأله درهما لم يعطه، ولو سأله فلسا لم يعطه، فلو سأل الله الجنة أعطاها إياه. ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه". رواه الطبراني، ورواته محتجٌّ بهم في الصحيح[3].

21- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، اتقوا الدنيا واتقوا النساء"[4]. رواه مسلم، والنسائي وزاد: "فما تركتُ بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء"[5].

22- وعن عمرة بنت الحارث رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا حلوة خضرة، فمَن أخذها بحقِّها بارك الله له فيها، ورُبَّ مُتخوِّض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة". رواه الطبراني، بإسناد حسن[6].

23- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الدنيا حلوة خَضِرة، فمَن أخذها بحقِّها بارك الله له فيها، ورُبَّ متخوِّض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار". رواه الطبراني في الكبير، ورواته ثقات[1].

1- رواه أحمد (23625)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (62/3).

2- رواه مسلم في البر والصلة (2622).

3- رواه الطبراني في الأوسط (7548)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح (466/10).

4- والتحذير من الدنيا ومن النساء لا يعنى ترك الدنيا أو النساء. فالدنيا مزرعة الآخرة، والنساء شقائق الرجال. وإنما يعنى اجتناب الافتتان بهما، والاشتغال بهما عن طاعة الله ونصرة دينه. والوقوف عند حدوده.

5- رواه مسلم في الرقاق (2742)، والنسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (9224).

6- رواه الطبراني (340/24)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني وإسناده حسن (431/10).

24- وعن أبي عبد الرحمن الحُبُلِّي قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاصي وسأله رجل فقال: ألست من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإن لي خادما. قال: فأنت من الملوك. رواه مسلم موقوفا[2].

25- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له: ألم أصحَّ لك جسمك، وأَروِك من الماء البارد؟". رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد[3].

26- وعن أنس رضي الله عنه قال: اشتكى سلمان: فعاده سعد، فرآه يبكي، فقال له سعد: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أليس ... أليس ...؟ قال سلمان: ما أبكي واحدة من اثنتين، ما أبكي ضنًّا على الدنيا، ولا كراهية الآخرة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهِد إلينا عهدا ما أراني إلا قد تعدَّيتُ. قال: وما عهِد إليك؟ قال: عهِد إلينا أنه "يكفي أحدكم مثل زاد الراكب". ولا أراني إلا قد تعدَّيتُ، وأما أنت يا سعد، فاتقِ الله عند حكمك إذا حكمت، وعند قسمك إذا قَسَمت، وعند همِّك إذا هَمَمتَ. قال ثابت: فبلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهما مع نُفَيقة كانت عنده. رواه ابن ماجه، ورواته ثقات احتجَّ بهم الشيخان، إلا جعفر بن سليمان فاحتجَّ به مسلم وحده[4].

قال الحافظ المنذري: وقد جاء في صحيح ابن حبان، أن مال سلمان رضي الله عنه جُمع، فبلغ خمسة عشر درهما[5]، وفي الطبراني: أن متاع سلمان بِيع فبلغ أربعة عشر درهما[6].

---

[1]- وكذا قال الهيثمي في المجمع (264/3).

[2]- رواه مسلم في الزهد والرقائق (2979).

[3]- رواه ابن حبان في مناقب الصحابة (7364)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، والحاكم في الأشربة (138/4)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، ورواه الترمذي في التفسير (3358)، وقال: غريب.

[4]- رواه ابن ماجه في الزهد (4104)، وذكر في (الزوائد): أن جعفر بن سليمان الضبعي مختلفا فيه. وفي (التقريب)، قال عنه الحافظ: صدوق زاهد لكنه يتشيع.

[5]- رواه ابن حبان في الرقاق (706)، ورواه الحاكم الرقاق (317/4)، ووافقه الذهبي، عن عامر بن عبد الله.

[6]- رواه الطبراني (214/6)، عن علي بن نديمة، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني وإسناده جيد إلا أن علي بن نديمة لم يدرك سلمان فإن كانت تركته تأخرت فهو متصل (446/10).

27- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قد أفلح مَن أسلم، ورُزق كفافا، وقنَّعه الله بما آتاه". رواه مسلم، والترمذي، وغيرهما[1].

(الكفاف): الذي ليس فيه فضل عن الكفاية.

28- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا". وفي رواية: "كفافا". رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه[2].

29- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يتبع الميت ثلاث: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله". رواه البخاري، ومسلم[3].

30- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من عبد ولا أَمَة إلا وله ثلاثة[4] أخلاء: فخليل يقول: أنا معك، فخذ ما شئتَ، ودع ما شئتَ، فذلك ماله. وخليل يقول: أنا معك، فإذا أتيتَ باب المَلِك تركتُك، فذلك خَدَمه وأهله. وخليل يقول: أنا معك، حيث دخلتَ وحيث خرجت، فذلك عمله". رواه الطبراني في الكبير، بأسانيد أحدها صحيح[5].

31- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول العبد مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس". رواه مسلم[6].

32- وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: **{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}** [التكاثر:1][1] قال: "يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأمضيتَ". رواه مسلم، والترمذي، والنسائي[2].

1- رواه مسلم في الزكاة (1054)، والترمذي (2349)، وابن ماجه (4138)، كلاهما في الزهد.

2- متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (6460)، ومسلم (1055)، والترمذي (2361)، وابن ماجه (4139)، ثلاثتهم في الزهد.

3- متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (6514)، ومسلم في الزهد (2960).

4- في مطبوعة الترغيب والترهيب (ثلاث)، والمثبت الصواب، وهو الموافق لقواعد اللغة، إذ المعدود مذكَّر، وكما جاء في مجمع الزوائد (441/10).

5- وهكذا قال في مجمع الزوائد (441/10).

6- رواه مسلم في الزهد (2959).

33- وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالسوق، والناس كَنَفَتَيه، فمرَّ بجدي أَسَكَّ ميت، فتناوله بأذنه، ثم قال: "أيُّكم يحبُّ أن هذا له بدرهم؟". فقالوا: ما نحبُّ أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: "أتحبُّون أنه لكم؟". قالوا: والله، لو كان حيًّا لكان عيبا فيه؛ لأنه أسك فكيف وهو ميِّت؟ فقال: "والله، للدنيا أهون على الله عزَّ وجلَّ من هذا عليكم". رواه مسلم[3].

قوله: "كَنَفَتَيه" أي عن جانبيه. و(الأَسَكَّ) بفتح الهمزة والسين المهملة أيضا وتشديد الكاف هو: الصغير الأُذن.

34- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء". رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[4].

35- وعن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن مطعم ابن آدم جُعل مثلًا للدنيا، وإن قَزَّحَه ومَلَحَه، فانظر إلى ما يصير؟". رواه عبد الله بن أحمد، وابن حبان في صحيحه[5].

قوله: "قَزَّحَه" بتشديد الزاي هو: من القِزْح، وهو التابل، يقال: قَزَّحتُ القدر؛ إذا طرحتَ فيها الأبزار. و"مَلَحَه" بتخفيف اللام معروف.

36- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الدنيا ملعونة[1]، ملعون ما فيها، إلا ذِكْر الله، وما والاه، وعالم أو متعلِّم". رواه ابن ماجه، والبيهقي، والترمذي، وقال: حديث حسن[2].

---

[1]- ومعنى التكاثر: التفاخر بكثرة المال والمتاع، وإلهاكم: أي: شغلكم.

[2]- رواه مسلم (2958)، والترمذي (2342)، كلاهما في الزهد، والنسائي في الوصايا (3613).

[3]- رواه مسلم في الزهد (2957)، والحديث يجسد جانبا من الطريقة النبوية في التربية.

[4]- رواه الترمذي في الزهد (2320)، وابن ماجه في الزهد (4110).

[5]- رواه عبد الله في زوائد المسند (21239)، وابن حبان في الرقاق (702)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، والطبراني (198/1)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه عبد الله والطبراني ورجالهما رجال الصحيح غير عتي وهو ثقة (514/10).

37– وعن المستورِد أخي بني فِهر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليمِّ – وأشار يحيى بن يحيى بالسبَّابة – فلينظر بمَ يرجع". رواه مسلم[3].

38– وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أنه لما حضرته الوفاة قال: يا معشر الأشعريين ليبلِّغ الشاهد الغائب، إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "حُلْوَة الدنيا مُرَّة الآخرة، ومُرَّة الدنيا حُلْوة الآخرة" رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد[4].

39– وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه[5]" رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان في صحيحه[6].

40– وعن كعب بن عِيَاض رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن لكلِّ أمة فتنة، وفتنة أمتي المال". رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد[7].

41– وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا دار مَن لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له". رواه أحمد، والبيهقي وزاد: "ومال مَن لا مال له" وإسنادهما جيد[1].

---

[1]– المراد باللعن هنا: الذم، فالدنيا مذمومة مبغوضة، لا من حيث ذاتها، بل من حيث أنها تلهي عن ذكر الله والدار الآخرة، بدليل الاستثناء في الحديث.

[2]– رواه الترمذي (2322)، وابن ماجه (4112)، والبيهقي في الشعب في طلب العلم (1708).

[3]– رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (2858)، والترمذي (2323)، وابن ماجه (4108)، كلاهما في الزهد.

4– في الرقاق (310/4)، ووافقه الذهبي، وقد رواه أحمد (22899)، والطبراني (291/3)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات (435/10).

[5]– يقصد بالشرف: الجاه والعلو والظهور. ولهذا قيل: حب الظهور كم قصم الظهور! فإذا اجتمع إلى حب الجاه حب المال والحرص عليه كان الفساد العريض لدين المرء المسلم كما قال الحديث الشريف، وقد أفرده ابن رجب بالشرح فأجاد.

[6]– رواه الترمذي في الزهد (2376)، وابن حبان في الزكاة (3228)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وكذا رواه أحمد (15822)، والطبراني (96/19).

[7]– رواه الترمذي في الزهد (2336)، وابن حبان في الزكاة (3223)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، والحاكم في الرقاق (318/4)، ووافق الذهبي على تصحيحه، وكذا رواه أحمد (17471)، وقال مخرجوه: حديث صحيح وإسناده قوي.

42- وعن عَمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعتْ الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، ثم قال: "أظنُّكم سمعتُم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟". قالوا: أجل، يا رسول الله. قال: "أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهلككم كما أهلكتهم". رواه البخاري، ومسلم[2].

43- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمُّد" رواه أحمد، ورواته مُحتجٌّ بهم في الصحيح، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم[3].

44- وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الشيطان لعنه الله: لن يسلم مني صاحب المال من إحدى ثلاث أغدو عليه بهن وأروح: أخذه من غير حِلِّه، وإنْفاقُه في غير حقِّه، وأحبِّبه إليه فيمنعه من حقِّه". رواه الطبراني، بإسناد حسن[4].

45- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه كان يعطي الناس عطاءهم، فجاءه رجل فأعطاه ألف درهم ثم قال: فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما أهلك مَن كان قبلكم الدينار والدرهم، وهما مهلكاكم" رواه البزار، بإسناد جيد[5].

1- رواه أحمد (24419)، والبيهقي في الشعب في الزهد (10638)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة (515/10).

2- متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (3158)، ومسلم في الزهد (2961).

3- رواه أحمد (8074)، وابن حبان في الزكاة (3222)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والحاكم في التفسير (534/2)، ووافقه الذهبي في تصحيحه، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (304/3).

4- رواه الطبراني (136/1)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني وإسناده حسن (427/10).

5- رواه البزار (1612)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه البزار وإسناده جيد (411/10).

46- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال: "إن مما أخاف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها". رواه البخاري، ومسلم في حديث[1].

47- وعن أبي سنان الدؤلي، أنه دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعنده نفر من المهاجرين الأولين، فأرسل عمر إلى سَفَط أُتي به من قلعة العراق، فكان فيه خاتم، فأخذه بعض بنيه فأدخله في فِيه، فانتزعه عمر منه، ثم بكى عمر رضي الله عنه، فقال له مَن عنده: لِمَ تبكي، وقد فتح الله عليك، وأظهرك على عدوك، وأقرَّ عينك؟ فقال عمر: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله عزَّ وجلَّ بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة". وأنا أشفق من ذلك. رواه أحمد، بإسناد حسن، والبزار، وأبو يعلى[2].

(السَّفط) بسين مهملة وفاء مفتوحتين هو: شيء كالقُفَّة أو كالجُوالِق.

48- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس إذ قام أعرابي فيه جَفَاء، فقال: يا رسول الله، أكلتنا الضَبُع! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "غير ذلك أخوف عليكم، حين تُصَبُّ عليكم الدنيا صبًّا، فيا ليت أمتي لا تلبس الذهب". رواه أحمد، والبزار، ورواة أحمد رواة الصحيح[3].

(الضَبُع) بضاد معجمة مفتوحة وباء موحدة مضمومة هي: السنة المُجْدبة.

49- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنتُ أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم، في حرة بالمدينة، فاستقبلنا أُحُد فقال: "يا أبا ذر". قلتُ: لبيك، يا رسول الله. قال: "ما يسرُّني أن عندي مثل أُحُد هذا ذهبا تمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدَيْن، إلا أن أقول في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا". عن يمينه، وعن شماله، وعن خلفه. ثم سار فقال: "إن الأكثرين هم الأقلُّون يوم

---

[1]- متفق عليه: رواه البخاري (1465)، ومسلم (1052)، كلاهما في الزكاة.

[2]- رواه أحمد (93)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد وأبو يعلى في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه كلام (305/3).

3- رواه أحمد (21353)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح (261/5)، ورواه الطبراني في الأوسط (3964).

القيامة، إلا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا – عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه – وقليل ما هم". ثم قال لي: "مكانك لا تبرح حتى آتيك". الحديث رواه البخاري واللفظ له، ومسلم[1].

وفي لفظ لمسلم قال: انتهيتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظلِّ الكعبة، فلما رآني قال: "هم الأخسرون، وربِّ الكعبة". قال: فجئتُ حتى جلست، فلم أتَقَارَّ أن قمت، فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، مَن هم؟ قال: "هم الأكثرون أموالا، إلا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا – من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله – وقليل ما هم" الحديث.

ورواه ابن ماجه مختصرًا: "الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا مَن قال هكذا وهكذا، وكسبه من طيب"[2].

50- وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقلُّوا الدخول على الأغنياء، فإنه أحرى أن لا تزدروا نِعَم الله عزَّ وجلَّ". رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد[3] انتهى.

51- عن عمرو بن عوف، وكان شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان الرسول الله صلى الله عليه وسلم، قد صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعتْ الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انصرف تعرَّضوا له، فتبسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، ثم قال: "أظنُّكم سمعتُم أن أبا عبيدة قدم بشيء". قالوا: أجل، يا رسول الله. قال: "فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على مَن كان من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم"[4].

1- متفق عليه: رواه البخاري في الاستقراض (2388)، ومسلم في الزكاة (94)

2- رواه ابن ماجه الزهد (4130)، وفي الزوائد: إسناده حسن، وسويد مختلف فيه. يعني سويد بن سعيد الهروي.

3- رواه الحاكم في الرقاق (312/4)، ووافقه الذهبي علي تصحيحه.

4- متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (3158)، ومسلم في الزهد (2961)، كما رواه أحمد (17234)، والترمذي في صفة القيامة (2462)، وابن ماجه في الفتن (3997).

52- وقال عمر: دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثَّر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا في ناحية الغرفة، وإذا أَفِيقٌ - جلد لم يُدبغ - معلَّق. قال: فابتدرت عيناي. قال:" ما يبكيك، يا ابن الخطاب؟". قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى؟ وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفوته، وهذه خزانتك". فقال: "يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟"[1].

53- وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قَصْعتها". فقال قائل: ومن قِلَّة نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهْن"[2]. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت"[3].

والأحاديث في ذمِّ الدُّنيا وحقارتها عند الله كثيرة جدًّا، ففي صحيح مسلم، عن جابر، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم، مرَّ بالسوقِ والناس كَنَفَيْهِ، فمرَّ بجديٍّ أسكَّ ميِّت فتناوله، فأخذ بأذنه، فقال: "أيُّكم يحبُّ أن هذا له بدرهم؟". فقالوا: ما نحبُّ أنَّه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: "أتحبُّون أنَّه لكم؟". قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبا فيه؛ لأنه أسكُّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: "والله للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم"[4].

وفيه أيضًا عن المستورد الفهري، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدُكم أصبَعَهُ في اليمِّ، فلينظر بماذا ترجع"[5].

1- رواه مسلم في الطلاق (1479)، وابن ماجه في الزهد (4153)

2- الوَهْن بسكون الهاء - وتحرَّك: الضعف في العمل أو في الأمر أو في العظم.

3- رواه أحمد (22397)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه وإسناد أحمد جيد (563/7)، وأبو داود في الملاحم (4297)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (958)، عن ثوبان.

4- رواه مسلم في الزهد والرقائق (2957)، وأحمد (14930)، وأبو داود في الطهارة (186).

5- سبق تخريجه.

وروى الترمذي، من حديث سهل بن سعد، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "لو كانتِ الدنيا تعدِلُ عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربةً"[1]، وصححه.

1- رواه الترمذي في الزهد (2320)، وابن ماجه في الزهد (4110)، والحاكم في الرقائق (306/4)، وصححه، وقال الذهبي: زكريا بن منظور ضعفوه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (943)، عن سهل بن سعد.

تعريف الزهد عند علماء السلوك

عني علماء السلوك والتربية الإيمانية (بالزهد) وحقيقته وآثاره، أكثر مما عنوا بغيره، وذلك باعتباره منزلة من منازل السائرين، ومحطَّة مهمَّة في الطريق إلى الله. كما نظروا إليه من وجهة نظر أخرى، وهو أنهم يعتبرونه أحيانًا عنوانًا على طريقهم الذي ارتضَوه، واتخذوه سبيلا للوصول إلى مرضاة الله، وكأنهم حين يتحدَّثون عن الزهد، يتحدَّثون عن (التقوى)، أو (الصلاح)، أو (الاستقامة)، ونحو ذلك.

ومن أجل هذا أُلِّفت فيه الكتب من السلف رضوان الله عليهم، بهذا الاسم (الزهد)، مثل الزهد للإمام ابن المبارك، والإمام أحمد، وغيرهما مما سبق ذكره.

<u>الاختلاف في تعريف الزهد وتحديد مفهومه:</u>

وقد اختلفوا كثيرًا في تعريف (الزهد) وتحديد مفهومه تحديدًا دقيقًا، أو كما يقول علماء المنطق: جامعًا مانعًا. ومعظم هذا الاختلاف مما يسمِّيه العلماء: اختلاف تنوُّع، وليس اختلاف تضاد أو تناقض.

فكلٌّ واحد منهم يلتفت إلى معنى مهم في الزهد، فيركز عليه ما لا يركز عليه غيره من المُربِّين والمُرشدين، وهذا طبيعي بين البشر.

وأحيانًا يعبِّر أحدهم عن حالته في وقته، وما يشعر هو به أو يعيشه، أي يُعبِّر عن تجربته الروحية الخاصة.

وقد تعدَّدت عبارات علماء السلوك في تعريف (الزهد) واختلفت اختلافًا كثيرًا، قد يقف أمامه بعض الباحثين متحيِّرًا، والحقيقة أنهم لم يكونوا يقصدون أن يُعرِّفوه تعريفًا منطقيًا جامعًا مانعًا، بل كلٌّ منهم يعبِّر عن تجربته الخاصة كما قلنا، فقد يُعبِّر عن حقيقته، وقد يُعبِّر عن باعثه، وقد يُعبِّر عن أثره، وقد يُعبِّر عن علاقته.

وسنذكر هنا بعض هذه التعريفات، التي يُؤخذ من مجموعها: ما الزهد الذي يريده القوم ويتحدَّثون عنه، ويدعون إليه. وكثيرًا ما يعبِّر كلٌّ منهم عن عنصر من عناصر الزهد، تتكوَّن من مجموعها الحقيقة الإيمانية المنشودة.

من هذه التعريفات:

<u>الثقة بما في يد الله:</u>

ما قاله يونس بن ميسرة، أو أبو مسلم الخولاني: (ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا: أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون ذامك ومادحك في الحقِّ سواء[1]. (وقد روي هذا المعنى مرفوعًا ولا يصح).

وهذا تعريف مهم؛ لأنه ينفي الوهم الذي يتصوَّر أنَّ الزهد هو التَّجرُّد من الدنيا تمامًا، أو ترك المال الذي جعله الله للناس قيامًا، والذي قال فيه الرسول الكريم: "نِعم المال الصالح للمرء الصالح"[2]. كما ينفي توهُّم أنه ترك الطيبات من الرزق، كما في الرهبانية التي تُحرِّم الزواج وأكل الطيبات والتجمُّل بالثياب، وغيرها.

وقد قال العلاَّمة ابن رجب في شرح هذا الأثر: (ففسَّر الزهد في الدُّنيا بثلاثة أشياء كلُّها من أعمال القلوب، لا من أعمال الجوارح، ولهذا كان أبو سليمان يقول: لا تَشْهَدْ لأحدٍ بالزُّهد، فإنَّ الزُّهد في القلب.

<u>أحدها:</u> أنْ يكونَ العبدُ بما في يد الله أوثقَ منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ مِنْ صحَّة اليقين وقوَّته، فإنَّ الله ضَمِن أرزاقَ عباده، وتكفَّل بها، كما قال: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا}** [هود:5]، وقال: **{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}** [الذاريات:22]، وقال: **{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ}** [العنكبوت:17].

قال الحسن: إنَّ مِنْ ضعف يقينك أن تكونَ بما في يدك أوثقَ منك بما في يد الله عزَّ وجلّ[3].

ورُوي عن ابن مسعود قال: إنَّ أرجى ما أكون للرزق إذا قالوا: ليس في البيت دقيق.

وقال مسروقٌ: إنَّ أحسن ما أكون ظنًّا حين يقول الخادم: ليس في البيت قفيزٌ من قمحٍ، ولا درهمٌ[4].

وقال الإمامُ أحمد: أسرُّ أيامي إليَّ يوم أُصْبِحُ وليس عندي شيء[5].

1- رواه ابن الأعرابي في الزهد (6)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10774)، عن يونس بن ميسرة، وأحمد في الزهد صـ18، عن أبي مسلم الخولاني.

2- رواه أحمد (17763)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وابن حبان في الزكاة (3210)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، والبخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (299)، والبيهقي في الشعب باب التوكل بالله (1248)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (3756)، عن عمرو بن العاص.

3- رواه ابن أبي الدنيا في اليقين (34).

4- رواه ابن أبي شيبة في الزهد (36018)، والزهد لهناد (592)، وحلية الأولياء (162/1).

5- انظر صفة الصفوة (345/2).

وقيل لأبي حازم الزاهد: ما مالُك؟ قال: لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثِّقةُ بالله، واليأسُ ممَّا في أيدي الناس[1].

وقيل له: أما تخافُ الفقر؟ فقال: أنا أخاف الفقر، ومولاي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى[2]؟!

وقال الفضيلُ بن عياض: أصلُ الزُّهد الرِّضا عَنِ الله عزَّ وجلَّ[3]. وقال: القنوع هو الزهد، وهو الغنى[4].

فمَن حقَّق اليقين، وثق بالله في أموره كلِّها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ومنعه ذلك مِنْ طلب الدُّنيا بالأسباب المكروهة، ومَن كان كذلك، كان زاهدًا في الدُّنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس، وإنْ لم يكن له شيء من الدُّنيا كما قال عمَّار: كفى بالموت واعظًا، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً[5].

وقال ابن مسعود: اليقينُ: أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسخطِ اللهِ، ولا تحمد أحدًا على رزق الله، ولا تَلُم أحدًا على ما لم يؤتِكَ الله، فإنَّ الرِّزقَ لا يسوقُه حرصُ حريصٍ، ولا يردُّه كراهة كارهٍ، فإنَّ الله تبارك وتعالى، بقسطه وعلمه وحكمه، جعل الرَّوحَ والفرحَ في اليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط[6].

والثاني: أنْ يكونَ العبدُ إذا أُصيبَ بمصيبةٍ في دُنياه مِنْ ذهابِ مالٍ، أو ولدٍ، أو غير ذلك، أرغبَ في ثواب ذلك ممَّا ذهبَ منه مِنَ الدُّنيا أنْ يبقي له، وهذا أيضًا ينشأُ مِنْ كمالِ اليقين.

وقد روي عن ابن عمر: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، كان يقول في دعائه: "اللهُمَّ اقسم لنا مِنْ خشيتك ما تحولُ به بيننا وبين معاصِيكَ، ومِنْ طاعتك ما تبلِّغُنا به جنَّتك، ومِنَ اليقين ما تهوِّنُ

1- رواه الدينوري في المجالسة (963)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (56/22).

2- رواه الدينوري في المجالسة (2743)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (29/22)، بنحوه.

3- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (399/48)

4- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (291).

5- رواه الإمام أحمد في الزهد صـ176، وابن أبي الدنيا في اليقين (31)، وصحح إسناده الألباني في الضعيفة (502).

6- رواه هناد في الزهد (535)، وابن أبي الدنيا في اليقين (32)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (175/33).

به علينا مصائبَ الدُّنيا"[1]. وهو من علامات الزُّهد في الدُّنيا، وقلَّةِ الرَّغبة فيها، كما قال عليٌّ رضي الله عنه: مَن زهد في الدُّنيا، هانت عليه المصيباتُ[2].

والثالث: أنْ يستوي عندَ العبد حامدُه وذامُّه في الحقّ، وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا، واحتقارها، وقلَّةِ الرَّغبة فيها، فإنَّ مَن عظُمتِ الدُّنيا عنده أحبَّ المدحَ وكرِهَ الذَّمَّ، فربما حمله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحقِّ خشيةَ الذمِّ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدح، فمَن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ، دلَّ على سُقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وامتلائه مِنْ محبَّة الحقِّ، وما فيه رضا مولاه، كما قال ابن مسعود: اليقين أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسخط الله[3]. وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم)[4].

لا فرح بالموجود ولا أسى على المفقود:

قال الإمام ابن المبارك في تعريف الزاهد: هو الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن فاتته لم يحزن[5].

وقال وهيب المكّي: الزهد في الدنيا ألاَّ تأسى على ما فاتك منها، ولا تفرح بما أتاك منها[6]. وإليه يشير قوله تعالى: **{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ}** [الحديد:23].

قصر الأمل في الحياة:

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا: قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء[7]. (يعني الخشن).

وقال: كان من دعائهم: اللهم زهّدنا في الدنيا، ووسّع علينا منها، ولا تَزْوِها عنا، فترغِّبنا فيها[8].

وجاء ذلك عن أحمد بن حنبل: الزهد في الدنيا قصر الأمل[9].

وقال مرَّة: قصر الأمل، واليأس مما في أيدي الناس[1])[2].

1- جزء من حديث رواه الترمذي في الدعوات (3502)، وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبري كتاب عمل اليوم الليلة (10162)، والحاكم في الدعاء (528/1)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (2492)، في التحقيق الثاني.

2- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (204)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10623).

3- سبق تخريجه.

4- انظر: جامع العلوم الحكم لابن رجب بتحقيق شعيب الأرناؤوط (180/2 – 183)، طبعة الرسالة، بيروت.

5- كما في ترجمته في ترتيب المدارك للقاضي عياض (40/3)

6- رواه ابن الأعرابي في (7)، وأبو نعيم في الحلية (140/8).

7- رواه وكيع في الزهد (4)، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل (32)، وابن الأعرابي في الزهد (8).

8- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (172).

9- ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (11/2).

التواضع للخلق:

وذُكر عند الحسن البصري الزهد، فقال بعضهم: اللباس. (أي الزهد في الناعم والنفيس منه). وقال بعضهم: المطعم، وقال بعضهم: كذا. فقال الحسن: لستم في شيء، الزاهد الذي إذا رأى أحدا، قال: هذا أفضل مني[3].

قال أبو سعيد بن الأعرابي: هذا داخل في باب التواضع، وإسقاط الجاه. وقال ابن رجب: هذا يرجع إلى أن الزاهد حقيقة هو الزاهد في مدح نفسه وتعظيمها. ولهذا يقال: الزهد في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة، فمَن أخرج من قلبه حبَّ الدنيا، والترفُّع منها على الناس، فهو الزاهد حقا[4].

وعن سفيان بن عيينة قال: قالوا للزهري: ما الزهد؟ (لعلها: ما الزاهد؟) قال: مَن لم يغلب الحرام صبره، ولم يغلب الحلال شكره[5].

قال ابن الأعرابي: معناه: الصبر على الحرام، والشكر على الحلال.

وعن علي بن المديني قال: قيل لسفيان بن عيينة: ما هو الزهد؟ قال: أن تكون شاكرًا في الرخاء، صابرًا في البلاء، فإذا كان كذلك فهو زاهد. قيل لسفيان: ما الشكر؟ قال: أن تجتنب ما نهى الله عنه[6]. (وكأنه يقول: استخدام النعمة في طاعة لا في معصية، وثمرة ذلك: اجتناب ما نهى الله عنه).

وروى ابن الأعرابي بسنده، عن أحمد بن أبي الحواري قال: قلتُ لسفيان بن عيينة: ما الزهد في الدنيا؟ قال: مَن إذا أُنعم عليه شكر، وإذا ابتُلي صبر. قلتُ: يا أبا محمد، قد أُنعم عليه فشكر، وابتُلي وصبر، وهو جليس النعمة، كيف يكون هذا؟ فضربني بيده وقال: مَن لم تمنعه النعماء من الشكر، ولا البلوى من الصبر، فذلك الزاهد[7]!

زهد الفرض والفضل والسلامة:

1- طبقات الحنابلة (39/1).

2- جامع العلوم والحكم (184/2).

3- ابن الأعرابي في الزهد (2)، والبيهقي في الشعب باب حسن الخلق (8249).

4- انظر: جامع العلوم والحكم (183/2)، طبعة الرسالة.

5- رواه ابن الأعرابي في الزهد (4، 5)، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (4553).

6- رواه ابن الأعرابي في الزهد (13)، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (4438).

7- رواه ابن الأعرابي في الزهد (4)، وأبو نعيم في الحلية (273/7).

وقال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثة أصناف، فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. فزهد الفرض: الزهد في الحرام، وزهد الفضل: الزهد في الحلال، وزهد السلامة: الزهد في الشبهات[1].

الزهد في الناس وفي النفس:

وعن فضيل بن عياض قال: علامة الزهد في الدنيا: الزهد في الناس[2].

وقال بشر بن الحارث (الحافي): حبُّ الدنيا: حب لقاء الناس، والزهد في الدنيا: الزهد في لقاء الناس[3].

ومعنى هذا: الزهد في الجاه والشهرة عند الناس، والعمل في صمت.

وقال أبو سليمان الداراني: اختلفوا علينا في الزهد، فمنهم مَن قال: لقاء الناس. ومنهم مَن قال ترك الشهوات. قال أبو سليمان: وقولهم قريب، بعضه من بعض[4]. وعلَّق ابن الأعرابي قائلا: مَن ترك لقاء الناس، فهو للشهوات أترك.

وقريب منه قول أبي عمار القسملي: الدنيا هي النفس[5]. وعلَّق ابن الأعرابي بقوله: فكأنه يقول: الزهد في الدنيا: الزهد في النفس، ومعناه: في شهواتها ومحبوبها، كأنه إذا كان يشغل عن الله.

الإسلام دين اجتماعي:

وأحبُّ هنا أن أوضِّح أمرًا قد يلتبس على الكثيرين، وهو: أن الزهد في الناس، وفي لقاء الناس، لا يعني العزله عنهم، والعيش وحده، كما يفعل الرهبان في النصرانية. فالإسلام دين اجتماعي، يربِّي المسلم على أن يحيا في جماعة، ويعمل في جماعة، ولهذا شرع صلاة الجماعة، واعتبرها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وعلَّم المسلم أن يقول في صلاته وإن كان وحده: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** [الفاتحة:5، 6]، هكذا بصيغة الجمع، لأنه يستحضر الجماعة دائمًا في ضميره.

ويخاطب القرآن بالأحكام والتكاليف دائما الجماعة، فيقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا}**، ولم يقُل: (يأيها المؤمن)؛ لأن تنفيذ التكاليف مسئولية الجماعة أو الأمة المسلمة كلِّها.

1- رواه ابن الأعرابي في الزهد (12)، وأبو نعيم في الحلية (137/10).

2- رواه ابن الأعرابي في الزهد (21).

3- رواه ابن الأعرابي في الزهد (20)، وأبو نعيم في الحلية (343/8).

4- رواه ابن الأعرابي في الزهد (22).

5- رواه ابن الأعرابي في الزهد (23).

وإنما بعث الله رسله وأنبياءه ليخاطبوا الناس، ويدعوهم إلى صراط الله المستقيم، ويعلِّموهم ما لم يكونوا يعلمون. وكذلك ورثة الأنبياء وأتباعهم حثَّهم أن يقتدوا بهم، ويخالطوا الناس، ليعلِّموا جاهلهم، وينبِّهوا غافلهم، ويردُّوا شاردهم، وسيصيبهم – لا محالة – ما يصيبهم من الأذى، ولكن هذه طبيعة مهمَّتهم. ولهم في ذلك أجرهم عند الله. وفي الحديث الصحيح: "المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم"[1].

العمل لنصرة الإسلام:

ومن المعلوم الآن: أن العمل لنصرة الإسلام، ونشر دعوته، وإعلاء كلمته، وتحكيم شريعته، وإحياء أمَّته، ومقاومة أعدائه، والذود عن كيانه، وتصحيح الفَهم له، وتجديد الإيمان به، والوقوف في وجه التيارات الهدَّامة، التي تريد أن تقتلع جذوره، أو على الأقل تهدِّد وجوده، وتشوِّه وجهه. هذا العمل لا يمكن أن يؤتي أُكله، ويحقِّق أهدافه إلا إذا كان عملًا جماعيًا، يقوم على أساس من قوله تعالى: **{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى}** [المائدة:2]، وقوله: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}** [آل عمران:103]، وقوله: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** [العصر:3]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "يد الله مع الجماعة"[2]، "المؤمن للمؤمن كالبينان، يشدُّ بعضه بعضا"[3]، وقوله: "الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد"[4]، "فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية"[5]، "المؤمن مرآة أخيه"[6]، بالإضافة إلى أحاديث الحُبِّ في الله، والتزاور في الله، والتجالس في الله، وبعضها في الصحيح ومن المتَّفق عليه.

1- رواه أحمد (5022)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، والترمذي في صفة القيامة (2507)، وابن ماجه في الفتن (4032)، والبيهقي في آداب القاضي (19961)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (939)، عن ابن عمر.

2- رواه الترمذي في الفتن (2166)، وقال: غريب، وصححه الألباني، عن ابن عباس.

3- متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (2446)، ومسلم في البر والصلة (2585)، كما رواه أحمد (19625)، والترمذي في البر والصلة (1928)، والنسائي في الزكاة (2560)، عن أبي موسى الأشعري.

4- رواه أحمد (114)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، والترمذي في الفتن (2165)، وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (9181)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (4311)، وصحح إسناده البوصيري في الإتحاف (6990)، عن عمر بن الخطاب.

5- رواه أحمد (27513)، وقال مخرجوه: حسن، أبو داود في الصلاة (547)، والنسائي في الإمامة (847)، وابن حبان في الصلاة (2101)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (511)، عن أبي الدرداء.

6- رواه أبو داود في الأدب (4918)، والبخاري في الأدب المفرد (238)، وحسنه الألباني، والبيهقي في قتال أهل البغي (167/8)، وحسن إسناده الحافظ في بلوغ المرام (309/1)، عن أبي هريرة.

فالمقصود إذن بالزهد في الناس: الزهد في الجاه، والشهرة والثناء والمدح منهم. وهذه منزلة أهم من الزهد في المال، وأشدُّ على النفس منها. ولهذا قال السِرّي السَّقطي وهو مَن هو: مارست كلَّ شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد، إلا الزهد في الناس، فإني لم أبلغه، ولم أُطِقه[1].

الورع أول الزهد:

ومن أقوال أبي سليمان: القناعة من الرضا، بمنزلة الورع من الزهد. قال: فهذا أول الرضا. يعني: القناعة. وهو أول الزهد: يعني: الورع[2]!

ولا ريب أنَّ الورع تحرِّي الحلال في كسب العيش، وهو ما أجاب به ربيعة الرأي حين سُئل: يا أبا عثمان، ما رأس الزهادة؟ قال: جمع الأشياء من حلِّها، ووضعها في حقِّها[3].

وعن يوسف بن أسباط قال: مَن صبر على الأذى، وتَرَك الشهوات، وأكل الخبز الحلال، فقد أخذ بأصل الزهد[4].

وأكل الخبز الحلال: إنما هو من الورع، وهو أول الزهد.

يؤكِّد هذا ما جاء عن أبي أمية قال: أزهد الناس في الدنيا – وإن كان مُكبًّا عليها حريصًا – مَن لم يرضَ فيها إلا بكسب الحلال الطيب، وأرغب الناس فيها – وإن كان معرضًا عنها – مَن لم يبالِ بما كسب منها، حلال أم حرام[5].

وقال بعضهم في الزهد: هو الذي لم ينَل في الدنيا حراما[6].

وهذا كلُّه يؤكِّد أهمية الحرص على الحلال الطيِّب، وهو داخل في حقيقة الورع، وهو بهذا مقدِّمة ضرورية للزهد، فلا زهد بلا ورع.

الزهد إنما هو في الحلال:

على أن من علماء السلوك مَن لم يرَ ترك الحرام، وتحرِّي الحلال، كافيًا في اكتساب منزلة الزهد، بل لا بد من الزهد في الحلال.

1- انظر: الإحياء (242/4).

2- رواه ابن الأعرابي في الزهد (24)، وتقدم أول الكتاب.

3- رواه ابن الأعرابي (29)، وحلية الأولياء (289/3).

4- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (417)، وابن الأعرابي في الزهد (30).

5- رواه ابن الأعرابي في الزهد (39)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10781).

6- رواه ابن الأعرابي في الزهد (40).

وقد سُئل يوسف بن أسباط نفسُه – الذي رُوي عنه ما ذكرناه – أنه سُئل عن الزهد ما هو؟ فقال: أن تزهد فيما أحلَّ الله، فأما ما حرَّم الله، فإن ارتكبته عذَّبك الله[1]. يعني: أن تركه فرض.

وبعضهم يعبِّر عن ذلك بقوله: ترك (فضول الدنيا) ويعنون به: ما لا ضرورة للإنسان، ولا حاجة شديدة إليه، أو ما يمكن الاستغناء عنه، فالشغل به ينافي الزهد عند هؤلاء.

روى ابن الأعرابي، حدثنا الدقيقي، حدثنا الحارث بن منصور، حدثنا سفيان الثوري قال: فضول الدنيا رجس عند الله يوم القيامة. قال أبو منصور: فأخبرني سعدان بن خميس: أن رجلا سأله، فقال: يا أبا عبد الله، ما فضول الدنيا؟ قال: أن يكون عندك رداء وأخوك عارٍ، ويكون عندك فضل حذاء وأخوك حافٍ[2].

ففسَّر الفضول بما زاد عن حاجة الإنسان وفي المجتمع مَن هو في حاجة إليه، ليكتسي من عُري، أو ينتعل من حفاء.

ولعل ذلك يدخل في دائرة الحديث الذي يقول: "مَن كان معه فضل ظهر فليعد به على مَن لا ظهر له، ومَن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له"، وقال راوي الحديث: فما زال يعدِّد من أصناف المال، حتى ظننا أن لا حقَّ لأحد منا في فضل[3].

يؤكِّد ذلك: أن مَن قلَّ ماله، قلَّ حسابه، ومَن كثر ماله طال حسابه يوم القيامة.

ولهذا كان زهَّاد الصحابة يحبُّون التقلُّل في الدنيا، ليخفَّ عنهم الحساب يوم القيامة. قالت أم الدرداء لزوجها أبي الدرداء: ألا تبتغي لأضيافك ما يبتغيه الرجال لأضيافهم؟ فقال: إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أمامكم عقبة كؤدًا لا يجوزها المثقلون". فأحبُّ أن أتخفَّف لتلك العقبة[4]. يعني هذه العقبة لا يجوزها ويتخطَّاها بيسر وسهولة: إلا مَن كان حمله خفيفا من الدنيا، أو كان لا حمل له منها أصلا، أما مَن ثقُل حمله من متاعها، فما أشق وما أصعب اجتيازها عليه!

1- رواه ابن الأعرابي في الزهد (42).

2- رواه ابن الأعرابي في الزهد (113).

3- رواه مسلم في اللقطة (1728)، وأبو داود في الزكاة (1663)، وابن حبان في اللباس (5419)، عن أبي سعيد الخدري.

4- رواه الحاكم في الأهوال (574/4)، وصححه ووافقه الذهبي، وابن الأعرابي في الزهد (110)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10409)، عن أبي الدرداء، وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب للطبراني في الكبير، وصحح إسناده (60/4).

وروى أحمد وغيره بسنده إلى سعد بن أبي وقاص: أنه دخل على سلمان، فقال: أبشر أبا عبد الله! مات رسول الله وهو عنك راضٍ! قال: كيف يا سعد، وقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "وليكن بُلْغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب، حتى يلقاني"[1]. وكأنه يقول: ومَن منا اكتفى بزاد الراكب يا سعد!

الإعراض عن حب الدرهم والدينار:

ومن علامات الزهد: الإعراض عن حبِّ الدينار والدرهم، اللذين استعبدا الكثيرين، حتى أصبحا صنمين يعبدهما مَن يعبدهما، وإن لم يسمِّ ذلك عبادة، ولكن حبَّهما وتعظيمهما أشبه بعبادة العابدين لآلهتهم. وفي الحديث الصحيح: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش"[2]. فجعله الرسول الكريم عبدا.

علَّق الإمام الغزالي على دعاء خليل الله إبراهيم الذي ذكره القرآن: **{وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}** [إبراهيم:35]، فقال: (عَنَى بها هذين الحجرين: الذهب والفضة؛ إذ مرتبة النبوة أجلُّ من أن يُخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة؛ إذ قد كفي ذلك قبل النبوة مع الصغر. وإنما معنى عبادتهما: حبُّهما والاغترار بهما والركون إليهما. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدينار ..." الحديث. فبيَّن أن محبَّهما عابدهما، ومَن عبد حجرا فهو عابد صنم، بل كلُّ من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم، أي: قطعه ذلك عن الله تعالى، وعن أداء حقِّه، فهو كعابد صنم!)[3].

وقال سميط بن عجلان: أن الدراهم والدنانير أَزِمَّة المنافقين (جمع زمام) يقادون بها إلى النار[4]!

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رُقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك بسُمِّه! قيل: وما رُقيته؟ قال: أخذه من حلِّه، ووضعه في حقِّه[5].

وقال العلاء بن زياد: تمثَّلت لي الدنيا، وعليها من كلِّ زينة. فقلتُ: أعوذ بالله من شرِّك! فقالت: إن سرَّك أن يعيذك الله منِّي، فأبغض الدرهم والدينار.

1- رواه ابن الأعرابي في الزهد (87)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10396)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (453/21).

2- رواه البخاري في الجهاد والسير (2887)، وابن ماجه في الزهد (4136)، عن أبي هريرة.

3- انظر: إحياء علوم الدين (235/3)، طبعة دار المعرفة، بيروت.

4- رواه أبو نعيم في الحلية (128/3).

5- رواه أبو نعيم في الحلية (60/10).

قال الغزالي معلِّقا: وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلُّها، إذ يُتوصَّل بهما إلى جميع أصنافها، فمَن صبر عنهما صبر عن الدنيا. وفي ذلك قال الشاعر:

إني وجدتُ فلا تظنُّوا غيره أن التورُّع عند هذا الدرهم!

فإذا قدرتَ عليه ثم تركتَه فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم!

وقال آخر:

لا يغرنك من المرءِ قميص رقَّعه

أو إزار فوق عظم الساق من رفعه

أو جبين لاح منه آثر قد خلعه

أره الدرهم تعرفْ حرصه أو ورعه[1]

تحرّي رضا الله في كلّ ما يعمل:

سُئل بعض العلماء عن الزهد فقال: من أدنى الزهد أن يقعد أحدكم في منزله، فإن كان قعوده لله رضي، وإلا خرج، ويخرج فإن كان خروجه لله رضي، وإلا رجع، فإذا كان رجوعه لله، وإلا ساح، ويخرج درهمه، فإن أخرجه لله رضي، وإلا حبسه، ويحبسه، فما كان حبسه لله رضي، وإلا رمى به، ويتكلَّم، فإن كان كلامه لله رضي، وإلا سكت، فإن كان سكوته لله رضي، وإلا تكلَّم.

فقيل: هذا صعب.

فقال: هذا الطريق إلى الله فلا تتعبوا[2] انتهى.

يؤيِّد هذا حديث: "ألا إن سلعة الله غالية، إلا إن سلعة الله هي الجنة"[3].

وقال عالم آخر: الزهد ترك ما لا يعني من الأشياء كلِّها، واستعمال ما يعني. والذي أمره (أي شأنه) ما أمر الله أو نهى عنه، أو رغب أو زهَّد فيه، أو ذمَّه فإن لم يكن لخدمة، فكلَّما كان من غير ذلك، فهو ممَّا لا يعني، والزهد تركه.

فإذا عرض له أمران ما كانا، عمل أولاهما في وقته من كلام أو سكوت، أو حركة أو سكون، في الطاعة والمعصية. وجملة ذلك: ترك ما لا يعني، وإن كان مباحًا قبل الحاجة إليه[4].

1- انظر الإحياء (234/3).

2- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (418)، وابن الأعرابي في الزهد (33).

3- رواه الترمذي في صفة القيامة (2450)، وقال: حسن غريب، والحاكم في الرقائق (7851)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10576)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (11167)، عن أبي هريرة.

4- انظر: الزهد لابن الأعرابي صـ30.

ولعل مما يؤيِّد ذلك حديث: "من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[1]، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

وقال ابن أبي الحواري: قلتُ لأبي صفوان الرُّعيني: ما الدنيا التي ذمَّها الله في القرآن، التي ينبغي للعاقل أن يتجنَّبها؟ قال: كلُّ ما عملتَه في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكلُّ ما احتسبتَه تريد به الآخرة فليس منها. قال: فحدَّثتُ به مروان، فقال: الفقه على ما قال أبو صفوان[2]. فجعل المدار على القصد والإرادة.

الزهد استصغار الدنيا:

ومما قالوه في الزهد، ما رواه ابن الأعرابي، عن أبي سليمان قال: سألتُ أبا صفوان – يعني الرُّعَيني – أي شيء أول حدود الزهد؟ قال له أبو صفوان: استصغار الدنيا. فقال له أبو سليمان: إذا كان هذا عندك أول الحدود، وهو عندي آخر حدود الزهد: أن تستصغرها. وقام عنه وتركه[3].

جعل الهموم المتشعِّبة همًّا واحد:

ومن رجال السلوك: مَن ارتقى بالزهد إلى منزلة رفيعة، وهي أن يجمع همومه المتفرِّقة للنفس – مادية ومعنوية – إلى همٍّ واحد، هو إرضاء الله سبحانه. وبهذا يستريح القلب، ويطمئن إلى غايته، ولا تتشعَّب به الهموم بين يمين وشمال، ومشرق ومغرب.

قال الإمام المُحاسبي في (رسالة المسترشدين): واعلم أنَّ أرْوَحَ الناس أبدانا – أي: أكثرهم راحة لأبدانهم – هم: أهل الزهد في الدنيا، وأتعب الناس قلوبًا وأكثرهم شغلًا: هم أهل الاهتمام بالدنيا[4].

روَوا عن عامر بن عبد قيس قال: لو استطعت لأجعلن الهمَّ همًّا واحدًا! فقال الحسن: ففعل وربِّ الكعبة[5].

1- رواه الترمذي في الزهد (2317)، وقال: غريب، وابن ماجه في الفتن (3976)، وحسنه النووي في الأربعين، عن أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (10854).

2- رواه ابن الأعرابي في الزهد (35).

3- رواه ابن الأعرابي في الزهد (45)، وابن عساكر في تاريخه (304/66).

4- رسالة المسترشدين للمحاسبي ص161، ونقل العلامة عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته النفيسة: عن (تاريخ الاسلام) للذهبي (159/5): قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، قال: أوصيك أن تكون مَلِكا في الدنيا والآخرة، قال: كيف هذا؟ قال: ازهد في الدنيا.

5- رواه ابن الأعرابي (50)، والبيهقي في الزهد الكبير ص63.

وروى عنه يونس بن عبيد، أنه جزَّأ الدنيا أربعة أجزاء: المال والنساء والنوم والطعام. فقال: أما المال والنساء فلا حاجة لي بهما. وإنما الآخران. (أي النوم والطعام) وايم الله لأحقرن بهما. وقال: لأجعلن الهمَّ همًّا واحدًا[1].

قال ابن الأعرابي: وهذا على ما قيل في الزهد: أن يكون الهمُّ همًّا واحدًا، لله وحده، ليس ذكر دنيا ولا آخرة. وهو غاية الزهد. وهو خروج قدر الدنيا (أي من قلبه) وقَلْيها (أي بغضها) أن تزهد فيها. وخروج قدر غيرها ... إذا كان دون الله. هذا لمَن كان الله همّه وحده خالصًا[2].

وفي هذا الكلام ما هو مُسلَّم. ومنه ما يحتاج إلى تمحيص.

فأما المسلم، فهو أن يكون همّه لله وحده، وهذا من أمور القلب، فلا يعلِّق قلبه إلا بالله تعالى ورضاه ومحبَّته وطاعته، كما قال تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الأنعام:162].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "من كانت الدنيا، همّه فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره. وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة "[3].

فمن جعل رضوان الله تعالى غاية غاياته، فقد استمسك بالعروة الوثقى، واستراح من تعدُّد الغايات وتنازعها: أيشرِّق أم يغرّب؟ وقد ذكر لنا القرآن مثلًا حيًّا حين قال: **{ضَرَبَ اللَّهُ مثلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مثلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [الزمر:29].

فمثَّل المشرك المقسَّم قلبه، بعبد له عدَّة ملاَّك وسادة، فهم شركاء في ملكيته، ولكنهم ليسوا متَّفقين في شأنه، بل هم مختلفون متشاكسون، فهذا يأمره، وهذا ينهاه، وهذا يسيِّره إلى اليمين، وآخر يشدُّه إلى الشمال، فهمُّه مشاع، وقلبه أوزاع. أما العبد الآخر فهو ملك خالص لسيد واحد، عرَف مطالبه، وما يرضيه وما يسخطه، فهو يعرف سيده ولا ينازعه أحد فيه. فما أعظم الفرق بين الرجلين!

مناقشة قول عامر بن عبد قيس بعدم الحاجة إلى المال والنساء:

1- رواه ابن الأعرابي في الزهد (48)، وابن عساكر في تاريخه (19/26).

2- الزهد لابن الأعرابي صـ37، عقب الأثر رقم (50)، والبيهقي في الزهد صـ63.

3- رواه أحمد (21590)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن ماجه في الزهد (4105)، وصححه الألباني في الصحيحة (590)، عن زيد بن ثابت.

وأما ما يحتاج إلى نقاش وتمحيص، فقول عامر: إنه لا حاجة له إلى المال والنساء، وأي بأس في هذا، فهذا موجب الفطرة البشرية. فنِعم المال الصالح للمرءِ الصالح[1]، وقد منَّ الله على رسوله فقال: **{وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}** [الضحى:8]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه: "حبِّب إليَّ من دنياكم النساء والطيب"[2]، وقال: "الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا؛ المرأة الصالحة"[3].

ترك كل ما يُشغل عن الله:

وعبَّر بعضهم عن هذا المعنى فقال: ترك كلِّ ما يشغل عن الله. روى ابن الأعرابي، عن أبي عبد الله الرازي، قال: قال لي بعض الحكماء: الزهد ترك ما يشغلك عن الله[4]. ونقل ابن الأعرابي عن مضاء (ابن عيسى الشامي) قوله: إنما أرادوا بالزهد أن تفرغ قلوبهم للآخرة[5].

وعلَّق على ذلك ابن الأعرابي في كتابه (الزهد) فقال: وهذا يدلُّ على أن الزهد: في كلِّ ما يشغل عن الله عزَّ وجلَّ[6].

وقال أبو سليمان الداراني: سمعنا في الزهد كلامًا كثيرًا، والزهد عندنا: ترك كلِّ شيء يشغلك عن الله عزَّ وجلَّ[7]. وقد فصَّل مرَّة، فقال: مَن تزوَّج أو سافر في طلب المعيشة، أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا[8]!

قال الغزالي: فجعل ذلك ضدًّا للزهد. وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى: **{إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [الشعراء:89]، قال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى. وقال: إنما زهدوا في الدنيا، لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة[9].

مناقشة قول الداراني في اعتباره التزوج والسفر وكتابة الحديث ركونا إلى الدنيا:

وعندي توقف في اعتباره من تزوج أو سافر في طلب المعيشة، أو كتابة الحديث، قد ركن إلى الدنيا! بل قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى"[1]، فمَن تزوَّج

1- سبق تخريجه.

2- رواه أحمد (12293)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والنسائي في عشرة النساء (8836)، وصحح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (501/1)، والبيهقي في الكبرى كتاب النكاح (13232)، عن أنس بن مالك، وحسنه ابن حجر في التلخيص (116/3).

3- رواه مسلم في الرضاع (1467)، وأحمد (6567)، والنسائي (3232)، وابن ماجه (1855)، كلاهما في النكاح، عن عبد الله بن عمرو.

4- رواه ابن الأعرابي في الزهد (37).

5- رواه ابن الأعرابي (16)، وابن عساكر في تاريخه (284/58).

6- عقب الأثر رقم (16).

7- رواه ابن الأعرابي في الزهد (38)، وانظر أبو طالب المكي في قوت القلوب (419/1).

8- انظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (420/1).

9- انظر: الإحياء، ربع المنجيات (229/4)، دار المعرفة، بيروت.

ليغضَّ بصره، ويحصِّن فرجه، ويكمِّل دينه، ويؤسِّس أسرة مسلمة؛ فليس هذا من الركون إلى الدنيا، وقد منَّ الله بالزواج وجعله آية من آياته، يقول تعالى: {**وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**} الروم:21]، وفي سورة النحل التي هي سورة النعم، اعتبر الزواج من نعم الله، فقال: {**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ**} [النحل:72]، وخاطب رسوله بقوله: {**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**} [الرعد:38]، ومَن سافر في طلب المعيشة، ليعفَّ نفسه، ويغني أهله، ويعين أهل الحاجة من حوله، ويسهم في تنمية أمته، فهو محسن ومأجور بنيته، قال تعالى: {**وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**} [المزمل:20]، فقرن السفر في طلب المعيشة بالجهاد في سبيل الله. ومن كتب الحديث ليتفقَّه في الدين، ثم يفقِّه غيره، فيتعلم ويعمل ويعلم، فهو يعمل عملًا صالحًا، وليس من الركون إلى الدنيا.

الزهد عند ابن الأعرابي:

وممَّن تكلم في (الزهد) فأحسن: الإمام المحدث أبو سعيد ابن الأعرابي في كتابه (الزهد وصفة الزاهدين) وقد نقل فيه أمثلة وافرة في تعريف الزهد عن أهل الاختصاص من الرجال الربانيين والزاهدين، ثم شرح هو الزهد كما يراه، فقال عن الزهد:

هو ترك المحظور كله، وترك الحلال والمباح قبل الحاجة والضرورة إليه.

قالوا: فإن أكل قبل أن يجوع، أو شرب قبل أن يعطش، أو رقد قبل أن ينعس، أو جامع قبل حلول الحاجة إليه فقد مال إلى التلذذ، والتلذذ من الدنيا، ثم الزهد في الراحة لتكون كل أوقاته مستغرقة الشغل بالعبادة والذكر، فإن لم يكن كذلك فقد بقي عليه بقية من الزهد، وكذلك في معاشرة الناس، والحديث والكلام، وكل ما فعل من ذلك قبل وجوبه عليه، أو حاجته إليه، فهو ميل إلى الدنيا، وهو من الفضول، والدنيا بأسرها من الفضول، إلا ما استعين به منها على الآخرة.

قالوا: كيف ذلك لو تنفل بشيء من أعمال البر وغيرها، إذ لا بد منها في الوقت، كرجل عليه دين يمكنه قضاؤه فيؤخره إلى وقت يأتي، أو صلاة قد وجب فرضها بدخول الوقت، أو حج قد وجب للاستطاعة.

واختلفوا فيه إذا تعالج من علة، فقال قائلون: إنما ذلك رغبة في الصحة والحياة الدنيا.

1- متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (1)، ومسلم في الإمارة (1907)، كما رواه أحمد (168)، وأبو داود في الطلاق (2201)، والترمذي في الجهاد (1647)، والنسائي في الطهارة (75)، وابن ماجه في الزهد (4227)، عن عمر.

وقال آخرون: ذلك على قدر نيته، إن نوى به حب البقاء والصحة وزوال الألم، فهو من حب الدنيا، وإن كان فعل ذلك ليتقوى على أمر الله وطاعته فذلك على قدر نيته.

وقالوا: لو أن رجلا طلب الدنيا ليأكل ويشرب ويلبس ويتمتع فيها، وآخر تركها لراحة قلبه وجسمه، وتلذذ بالفراغ والراحة كانا جميعا غير زاهدين، حتى ينوي التارك لها بنية غير هذه، إما ليفرغ منها لأنها تشغله عن الآخرة، وإما لأن الله عز وجل ذمها وزهد فيها، فذلك على قدر نيته أيضا.

وقالوا: لو تركها وجانبها ولها في قلبه قدر وموضع، كان بذلك فاضلا معاملا مجاهدا، ولم يكن بالترك زاهدا، وإنما الزهد عندهم خروج قدرها، إذ هي لا شيء. قالوا: فذلك الزهد.

ومن الزهد أيضا: الزهد في الرئاسة والمحاسنة والمحادثة والمعاشرة.

أول الزهد:

وأول الزهد: الزهد في الحرام، ثم الزهد في المباح، وأعلى مراتب الزهد: أن تزهد في الفضول، والفضول كل ما لك عنه غنى. فكأنك تزهد في كل شيء، إلا فيما أمرك الله أو فيما ندبك إليه مما يقربك إليه أو ما لا بد منه. وكل ما كان سوى ذلك، فهو من الفضول، وهو ترك ما لا يعني.

وقال قوم: التارك هذه الأشياء، وإن كان يحبها ويريدها، إذا تركها مجاهدا لنفسه، صابرا عنها، إنه زاهد.

وقال آخرون: لا يسمَّى زاهدا حتى يكون مع تركه لها غير مريد لها، وذلك خروج قدرها من القلب.

واختلفوا إذا خرج قدرها من القلب ولم تحبها النفس، فتناول منها شيئًا على جهة المباح.

فقال قوم: قد تم زهده بخروج قدرها من قلبه، وإن تناول منها.

وقال آخرون: إذا خرج قدرها، فتناول منها شيئًا فهو ناقص، إلا أن يكون المتناول منها يعين على طاعة أو ما لا بد منه، مما لو تركه لم يأمن نفسه الخروج إلى غيره، مثل من يكف به طبعه وبشريته من الغذاء والنوم واللباس والنساء إذ كانت البشرية مطبوعة على ذلك وإنما المذموم أن يتعاطى الإنسان الزيادة على ما يحتاج إليه من ذلك بعد تسكين البشرية متلذذًا متمتعًا وإن كان مباحًا.

وقال آخرون: لا يكون خارجًا من الزهد من يتناول مباحًا، كما لا يكون زاهدًا من تناول محظورًا.

وقال آخرون: كل ما يتناوله أو يدخل فيه لا بد من أن يكون محرمًا منهيًّا عنه أو محللًا مأمورًا به أو مباحًا مسكوتًا عنه.

فأما الحرام فلا معنى للكلام فيه، وأما الحلال والمباح فلا يدخل فيه إلا بنية ولا تخلو النية من أن تكون محمودة يراد بها الطاعة، أو مذمومة تؤول إلى المعصية، أو مسكوتا عنها.

فمن دخل الأشياء بلا نية لم يطلق عليه اسم حمد ولا ذم، وما دخل فيها بنية رُدَّ إلى نيته. وقد قال قوم: إذا دخل بلا نية فهو ناقص، لأنه عبد مأمور منهي، فكل ما دخل فيه مما لا يوافق أمرا ولا نهيا فهو فضول لا يعني، وتركه أفضل. وإن كان تركه أفضل فتناوله أنقص[1].

<u>الزهد عند الإمام أحمد:</u>

و قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.

قال ابن القيم معلقًا: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله، وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام، وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى. وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء "أحدها: الزهد"

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد، كالزهد لعبد الله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السري، ولغيرهم، ومتعلقه ستة أشياء: لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي: المال والصور والرياسة والناس والنفس وكل ما دون الله

وليس المراد رفضها من المِلك، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما. وكان نبّينا من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة

1- انظر: الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي صـ38-41، طبعة دار الصحابة للتراث.

محبة للنساء، ونكاحا لهن، وأغناهم، وكان عبدالله بن المبارك من أئمة الزهاد مع مال كثير، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء[1]. ومعنى (تمندل): أي جعلونا كالمناديل في ايديهم.

هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة؟

وهنا سؤال طرحه أهل السلوك، وهو: هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة أو لا؟ أي: أزمنتهم في القرن الرابع أو الخامس الهجري وما بعدها. ومن باب أَوْلى يكون السؤال واردا في زمننا، ولا سيما إذا عرفنا سببه.

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغني أنَّ رجلا بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم، ما قلت له: زاهد؛ لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض. والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا. وأما الحرام فإن ارتكبته عذَّبك الله عز وجل[2].

وقال أبو حفص: الزهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا اليوم، فلا زهد إذن[3].

تحقيق ابن القيم في وجود الحلال في الدنيا:

قال ابن القيم: وخالفه الناس في هذا، وقالوا: بل الحلال موجود فيها، وفيها الحرام كثير، معناه: أن الأرض لا تخلو من الحلال.

قالوا: وعلى تقدير أن لا يكون فيها الحلال، فهذا أدعى إلى الزهد فيها، ويتناول ما يتناوله منها، كتناوله الميتة والدم ولحم الخنزير.

قال ابن القيم: ثم اختلف هؤلاء – أي الذين قالوا بوجود الحلال في الدنيا – فيما يتعلق بالزهد. فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال، لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام. وأما الحلال فنعمة من الله تعالى على عبده. والله يحب أن يرى نعمته على عبده، فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقا إلى جنته: أفضل من الزهد فيها، والتخلي عنها ومجانبة أسبابها.

1- مدارج السالكين (13،14/2).

2- رواه أبو نعيم في الحلية (238/8).

3- الرسالة القشيرية صـ (95).

قال ابن القيم: (والتحقيق: أنها إن لم تشغله عن الله، فالزهد فيها أفضل، وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكرًا لله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها، والله أعلم)[1].

وهذا التحقيق يخالف ما جاء عن الحسن البصري أن أحدهم سأله: يا أبا سعيد، رجلان: طلب أحدهما الدنيا بحلالها (أي فأدركها) فوصل بها رَحِمَه، وقدم فيها لنفسه... ورجل رفض الدنيا؟ قال: أحبهما إلى الرجل الذي رفض الدنيا! قال: يا أبا سعيد، هذا طلبها بحلالها، فأصابها، فوصل بها رحمه، وقدم فيها لنفسه! قال: أحبهما إليَّ الذي جانبها[2].

ويبدو أن الإمام الحسن هنا يرى رفضها أحوط وأسلم. مع أنهم يرون أنه كان له مال استغنى به عن أمراء زمنه، ولهذا لما سأل الحجاج عن سر قوته وصلابته في الحق، قيل له: احتاج الناس إلى دينه، واستغنى عن دنياهم! وقد رُويت عنه كلمات تخالف ما هنا.

ومن رجع إلى كتاب الله، وصحيح سنة رسوله صلى الله عليه وسلم: يتبيَّن له أن تحقيق ابن القيم هو الصواب.

ذم قارون لعدم قيامه بحق الله في المال:

فالقرآن لم يذم قارون على غناه وامتلاكه الدنيا وكنوزها، بل ذمه لأنه لم يقم بحق الله فيها، ولم ينتصح بنصيحة قومه التي ذكرها القرآن"إذ قال له قومه: {**إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**} [القصص:77،78]

فنصحه قومه بخمس نصائح، ولكنه لم يستجب لها، وركبه الغرور الذي يركب أكثر الرأسماليين وأرباب الثروات، حين قال: {**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**} [القصص:78]، فعمي عن الحقيقة الكبيرة: أن المال إنما هو مال الله، وإنما هو مستخلف فيه. فكانت عاقبته أن خسف الله به وبداره وكنوزه الأرض.

ثناء الله تعالى على يوسف وداوود وسليمان:

1- مدارج السالكين (14،15/2)، ببعض تصرف.

2- رواه ابن الأعرابي في الزهد (90).

على حين آتى الله يوسف وداود وسليمان من الملك ما آتاهم، ووسَّع عليهم نعمه، وكانوا من الشاكرين، وأثنى الله عليهم، فقال عن سليمان: **{نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}** [ص:30]، وقال عن كلٍّ من داود وسليمان: **{وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}** [ص:25 و40]. فالمدار يقوم على شكر النعمة أو كفرانها، فمن شكرها بارك الله له، زاده منها، ومن كفرها سخط الله عليه وسلبها منه كما قال تعالى: **{لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}** [ابراهيم:7].

قوم سبا في حال الشكر وحال الكفران:

وحدثنا القرآن عن قوم (سبأ) في حال الشكر وفي حال الكفران. فقال: **{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}** [سبأ:15]، فهذا في حالة الشكران.

وفي الحالة الأخرى: **{فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}** [سبأ:16].

أحاديث لها دلالة:

ومن الأحاديث التي لها دلالة هنا: ما رواه الشيخان: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها"[1]، ومثله ما رواه الترمذي عن أبي كبشة الأنماري: "إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله عزَّ وجلَّ مالًا وعلمًا، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصل فيه رَحِمَه، ويعلم لله عزَّ وجلَّ فيه حقَّه، قال: فهذا بأفضل المنازل. قال: وعبد رزقه الله عزَّ وجلَّ علمًا ولم يرزقه مالًا. قال: فهو يقول لو كان لي مال عملت بعمل فلان. قال: فأجرهما سواء. قال: وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه عزَّ وجلَّ، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقَّه، فهذا بأخبث المنازل. قال: وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو كان لي مال لعملت بعمل فلان. قال: هي نيته، فوزرهما سواء"[2].

وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن كلَّ امرئ سيُسأل يوم القيامة عن أربعة أسئلة رئيسة، منها سؤال عن ماله، وهو سؤال ذو شقَّين: من أين اكتسبه، وفيم أنفقه[3]؟

فمَن اكتسب ماله من حلال لا شبهة فيه، وأنفقه في حقٍّ لا باطل فيه، فقد نجا.

1- متفق عليه: رواه البخاري في العلم (73)، ومسلم في صلاة المسافرين (816)، كما رواه أحمد (3651)، والنسائي في الكبرى كتاب العلم (5809)، وابن ماجه في الزهد (4208)، عن عبد الله بن مسعود.

2- رواه أحمد (18031)، وقال مخرجوه: حديث حسن، والترمذي في الزهد (2325)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (5335).

3- رواه الترمذي في صفة القيامة (2417)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (13256).

وهذا ما قاله كثير من شيوخ الطريق، كما نقلناه عن بعضهم أنه فسَّر الزهد بأخذ الدنيا من حِلِّها، ووضعها في حقِّها.

وقد قال الثوري: كان من دعائهم: اللهم زهِّدنا في الدنيا، ووسِّع علينا منها[1].

1- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (172).

ضوء على حقيقة الزهد

بعد نقل هذه الأقوال عن رجال السلوك من الزاهدين والعارفين الذين يتحدَّثون عن ممارسة وتجرِبة، نستطيع أن نلقي هنا بعض الضوء على لُبِّ الزهد وحقيقته وجوهره، فنقول: حقيقة الزهد في الدنيا، يجب أن تؤخذ من القرآن العظيم، ثم من سنَّة الرسول الكريم: ففيهما الجواب الكافي، والدواء الشافي، كما قال تعالى: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [المائدة:15،16]، **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}** [يونس:57].

وقد رأينا القرآن يقرِّر بوضوحٍ، حِلَّ الأكل من طيِّبات ما رزق الله، وينهى عن تحريم ما أحلَّ الله، ولا يمنع من الكسب وامتلاك المال، وتزوُّج النساء، فما المراد بالزهد إذن؟

نستطيع أن نجمل هنا حقيقة الزهد في أمرين أساسيين:

الأول: إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا:

الزهد المطلوب في القرآن يتعلَّق بالإرادة، أو بالقلب، فالناس في نظر القرآن صنفان متقابلان: أحدهما يريد الدنيا وهو المذموم، والثاني: يريد الآخرة وهو المحمود، وهو أيضًا الذي يسمَّى (الزاهد).

وقد يُسمِّي القرآن الدنيا: العاجلة، كما قال تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ}** [الإسراء:18]، وقوله: **{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآَخِرَةَ}** [القيامة:19،20].

فليس المحظور أن تكون الدنيا في يدك، ولكن المحظور أن تكون في قلبك.

ولهذا نجد القرآن يركِّز على قضية (إرادة الدنيا)، و(إرادة الآخرة) فتراه في سورة الإسراء يقسم الناس إلى صنفين متباينين بجلاء: أهل الدنيا، وأهل الآخرة. فيقول: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا}** [الإسراء:18]، العاجلة، أي الدنيا.

فالمدار في جزاء الصنفين الاثنين على الإرادة: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ}**، **{وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ}** [الإسراء:19].

وهذا المعنى تكرَّر في أكثر من سورة، يقول تعالى في سورة هود: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الإسراء:15، 16]، فهذا الوعيد الهائل كلُّه مؤسَّس على سبب واحد، عبَّرت عنه الآية بقولها: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا}** [هود:15].

وفي سورة الشورى يقابل القرآن بين صنفين – كما في سوة الإسراء – فيقول: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}** [الشورى:20].

وفي سورة آل عمران جاء قوله تعالى: **{وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}** [آل عمران:145].

وفي الحديث عن غزوة أُحد خاطب القرآن الصحابة بقوله: **{مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ}** [آل عمران:152].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كنتُ أحسب أن فينا مَن يريد الدنيا، حتى نزلت فينا هذه الآية[1].

ولكن إرادة الدنيا هنا إرادة جزئية مؤقَّتة، أي: حين اشتهوا الغنائم، فتركوا مواقعهم في الجبل، ونزلوا ليأخذوا حظَّهم منها، ولم يكن هذا خطا أو اتجاها أصيلا في حياتهم، ولهذا قال بعدها: **{ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}** [آل عمران:152].

قد تريد الدنيا، وتتعلَّق بها، وتصبح أسير أطماعها وزخارفها، وأنت لا تملك شيئًا. وقد تملك الدنيا، وتحوزُ دراهمها ودنانيرها، وحرثها وأنعامها، ولكنها لا تملك قلبك، ولا توجِّه إرادتك، وبعبارة أخرى: ليست أكبر همِّك، ولا مبلغ علمك. ولذلك رُوي في بعض الأدعية المأثورة: "و لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا"[2].

وعبارة: "مبلغ علمنا"، مقتبسة من القرآن، حيث يقول الله تعالى: **{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** [النجم:29].

1– رواه أحمد (4414)، وقال مخرجوه: حسن لغيره، وابن أبي شيبة في المغازي (37938)، والطبراني في الأوسط (1399)، وقال الهيثمي في المجمع (51/7): رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال الطبراني ثقات.

2– رواه الترمذي في الدعوات (3502)، وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (10234)، عن ابن عمر، وحسنه الألباني في الكلم الطيب (226).

وهذا التعبير القرآني في هذه الآية: **{لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}**، مهمٌّ في تحديد المراد من إرادة الحياة الدنيا في الآيات الأخرى، وهو حصر إرادته فيها، بحيث لا يريد غيرها، وإن أراد شيئًا غيرها فهو تابع لها، وعلى هامشها، ولذا قال: **{وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}**، بأسلوب القصر.

وأحيانا يعبِّر القرآن عن إرادة الدنيا بكلمة (الإيثار)، التي تعني التقديم والتفضيل والترجيح عند المفاضلة والموازنة، فإذا عرض له أمران، أحدهما للآخرة، والآخر للدنيا: آثر الزاهد الآخرة على الدنيا، وآثر محبُّ الدنيا دنياه. وفي هذا جاء قوله تعالى في بيان مواقف الناس في القيامة: **{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات:35،40].

فهنا عبَّر عن إرادة الحياة الدنيا بإيثارها، أي: إيثارها على الآخرة، وهذا هو الضلال والخسران، وقد قال تعالى: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [الأعلى:15، 16].

قال الفُضيل بن عِياض: لو كانت الدنيا ذهبا يفنى، والآخرة خزفا يبقى، لاخترتُ الخزف الباقي، على الذهب الفاني[1]!

فكيف والعكس هو الصحيح، بل الواقع أن الآخرة أكثر وأغلى من ذهب، والدنيا أقلُّ وأرخص من خزف؟!

وقد يعبِّر القرآن عن معنى الإيثار بلفظ الاستحباب، كقوله تعالى: **{وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}** [إبراهيم:2، 3].

وفي مقام آخر، قال تعالى في شأن قوم استحقُّوا غضب الله وعذابه العظيم: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ}** [النحل:107].

وهو نفس المعنى الذي جاء في الآية الأخرى: **{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآَخِرَةَ}** [القيامة:19، 20]، فالمراد: حبُّ الدنيا الذي يغلِّبها على الآخرة، ويقدِّمها عليها.

وهو ما عاب به القرآن أهل الجاهلية حين قال: **{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}** [الفجر:19،20]، وهو: الحبُّ الذي جعلهم يهينون اليتيم، ولا يتحاضُّون على طعام المسكين.

1- انظر المستطرف في كل فن مستطرف للأبشيهي (597/2).

ولهذا جاء التحذير من حبِّ الدنيا، كما في حديث ثوبان، في تداعي الأمم على أمة الإسلام، كما تتداعى الأَكَلَة على قصعتها، رغم كثرة عددها، ولكنها أصابها الوَهْن، فلما سئل عن الوهن قال: "حبُّ الدنيا، وكراهية الآخرة"[1].

قال جُندب بن عبد الله الصحابي رضي الله عنه: حبُّ الدنيا رأس كلِّ خطيئة. ورُوي مرفوعا[2]، وعن الحسن مرسلا[3].

وقال الحسن: مَن أحبَّ الدنيا ومَسَرَّتها، خرَج حبُّ الآخرة من قلبه[4].

وقال عون بن عبد الله: الدنيا والآخرة في القلب ككفَّتي الميزان، بقدر ما ترجح إحداهما تخفُّ الأخرى[5].

وقال وهب: إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان: إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى[6].

وبهذا يتَّضح لنا معنى (إرادة الآخرة) و(إيثارها) على الأولى، ومعنى (حبِّ الدنيا)، الذي به يرجِّح كفَّتها على الآخرة، ويرضيها ويسير في هواها، وان أسخط ضَرَّتها وجار عليها.

الآثار الخطيرة لحبِّ الدنيا وإيثارها على الاخرة:

ولحب الدنيا آثار خطيرة على الفرد وعلى المجتمع، نذكر منها أمرين:

اضطراب المعايير:

إنَّ من آثار إرادة الحياة الدنيا، والتهافت عليها: أنها تطمس نور البصيرة، وتقلب موازين الحقِ في تقييم الناس، فيصبح مقياس الرفعة والضَّعة الدينار والدرهم، ومعيار الكرامة والهوان هو الغنى والفقر.

فقيمة ربِّ الألف ألف وزد تزد وقيمة ربِّ الدرهم الفرد درهم

1- سبق تخريجه.

2- قال ابن تيمية في مجموع الفتاوي (123/18): هذا معروف عن جندب بن عبد الله البجلي، وأما عن النبي صلى الله عليه وسلم فليس له إسناد معروف.

3- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (9)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10501)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (2682)، وقال المناوي في فيض القدير (487/3): ثم قال (أعني البيهقي): ولا أصل له من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، قال الحافظ الزين العراقي: ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح، ومثل به في شرح الألفية للموضوع من كلام الحكماء، وقال: هو من كلام مالك بن دينار، كما رواه ابن أبي الدنيا، أو من كلام عيسى عليه السلام، كما رواه البيهقي في الزهد وأبو نعيم في الحلية، وعد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات، وتعقبه الحافظ ابن حجر بأن ابن المديني أثنى على مراسيل الحسن، والإسناد إليه حسن، وأورده الديلمي من حديث علي وبيَّض لسنده.

4- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (162).

5- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (292)، وأبو نعيم في الحلية (251/4).

6- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (119)، والعقيلي في الضعفاء (11/3).

أما الدين واليقين، والخلق المتين، والعلم النافع، والعمل الصالح، فما أكثر ما يغطِّي عليها غبار الفقر، ويخفيها عن عيون عُشَّاق الدنيا، ومن هنا شكا الشاعر:

فصاحة حسَّان، وخط ابن مُقْلَة وحكمة لقمان، وزهد ابن أدهم

إذا اجتمعت في المرءِ والمرءُ مفلسٌ ونُودي عليه لا يُباع بدرهم

أرأيتَ إلى قارون، وقد خرج في موكبه الفخم، وحوله الخدم والحَشَم، وعليه الفضة والذهب، ماذا كان موقف أصحاب الدنيا؟ **{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** [القصص:79].

أما أرباب البصائر النيّرة والفطر السليمة، فماذا قالوا: **{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}** [القصص:80].

مدح رجل عبد الملك بن مروان فقال:

يأتلق التاج فوق مِفرَقه على جبين كأنه الذهب

فقال: وأيُّ فضل في هذا؟ هلا قلت ما قال الآخر:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت بنوره الظلماء

حكمه حكم قوَّة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

وهجا الحُطَيئة الزبرقان بن بدر، فلم يزد على أن قال له:

دع المكارم لا ترحل لبُغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي!

فلما سمعه غضب لذلك غضبًا شديدًا، وشكاه إلى عمر، فحبسه من أجل ذلك، ولو سمع شعر عبد الملك أمير عصري أو شعر الحُطَيئة متمدِّن عصري، لسرَّ لذلك، فضلًا عن أن يثور.

وقال شاعر آخر:

لَحَى الله صعلوكا مُناه وهمُّه من العيش أن يلقى لبوسًا ومطعمًا!

حُب الدنيا وأثره في ضعف الأمة:

على أن حبَّ الدنيا ليس خطرًا على سالك طريق الآخرة، وصرفه عن الله، وعن طاعته وتقواه، بامتثال ما أمر، واجتناب ما نهي، فحسب. وهو ليس بالأمر الهيّن.

ولكن حبَّ الدنيا إذا شاع بين الناس، وأصبح ظاهرةً في المجتمع، له آثاره الخطيرة في إضعاف مقاومة الأمة، وإدخال الوَهْن على نفوس أبنائها، فتتراخي عزائمهم، وتتهاوى إراداتهم أمام

مغريات الحياة وشهواتها، من الجنس والكأس لدى بعض الناس، ومن المنصب والشهرة لدى آخرين، ومن المال والثروة لدى صنف آخر، وهكذا يسيطر عليهم حبُّ الدنيا وباعث الدنيا، وينهزم أمام حبِّ الدنيا حبُّ الله تعالى، وحبُّ الآخرة، ويضعف باعث الدين في مواجهة باعث الهوى، وهذه مقدِّمات لضعف حزب الله أمام حزب الشيطان.

وهذا هو الذي حذَّر منه النبي صلى الله عليه وسلم، أمته في آخر الزمان، من تآمر الأمم عليها، وضعفها عن التصدِّي لهم، على رغم كثرة عددها، ولكنهم كمٌّ بلا كيف، أو كثرة كغثاء السيل.

وهذا هو الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو ينبئ بغيب يصف واقع أمتنا كأنما يراه رأي عين. يقول: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كلِّ أفق، كما تتداعى الأَكَلَة على قصعتها". قالوا: أمن قلَّة نحن يومئذ، يا رسول؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهْن". قالوا: وما الوَهْن، يارسول الله؟ قال: "حبُّ الدنيا وكراهية الموت"[1].

هذا هو حال أمتنا في هذا الزمان الكئيب: كثرة بلغت أكثر من المليار ونصف المليار من البشر[2]، ولكنها كثرة لا يهابها عدو، ولا ينتصر بها صديق، كما رأينا في مأساة إخوتنا في فلسطين، لأن الأمة الآن في (المرحلة الغثائية) أمة واهنة خائرة. ووهنها من داخلها لا من خارجها. كما بيَّن الحديث الشريف. وَهْن دبَّ في قلوبها قبل أن يدبَّ إليها أعداؤها.

ولقد سال الصحابة عن الوَهْن الذي يقذف في القلوب ما هو؟ إنهم لا يسالون عن معناه اللغوي, فهو معروف معلوم، إنما يسالون عن سرِّه وعلَّته، وقد جاء الجواب موضِّحا ومعلِّما: "حبُّ الدنيا وكراهية الموت".

كان الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته يُنصرون بالرُّعب يُلقى في قلوب أعدائهم من مسيرة شهر، لأنهم باعوا الدنيا بالآخرة، واشتروا الجنة بأنفسهم وأموالهم، وكان خالد يقول لقادة

1- سبق تخريجه. رواه أحمد (22397)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه وإسناد أحمد جيد (563/7)، وأبو داود في الملاحم (4297)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (958)، عن ثوبان

2- أحدث إحصاء للأمة المسلمة هو مليار وخمسمئة وسبعون مليونا. انظر: جريدة العرب القطرية العدد (7792)، الاثنين 12 أكتوبر 2009م الموافق 23 شوال 1430هـ، وقد نشر دراسة أقامها مركز أبحاث (بيو) الأميركي.

الفرس والروم حين يدعوهم إلى الإسلام أو السلام، ثم يقول: وإلا غزونكم بقوم يحبُّون الموت كما تحبُّون الحياة[1].

فإذا أردنا أن تنتصر أمتنا، فلنغير ما بأنفسها، ولنحرِّر قلوبها من الوَهْن، أي: من حُبِّ الدنيا وكراهية الموت، وبعبارة أخري: لنخرجها من (المرحلة الغثائية) التي أشار إليها الحديث بـ"غثاء السيل".

وغثاء السيل: ما يجمعه السيل من أشياء متناثرة من هنا وهناك، من حطب وورق وأعواد وخشب، وأشياء مختلفة، يجمعها عدَّة أوصاف:

1- أنها خفيفة سطحية، تطفو على السطح ولا ترسب في الأعماق.

2- أنها غير متجانسة.

3- أنها لا هدف لها، فليس لها مصبٌّ معلوم تنتهي إليه.

4- أنها ليس لها مجرى مرسوم، ولا طريق معلوم, وإنما تسير حيثما اتفق لها. فهذا شان السيل، بخلاف النهر، فإن له مصبًّا وهدفا معلوما، ومجرى مرسوما.

وهذه الأوصاف كلُّها هي أوصاف الأمة في مرحلة الغثاء أو مرحلة الوَهْن.

فمَن أراد أن يحرِّر الأمة من هذه الحالة، فليبدأ بالطريق الصحيح, طريق التربية والتزكية، حتى تنتصر على حبِّ الدنيا، وتزهد في متاعها الأدنى، وترغب فيما عند الله، وفي مثوبتة الله، فتنتصر على ضعفها، وبالتالي تنتصر على عدوها.

<u>الثاني: الإعراض عن اتباع الشهوات:</u>

الأمر الثاني من مقوِّمات الزهد المشروع[2]: الإعراض عن اتباع شهوات الدنيا, كما ذم الله تعالى قوما فقال: **{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}** [مريم:59]، وفي مقام آخر قال: **{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}** [النساء:27]. ومعنى (اتِّباع) الشهوات: أن يكون تابعًا لها، تأمره فيطيع، وتسوقه فينساق، فهو أسير لها. فهذا معنى اتباعها.

1- رواه ابن أبي شيبة في البعوث والسرايا (34417)، وأبو يعلى (113/13)، وسعيد بن منصور في رسائل النبي (191/2)، عن الشعبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهو ضعيف وقد وثق (325/6).

2- تقدم الأمر الأول ص75، وهو إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا.

وليس معنى الإعراض عنها: رفضها بالكلية, فهذا ضدُّ الفطرة التي فطر الله الخلق عليها, وضد ما يطلبه الإسلام من عمارة الإرض, وهذا ما يقتضيه تقدُّم المجتمع المسلم, وتستوجبه قوَّة الأمة المسلمة وتفوُّقها في شؤون الدين والدنيا, وارتقاؤها في سُلَّم الحضارة.

ولكن المراد هنا: ألا تكون شهوات الدنيا أكبر همِّه, ومبلغ علمه, فتسيِّره الغرائز, وتستعبده شهوة البطن أو شهوة الفرج, أو شهوة الزينة والتجمُّل, أو شهوة المَحْمدة والشهرة، أو شهوة الجاه والنفوذ، بحيث لا يقف عندما ينبغي, بل يفعل ما يشتهى, ويسترسل في الاستجابة لداعي الغريزة, وباعث الهوى, حتى يُمسى عبدًا لها, كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة: "تعس عبد الدينار, تعس عبد الدرهم, تعس عبد القطيفة, تعس وانتكس, واذا شيك فلا انتقش ..."[1].

فهذه العبودية هي المذمومة, لأنها تنافي التوحيد الخالص لله, الذي يريد من المؤمن أن يكون كله لله, وليس نصفه له, ونصفه لغيره, كما قال تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الأنعام:162].

وقال تعالى: **{ضَرَبَ اللَّهُ مثلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مثلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [الزمر:29].

ومن المعروف أن هذه الشهوات قد زُيِّنت للإنسان, وأغري بها, والموفَّق أو الزاهد حقًّا مَن لم توقعه في شراكها, وآثر النعيم الأعلى على المتاع الأدنى, كما قال الله تعالى: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ}** [آل عمران:14-17].

وشهوات الدنيا التي يحذر اتباعها نوعان: حسيَّة ومعنويَّة. وعوامُّ الناس يُخشى عليهم من الشهوات الحسيَّة، وخواصُّهم يخشى عليهم من الشهوات المعنوية.

ومن هنا حذر القرآن وحذَّرت السنة من شهوة البطن بأكل الحرام، أو شهوة الفرج، باقتراف فاحشة الزنى، وعمل قوم لوط، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}** [النساء:29]، **{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا**

1- رواه البخاري في الجهاد والسير (2887)، وابن ماجه في الزهد (4136)، عن أبي هريرة.

أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ} [البقرة:173]، وقال تعالى: **{إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [المائدة:90].

وقال تعالى: **{وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}** [الإسراء:32]، **{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}** [الأعراف:80، 81].

وقال صلى الله عليه وسلم: "من يضمن لي ما بين لحييه (يعني: الفم)، وما بين رجليه (يعني الفرج)، أضمن له الجنة"[1].

وقال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن"[2].

ولا يكتفي الإسلام بتحريم الزنى، بل يُجرِّم كل ما يؤدِّي إليه، أو يساعد عليه من الخلوة والقبلة واللمسة والنظرة، ولذا قال تعالى: **{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}** [النور:29، 30].

وفي الحديث: "لا يحلُّ لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يّخْلو بامرأة إلا وزوجها معها"[3].

ومن الشهوات الحسية: الولع بالخمر والمسكرات، التي كثيرا ما يصاب مَن يتناولونها بـ(الإدمان)، الذي يصبح مرضًا عضالاً، ينفق على علاجه عشرات المليارات.

ولا عجب أن حرم الإسلام الخمر، واعتبرها (أم الخبائث)، وعدَّها – مع الميسر – رجْسًا من عمل الشيطان، وكبيرة من أكبر الكبائر، ولذا لعن فيها عشرة[4]: شاربها وساقيها، وصانعها والمتَّجر فيها، وحاملها حتى عاصرها، أي: الذي يعصر العنب، ليصير بعد ذلك خمرا، ملعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم.

ومثل الخمر – وربما كان أسوأ – المخدرات، التي غدت في نظر العالم سمومًا قاتلة، ولهذا يحاول الأعداء أن يُهرِّبوها وينشروها في الأمة المعادية لهم، ليقضوا على مقوِّمات القوة فيها.

1- رواه البخاري في الرقاق (6474)، وأحمد (22823)، والترمذي في الزهد (2408)، عن سهل بن سعد.

2- سبق تخريجه.

3- رواه عبد الرزاق في الطلاق (12544).

4- رواه الترمذي في البيوع (1295)، وقال: حديث غريب، وابن ماجه في الأشربة (3381)، والطبراني في الأوسط (1355)، عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (1041).

والشـهوات الحسـية هـي التـي تهـدِّد الحضـارة المعاصـرة – الحضـارة الغربيـة – بـالهلاك والانحلال، إذا لم تتدارك نفسها.

ولا حـرج علـى المسـلم مـن شـهوة الفرج إذا كانـت حـلالًا، وسـنعرض لـذلك عنـد حـديثنا عـن الزواج، وأنه لا ينافي الزهد، فقد مات سيد الزاهدين عن تسع نسوة.

وأخطر الشهوات المعنوية: حب المال والثراء، وحب الجاه والظهور، وحب التظاهر بالعبادة، الذي يسمِّيه الدين (الرياء)، فهذه – كما سمَّاها الإمام الغزالي – مهلكات، أي: مهلكات للفرد في دينه، ومهلكات للأمة إذا انتشرت فيها.

المراد بالدنيا المذمومة:

بعد أن بيَّنا حقيقة الزهد الذي يريده الإسلام، يلزمنا أن نحرِّر المراد بـ(الدنيا المذمومة) في القرآن والسنة.

ليس المذموم زمان الدنيا:

فقد قرَّر علماء السلوك: أن ذلك لا يرجع إلى (زمان الدنيا)، سواء كان زمانها العام من يوم خلقها الله إلى أن تقوم الساعة، أم زمانها الخاص لكلِّ فرد، وهو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، وتعاقبهما واختلافهما آية من آيات الله في الكون، كما قال تعالى: {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**} [آل عمران:190].

وهما كذلك من نِعَم الله الكبرى على الإنسان، كما قال تعالى: {**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**} [إبراهيم:33].

كما جعلهما الله خِلْفةً لمَن أراد أن يذَّكر أو أراد شكورا، كما قال تعالى: {**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**} [الفرقان:62]، أي: يخلف الليل النهار، ويخلف النهار الليل، فمَن فاته عمل بالليل تداركه بالنهار، ومَن فاته عمل بالنهار تداركه بالليل.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما.

وقال بعض السلف: ما من يوم ينشقُّ فجره، إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خَلْق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

ويُروى عن عيسى عليه السلام، أنَّه قال: إن هذا الليل والنهار خزانتان، فانظُروا ما تضعُون فيهما. وكان يقول: اعملوا بالليل لما خلق له، والنهار لما خلق له[1].

وقال مجاهد: ما من يوم إلا يقول: ابنَ آدم، قد دخلتُ عليك اليوم، ولن أرجعَ إليك بعدَ اليوم، فانظر ماذا تعمل فيَّ. فإذا انقضى، طُوِي، ثم يُختَمُ عليه، فلا يُفَكُّ، حتى يكون الله هو الذي يفضُّه يومَ القيامة، ولا ليلة إلا تقول كذلك[2]، وقد أنشد بعضُ السلف:

إنَّما الدُّنيا إلى الجنَّةِ والنَّار طريق

واللَّيالي متجر الإنسان والأيَّام سُوق[3]

وليس المذموم مكان الدنيا ولا ما فيها:

وليس الذمُّ راجعًا إلى مكان الدنيا، الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مِهادًا وسكنًا، وبساطًا وفراشًا، ومستقرًّا ومتاعًا إلى حين، كما قال تعالى: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}** [نوح:19، 20]، **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}** [النبأ:6، 7]، **{وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}** [البقرة:36]، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن، ولا إلى ما أنبته فيها من الشَّجر والزرع، ولا إلى ما بثَّ فيها من كلِّ دابة في البر، أو طائر يطير بجناحيه في الجو، أو أحياء وحلية في البحر، أو غير ذلك، فإن ذلك كلَّه من نعمة الله على عباده، بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانيَّة صانعه وقُدرته وعَظَمَتهِ، كما قال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}** [إبراهيم:32-34]. فهذه كلُّها عناصر من الدنيا، ونعم منَّ الله بها على خلقه، وسخَّرها لمنفعتهم، فكيف يذمُّها وهو يَمُنُّ بها عليهم؟!

وفي سورة النحل كثير من هذه الأشياء - وهي جزء من الدنيا - أحسن الله بها إلى عباده، ولذلك سمَّاها بعض الصحابة: سورة النِعَم، مثل الأنعام، والنباتات، والشمس والقمر والنجوم، والبحر، واللبن والعسل، والأزواج والبنين والحَفَدة، وغيرها من نعم الله.

1- رواه ابن أبي الدنيا في الليالي والأيام (23)، والبيهقي في الزهد الكبير صـ295.

2- رواه ابن أبي الدنيا في الليالي والأيام (10).

3- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (102)، والبيهقي في الزهد الكبير صـ (298)، عن عامر بن عباس الهمداني.

وإنما الذمُّ راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا؛ لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تُحمد عاقبته، بل يقع على ما تضرُّ عاقبته، أو لا تنفع، كما قال عزَّ وجلَّ: **{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ}** [الحديد:20].

النـاس مع الدنيا قسمان:

وانقسم بنو آدم في الدُّنيا إلى قسمين:

أحدهما: منكر الآخرة:

مَن أنكر أن يكون للعباد بعد الدنيا دار للثواب والعقاب، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: **{إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنيا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ *أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [يونس:7، 8]، وهؤلاء همُّهمُ التمتُّع بالدنيا، واغتنام لذَّاتها قبل الموت، كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ}** [محمد:12].

ومن هؤلاء مَن كان يأمر بالزُّهد في الدنيا؛ لأنه يرى أن الاستكثار منها يُوجب الهمَّ والغمَّ، ويقول: كلَّما كثُر التعلُّق بها، تألَّمت النفس بمفارقتها عند الموت. فكان هذا غاية زهدهم في الدنيا.

والقسم الثاني: المؤمنون بالآخرة، وهم متفاوتون:

مَن يقرُّ بدار بعد الموت للثواب والعقاب، وهم المنتسبون إلى شرائع المرسلين، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

1. الظالم لنفسه:

فالظالم لنفسه: هم الأكثرون منهم، وأكثرهم وقف مع زهرة الدنيا وزينتها، فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همِّه، لها يغضب، وبها يرضى، ولها يُوالي، وعليها يُعادي، وهؤلاء هم أهل اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، وكلُّهم لم يعرفِ المقصود من الدنيا، ولا أنها منزل سفر يتزوَّد منها لما بعدها من دار الإقامة، وإن كان أحدهم يؤمن بذلك إيمانا مجملا، فهو لا يعرفه مفصَّلا، ولا ذاق ما ذاقه أهل المعرفة بالله في الدنيا، مما هو أُنموذج ما ادُّخر لهم في الآخرة.

2. المقتصد:

و(المقتصد) منهم أخذ الدنيا من وجوهها المباحة، وأدَّى واجباتها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب، يتوسَّع به في التمتُّع بشهوات الدنيا، وهؤلاءِ قد اختُلف في دخولهم في اسم الزهادة في الدنيا. ولا عقاب عليهم في ذلك، إلاَّ أنه ينقص من درجاتهم من الآخرة بقدر توسُّعهم في الدُّنيا. قال ابن عمر: لا يصيب عبد من الدنيا شيئًا إلاَّ نقص من درجاته عند الله، وإن كان عليه كريمًا[1]. أخرَّجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيِّد. وروي مرفوعًا من حديث عائشة بإسناد فيه نظر[2].

1- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (311)، وهناد في الزهد (557).

2- قال المنذري في الترغيب والترهيب (77/4): رواه ابن أبي الدنيا وإسناده جيد، وروي عن عائشة مرفوعًا، والموقوف أصح.

وروى الإمام أحمد في كتاب (الزهد) بإسناده: أن رجلاً دخل على معاوية، فكساه، فخرج فمرَّ على أبي مسعود الأنصاري ورجلٍ آخر من الصحابة، فقال أحدهما له: خذها من حسناتك. وقال الآخر: من طيّباتك[1].

وبإسناده عن عمر قال: لولا أن تنقص حسناتي لخالطتكم في لين عيشكم، ولكني سمعتُ الله عيَّر قومًا، فقال: **{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنيا}** [الاحقاف:20][2].

وقال الفُضيل بن عِياض: إن شئت استَقِلَّ من الدنيا، وإن شئتَ استكثر منها، فإنما تأخذ من كيسك.

ويشهد لهذا أن الله عزَّ وجلَّ، حرَّم على عباده أشياء من فضول شهوات الدنيا وزينتها وبهجتها، حيث لم يكونوا محتاجين إليه، وادَّخره لهم عنده في الآخرة، وقد وقعت الإشارة إلى هذا بقوله عزَّ وجلَّ: **{وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرحمان لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عليها يظهرون* ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنيا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}** [الزخرف:33-35].

وصحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنَّه قال: "مَن لبس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة"[3]، و"مَن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة"[4]. وقال: "لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضَّة، ولا تأكُلُوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة"[5].

قال وهب: إن الله عزَّ وجلَّ، قال لموسى عليه السلام: إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها، كما يذودُ الراعي الشفيق إبله عن مبارك العُرَّةِ، وما ذلك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفَّرًا لم تَكْلَمْه الدُّنيا[6].

ويشهد لهذا ما خرَّجه الترمذي، عن قتادة بن النعمان، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله إذا أحبَّ عبدًا حماه عَنِ الدُّنيا، كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء"[1]. وخرَّجه الحاكم،

1- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (409/40).

2- رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (356)، ولم يذكر الآية.

3- متفق عليه: رواه البخاري (5834)، ومسلم (2069)، كلاهما في اللباس، كما رواه أحمد (181)، والنسائي في الزينة (5305)، عن عمر بن الخطاب.

4- متفق عليه: رواه البخاري (5575)، ومسلم (2003)، وأبو داود (3679)، والترمذي (1861)، والنسائي (5671)، وابن ماجه (3373)، جميعهم في الأشربة، عن ابن عمر.

5- متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (5426)، ومسلم في اللباس والزينة (2067)، كما رواه أحمد (23364)، وأبو داود (3723)، والترمذي (1878)، كلاهما في الأشربة، والنسائي في الزينة (5301)، وابن ماجه في الأشربة (3414)، عن حذيفة.

6- رواه ابن أبي الدنيا في التواضع (9)، والدينوري في المجالسة (1894).

ولفظه: "إن الله ليحمي عبدَه الدنيا وهو يحبُّه، كما تحمُون مريضكم الطعام والشراب، تخافون عليه"[2].

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدنيا سجن المؤمن، وجنَّة الكافر"[3].

3. السابق بالخيرات:

وأما (السابق بالخيرات) بإذن الله، فهم الذينَ فَهموا المراد من الدنيا، وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في هذه الدار، ليبلوهم أيُّهم أحسن عملا، كما قال: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [هود:7]، وقال: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [الملك:2].

قال بعض السلف: أيُّهم أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة، وجعل ما في الدنيا مِنَ البهجة والنَّضرة محنة، لينظر مَن يقف منهم معه، ويركن إليه، ومَن ليس كذلك، كما قال تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [الكهف:7]، ثم بيَّن انقطاعه ونفاده، فقال: **{وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً}** [الكهف:8]، فلما فَهموا أن هذا هو المقصود من الدنيا، جعلوا همهم التزوُّد منها للآخرة التي هي دار القرار، واكتفَوا من الدنيا بما يكتفي به المسافر في سفره، كما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: "ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قالَ (قضى القيلولة) في ظلِّ شجرة، في يوم صيف فراح وتركها"[4].

ووصَّى صلى الله عليه وسلم، جماعة من الصحابة أن يكون بلاغ أحدِهم "من الدنيا كزاد الراكب"، منهم: سلمان[5]، وأبو عبيدة بن الجرَّاح، وأبو ذرٍّ، وعائشة[1]، ووصَّى ابن عمر أن يكون في الدنيا "كأنه غريب أو عابر سبيل"[2].

1- رواه الترمذي في الطب (2036)، وقال: حسن غريب، وابن حبان في الرقائق (669)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، عن قتادة بن النعمان، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (5250)، التحقيق الثاني.

2- رواه الحاكم في الطب (208/4)، كذا قال عن أبي سعيد، وفي حديث عمارة بن غزية عن قتادة بن النعمان، والإسنادان عندي صحيحان، وقال الذهبي: صحيح، عن أبي سعيد.

3- رواه مسلم في الزهد (2956)، وأحمد (8289)، والترمذي (2324)، وابن ماجه (4113)، كلاهما في الزهد، عن أبي هريرة.

4- رواه أحمد (3709)، وقال مخرجوه: صحيح، والترمذي في الزهد (2377)، وقال: حسن صحيح، ووافقه الألباني كما الصحيحة (438)، وابن ماجه في الزهد (4109)، عن عبد الله بن مسعود.

5- رواه أحمد (23711)، وقال مخرجوه: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أنه مرسل، وابن ماجه في الزهد (4104)، والطبرى في تهذيب الآثار (430)، وابن حبان في الرقائق (706)، وصححه الألباني في الصحيحه (1716).

هؤلاء السابقون صنفان:

وأهل هذه الدرجة على قسمين: منهم مَن يقتصر من الدنيا على قَدر ما يسدُّ الرمق فقط، وهو حالُ كثير من الزهَّاد. ومنهم مَن يفسح لنفسه أحيانًا في تناول بعض شهواتها المباحة؛ لتقوى النفس بذلك، وتنشط للعمل، كما روي عنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حُبِّب إليَّ من دنياكم: النساء والطيب، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصَّلاة". خرَّجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أنس[3].

وقال وهب: مكتوب في حكمة آل داود عليه السلام: ينبغي للعاقل أن لا يَغفُل عن أربع ساعات: ساعة يُحاسِب فيها نفسه، وساعة يُناجي فيها ربَّه، وساعة يلقى فيها إخوانه، الذين يُخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلِّي بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحلُّ ويجمل، فإن في هذه الساعة عَوْنًا على تلك الساعات، وفَضْلَ بُلغة، واستجمامًا للقلوب[4]. يعني: ترويحًا لها.

ومتى نوى المؤمن بتناول شهواته المباحة التقوِّي على الطاعة، كانت شهواته له طاعة يُثابُ عليها، كما قال معاذ بن جبل: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قَوْمتي[5]. يعني: أنَّه ينوي بنومه التقوِّي على القيام في آخر الليل، فيحتسِبُ ثواب نومه، كما يحتسب ثواب قيامه. وكان بعضهم إذا تناول شيئًا من شهواته المباحة وَاسَى منها إخوانه، كما روي عن ابن المبارك: أنه كان إذا اشتهى شيئًا لم يأكله حتَّى يشتهيه بعضُ أصحابه، فيأكله معهم، وكان إذا اشتهى شيئًا، دعا ضيفًا له ليأكل معه.

وكان يُذكر عن الأوزاعي أنه قال: ثلاثة لا حساب عليهم في مطعمهم: المتسحِّر، والصائم حين يفطر، وطعام الضيف[6])[7] اهـ.

ليس من الدنيا المذمومة:

1- رواه الترمذي في اللباس (1780)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح ابن حسان، وسمعت محمداً (يعنى البخاري) يقول: صالح بن حسان منكرالحديث، وصالح بن حسان- الذي روى عنه ابن أبي ذئب- ثقه، لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان، وقال الألباني ضعيف جدا، وأبو يعلى في مسنده (4610)، والحاكم في الرقاق (312/4)، وصححه، وقال الذهبي: سعيد بن محمد الوراق عدم، أي: ساقط الحديث، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10398).

2- رواه البخاري في الرقائق (6416)، وأحمد (4764)، والترمذي (2333)، وابن ماجه (4114)، كلاهما في الزهد، عن عبد الله بن عمر.

3- سبق تخريجه.

4- رواه ابن المبارك في الزهد (313)، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (4677).

5- جزء من حديث متفق عليه: رواه البخاري في استتابة المرتدين (6923)، ومسلم في الإمارة (1733)، كما رواه أحمد (19681)، وأبو داود في الأقضية (3579).

6- رواه أبو نعيم في الحلية (72/6).

7- انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب بتحقيق الأرناؤوط (193/2-186)، بتصرف.

ومن المهم أن يعلم المسلم: (أن الدنيا) وإن اعتُبرت متاعًا قليلًا وزائلًا، ومتاع الغرور، فإنها دار لها أهمية عظمى باعتبارها (مزرعة الآخرة)، فهي الفرصة الوحيدة للإنسان، ليصنع فيها مصيره، ويُحقِّق فيها أمله الكبير في الخلود والسعادة الأبدية. لهذا كان عمر الإنسان في الدنيا في غاية النفاسة والغلاء، لأنه ليس له إلا عمر واحد، هو هذه الأيام التي يقضيها من المهد إلى اللحد.

وهذه ناحية مهمَّة قد يغفل عنها الكثيرون، ولا يقدِّرونها حقَّ قدرها. ولكن أهل المعرفة والبصيرة لا تخفى عليهم هذه الحقيقة النيِّرة. ولهذا ميَّزوا بوضوح بين ما يُذَمُّ من الدنيا وما يُمدح فيها، وبين ما يُحبُّ فيها وما يُكره.

(قال الحسن: ليس من حُبِّك للدنيا طلبك ما يُصلحك فيها، ومن زهدك فيها: ترك الحاجة يسدُّها عنك تركها، ومن أحبَّ الدنيا وسرَّته، ذهب خوفُ الآخرة من قلبه[1].

وقال سعيد بن جبير: متاع الغرور ما يُلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلهِك فليس بمتاع الغرور، ولكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه[2].

وقال يحيى بن معاذ الرازي: كيف لا أحِبُّ دنيا قُدِّر لي فيها قوت، أكتسب بها حياة، أُدركُ بها طاعة، أنال بها الآخرة.

وسُئل أبو صفوان الرّعيني، وكان من العارفين: ما هي الدنيا التي ذمَّها الله في القرآن، التي ينبغي للعاقل أنْ يجتنبها؟ فقال: كلُّ ما أصبتَ في الدنيا تريد به الدنيا، فهو مذموم، وكلُّ ما أَصبتَ فيها تريد به الآخرة، فليس منها[3].

وقال الحسن: نِعْمت الدار كانت الدنيا للمؤمن، وذلك أنه عمل فيها قليلًا، وأخذ زاده منها إلى الجنَّة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيَّع لياليه، وكان زاده منها إلى النار[4].

وقال أَيْفَع بن عبد الكَلاعي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النار النار، قال الله: يا أهل الجنَّة، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم. قال: نعم ما اتَّجرتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنَّتي، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين. ثم يقول لأهل النار: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم.

1- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (162).

2- رواه نعيم بن حماد في زوائده على الزهد لابن المبارك (140).

3- رواه ابن الأعرابي في الزهد (35)، وأبو نعيم في الحلية (5/10)، والبيهقي في الزهد الكبير صـ187.

4- رواه الإمام أحمد في الزهد صـ284.

فيقول: بئس ما اتَّجرتم في يوم أو بعض يومٍ، سخطي ومعصيتي وناري، امكثوا فيها خالدين مخلدينَ"[1].

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "نعمت الدار الدنيا لمَن تزوَّد منها لآخرته حتَّى يرضي ربَّه، وبئست الدار لمَن صدَّته عن آخرته، وقصَّرت به عن رضا ربِّه. وإذا قال العبد: قبَّح الله الدنيا، قالت الدنيا: قبَّح الله أعصانا لربِّه"[2].

وقول عليٍّ، خرَّجه ابن أبي الدنيا عنه، بإسناد فيه نظر: أنَّ عليًا سمع رجلا يسبُّ الدنيا، فقال: إنها لدارُ صدق لمَن صدقها، ودار عافية لمَن فَهم عنها، ودار غنى لمَن تزوَّد منها، مسجد أحبَّاءِ الله، ومهبِط وحيِه، ومُصلّى ملائكته، ومتجرُ أوليائه، اكتسبوا فيها الرَّحمَةَ وربحُوا فيها الجنَّة، فمَن ذا يذمُّ الدنيا وقد آذنت بفراقها، ونادت بعيبها، ونعت نفسها وأهلها، فمثَّلت ببلائها البلاء، وشوَّقت بسرورها إلى السرور، فذمَّها قوم عند الندامة، وحمِدها آخرون، حدَّثتهم فصدَّقوا، وذكَّرتهم فذكروا؟ فيا أيُّها المُغترُّ بالدنيا، المُغترُّ بغرورها، متى استلامت إليك الدنيا؟ بل متى غرَّتك؟ أبمضاجعِ آبائك من الثرى؟ أم بمصارع أمَّهاتك من البلى؟ كم قد قلَّبتَ بكفَّيك، ومرَّضت بيديك تطلب له الشِّفاءَ، وتسأل له الأطباء، فلم تظفر بحاجتك، ولم تُسعَفْ بطلبتك، قد مثَّلت لك الدُّنيا بمصرعه مصرعك غدًا، ولا يُغني عنك بكاؤك، ولا ينفعك أحبَّاؤك[3].

فبيَّن أمير المؤمنين رضي الله عنه: أنَّ الدنيا لا تُذَمُّ مطلقا، وأنها تحمد بالنسبة إلى مَن تزوَّد منها الأعمال الصالحة، وأن فيها مساجد الأنبياءِ، ومهبط الوحي، وهي دار التجارة للمؤمنين، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا بها الجنَّة، فهي نِعْم الدار لمَن كانت هذه صفته. وأمَّا ما ذكر من أنها تَغُرُّ وتخدع، فإنها تنادي بمواعظها، وتنصح بعِبَرها، وتُبدي عيوبها بما تُرِي أهلها من مَصَارع الهلكى، وتقلُّب الأحوال من الصحَّة إلى السقم، ومن الشبيبة إلى الهَرَم، ومن الغنى إلى الفقر، ومن العزِّ إلى الذلِّ، لكن محبَّها قد أصمَّه وأعماه حبُّها، فهو لا يسمع نداءها، كما قيل:

قد نادت الدنيا على نفسها   لو كان في العالم مَن يسمعُ

1- رواه ابن أبي حاتم في التفسير (14060)، وأبو نعيم في الحلية (132/5)، وقال الحافظ في الإصابة (262/1): رجال إسناده ثقات إلا أنه مرسل أو معضل لا يصح لأيفع سماع من صحابي.

2- رواه الحاكم في الرقائق (312/4)، وصححه، وقال الذهبي: منكر، وابن عدي في الكامل (248/3)، والعقيلي في الضعفاء (89/3)، وقال: عبد الجبار بن وهب مجهول وحديثُه غير محفوظ، وهذا الكلام يُروى عن عليٍّ من قوله، عن طارق بن أشيم.

3- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (147)، والدينوري في المجالسة (1211).

كم واثق بالعمر أَفْنَيتُه وجامع بدَّدتُ ما يجمعُ[1]

ما ينكره الإسلام من الدنيا:

ينكر الإسلام على المسلم أن يحبَّ الإنسانُ الدنيا حبًا جمًا، بحيث يجعلها أكبر همِّه، ومبلغ غلمه، ومناط آماله، ومحور أحلامه، عليها وحدها يحرص، ولها وحدها يسعى، وفيها وحدها يرغب، ومن أجلها يصادق ويخاصم، ويسالم ويحارب.

وروى الحاكم، عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن أصبح والدنيا أكبر همِّه، فليس من الله في شيء"[2].

وهذا فضلًا عما فيه من ضياع الآخرة، فهو كارثة على صاحبه في الدنيا، فيه قلق لنفسه، وتعب لقلبه، وبلبلة لخاطره، وتقليل لأحبابه، وتكثير لأعدائه، وفقدان لسكينة نفسه.

ينكر الإسلام على المسلم أن يتشبَّث بالحياة تشبُّثا يهون بإزائه واجب الدين والتضحية في سبيله بكلٌ شيء حتى الحياة، وهنا يبدو الزهد الحقٌ، وتبدو القوَّة الحقيقية، حين تتعارض الدنيا والدين، وحياة الفرد وحياة الرسالة والأمة.

فأما أبناء الدنيا فيتعلَّقون بأهداب الحياة، ويعضُّون عليها بالنواجذ، **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}** [النساء:77]، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}** [التوبة:38].

كما ذمَّ القرآن أقواما باعوا دينهم بدنياهم، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فما أغنت عنهم من الله شيئا، كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [البقرة:174].

الزهد الحقيقي والقوة الحقيقية حين يستهين المرء بحياته في سبيل ما يؤمن به، وهذا ما كان يتَّصف به الصحابة، حتى كان أحدهم يلاقي الأعداء، وهم أكثر عددًا، وأقوى عدَّة، ولا يبالي أوقع على الموت، أم وقع الموتُ عليه.

1- انظر: جامع العلوم والحكم (187/2- 195).

2- رواه الحاكم في الرقاق (317)، وسكت عنه، وقال الذهبي: إسحاق- وهو ابن بشر أحد رواه الحديث- عدم، وأحسب الخبر موضوعا.

حقيقة الضعف في الأمة ومنابعه:

وقد كشف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن حقيقة الضعف في الأمة ومنابعه البعيدة، فلم يكن من قلَّة العُدد، ولا ضآلة العُدَّة، إنما هو شيءٌ آخر ذكره عليه السلام: "حب الدنيا وكراهية الموت"[1].

ينكر الإسلام أن تكون الدنيا هي أساس تقويم الناس، ومعيار التفاضل بينهم، فبمقدار ما يملكون من متاعها، تثقل في الميزان كفَّتهم، وترفع في الأسواق قيمتهم، وتنحني الناس رَغْبةً ورهبةً لهم.

إنما يريد الإسلام أن يكون تقدير الناس بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والخُلق الفاضل، والعمل الصالح: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** [الزمر:9]، **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** [المجادلة:11]، **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}** [الحجرات:13]، "لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى"[2].

ولكن الناس إذا تعلَّقوا بالدنيا قلبوا هذه الموازين، كما نرى في قصَّة قارون: **{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** [القصص:79].

وكما نرى في قوله تعالى: **{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [التوبة:55].

{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه:131].

{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران:196، 197].

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مثلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ...} [الكهف:32-44].

وكما نرى في الحديث الصحيح: "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"[3].

1- سبق تخريجه.

2- رواه أحمد (23489)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (586/3)، عمَّن سمع خطبة النبي صلي الله عليه وسلم.

3- سبق تخريجه.

هذا هو ميزان الرجال عند محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ميزان مَن يقيس الناس بما في قلوبهم من معاني الحياة العُليا، لا بما على أبدانهم من مظاهر الحياة الدنيا، "رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤْبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه"[1].

ويكشف لنا الرسول الكريم عن صنفين من الناس، أولهما: عبد الدنيا، وعبد المظهر. والثانى: عبد الله وحده، يعمل حيث وضع جنديا مجهولًا أو معلومًا.

"تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعِنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مُغبرَّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استاذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع"[2].

معنى "إن كان فى الساقة::

وينكر الإسلام على المسلم أن يتَّخذ أعمال الآخرة، من علم ديني، أو هجرة دينية، أو جهاد ديني: وسيلة لكسب الدنيا من مال أو منصب أو منزلة في قلوب الناس، وذلك لما فيه من قلب الحقائق، وعكس الأوضاع، فإن الله جعل الدنيا وسيلة للآخرة، فكيف نجعل الغاية وسيلة، والوسيلة غاية؟!

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى"[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول الناس يُقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد، فأُتي به، فعرَّفه نعمته فعرَفها. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبتَ، ولكن قاتلتَ لأن يقال: هو جريء؛ فقد قيل. ثم أُمر به فسحب على وجهه، حتى أُلقي في النار ..."[4].

عن كعب بن مالك قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار"[5].

المذموم من الدنيا:

1- سبق تخريجه.

2- سبق تخريجه.

3- متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (1)، ومسلم في الإمارة (1907)، كما رواه أحمد (168)، وأبو داود في الطلاق (2201)، والترمذي في الجهاد (1647)، والنسائي في الطهارة (75)، وابن ماجه في الزهد (4227)، عن عمر.

4- رواه مسلم في الإمارة (1905)، وأحمد (8277)، والنسائي في الجهاد (3137)، عن أبي هريرة.

5- رواه الترمذي في العلم (2654)، وقال: حديث غريب، إسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم تكلم فيه من قبل حفظه، والطبراني في المعجم (100/19)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (6383)، عن كعب بن مالك.

إذا عرَفنا حقيقة الزهد في الدنيا، وأن جوهره ومحوره وأساسه يتعلَّق بـ(الإرادة) للآخرة، وإيثارها على الدنيا: عرَفنا بذلك أن الدنيا ليست مذمومة في ذاتها، وليس كلُّ ما فيها مذموما لذاته، كيف وقد خلقها الله للإنسان ليعمُرها ويقوم بخلافته فيها؟ وقد قال تعالى: {**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**} [البقرة:29]، {**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**} [لقمان:20]، {**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**} [الجاثية:13].

فكيف يخلقها لهم ويسخِّرها لمنفعتهم، ثم يحرِّمها عليهم أو يحرمهم من طيِّباتها؟ وهذه الآيات وأمثالها هي التي استدلَّ بها الفقهاء على أن الأصل في الأشياء والمنافع الحِل والإباحة، ثم إنه تبارك وتعالى قد طلب إلى عباده أن يعمروا الأرض، كما قال على لسان نبي الله صالح: {**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**} [هود:61]، ومعنى {**اسْتَعْمَرَكُمْ**}، أي: طلب إليكم أن تعمروها، فكيف يطلب منهم أن يعمروها، ويذمُّ مَن سعى في خرابها، ثم يذم من سعى في عمارتها؟

فما الذي يُذمُّ في الدنيا إذن؟

لا بد من تحرير المراد هنا، حتى يتبيَّن الحقُّ من الباطل، ولا يلتبس الرشد بالغيِّ. وقد بيَّنا فيما سبق أن الذي يُذمُّ من الدنيا هو تعلُّق القلب بها تعلُّقا يجور على حقِّ الله تعالى، وحقِّ الآخره، وهو أمر يرجع إلى (الإرادة) قبل كلِّ شيء لا إلى امتلاك الدنيا، ولا إلى الاستمتاع بطيِّباتها. وقد ذكرتُ الآيات الكثيرة الموضِّحة لذلك: {**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا**} [الإسراء:18، 19].

فمحور الهلاك أو النجاة هو الإرادة، أراد الدنيا، أو أراد الآخرة، وهذا يعني أن معنى إرادة الدنيا أن يجعل همّه فيها، بحيث تكون أكبر همِّه، ومبلغ علمه، كما قال تعالى: {**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**} [النجم:29، 30].

تنوُّع مشاهد الزاهدين للزهد:

(والزاهدون في الدُّنيا بقلوبهم لهم ملاحظ ومشاهد يشهدونها – كما قال العلاَّمة ابن رجب رحمه الله – فمنهم مَن يشهد كثرة التعب بالسعي في تحصيلها، فهو يزهد فيها قصدا لراحة نفسه. قال الحسن: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن.

ومنهم مَن يخاف أن ينقص حظُّه من الآخرة بأخذ فضولِ الدنيا، ومنهم مَن يخاف من طول الحساب عليها، قال بعضهم: مَن سأل الله الدنيا، فإنما يسأل طول الوقوف للحساب[1].

ومنهم مَن يشهد كثرة عيوب الدنيا، وسرعة تقلُّبها وفنائها، ومزاحمة الأراذل في طلبها. كما قيل لبعضهم: ما الذي زهَّدك في الدنيا؟ قالَ: قلَّة وفائها، وكثرةُ جفائها، وخسَّة شركائها.

ومنهم مَن كان ينظر إلى حَقارة الدنيا عند الله، فيقذرها، كما قال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت عليَّ حلالا لا أُحاسب بها في الآخرة، لكنت أتقذَّرها كما يتقذَّر الرجلُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيبَ ثوبه[2].

ومنهم مَن كان يخاف أن تشغله عن الاستعداد للآخرة والتزوُّد لها، قال الحسن: إن كان أحدهم ليعيش عمره مجهودا شديد الجَهد، والمال الحلال إلى جنبه، يقال له: ألا تأتي هذا فتُصيب منه؟ فيقول: لا والله، لا أفعل، إني أخافُ أن آتيه، فأُصيبَ منه، فيكونَ فسادَ قلبي وعملي[3].

وبُعث إلى عمر بن المنكدر بمال، فبكى واشتدَّ بكاؤه، وقال: خشيتُ أن تغلب الدنيا على قلبي، فلا يكون للآخرة فيه نصيب، فذلك الذي أبكاني. ثم أُمر به، فتُصُدِّقَ به على فقراء أهل المدينة[4].

وخواصُّ هؤلاء يخشى أحدهم أن يشتغل بها عن اللهِ، كما قالت رابعة: ما أحبُّ أن لي الدنيا كلَّها من أوَّلها إلى آخرها حلالاً، وأن أنفقها في سبيل الله، وأنها شغلتني عنِ الله طرفةَ عين.

وقال أبو سليمان: الزهد ترك ما يشغل عن الله[5]. وقال: كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو مشؤوم[6].

وقال: أهل الزهد في الدنيا على طبقتين: منهم مَن يزهد في الدنيا، فلا يُفتَح له فيها رُوح الآخرة، ومنهم من إذا زَهد فيها، فُتح له فيها رُوح الآخرة، فليس شيء أحبَّ إليه من البقاء ليطيع الله[7].

1- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (261)، عن بشر الحافي.

2- رواه أبو نعيم في الحلية (89/8)، وابن عساكر في تاريخه (414/48).

3- رواه أحمد في الزهد صـ260، وأبو نعيم في الحلية (269/6).

4- رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (63).

5- رواه أبو نعيم في الحلية (258/9).

6- رواه أبو نعيم في الحلية (264/9)، والخطيب في تاريخه (248/10).

7- رواه ابن الأعرابي في الزهد (47)، وأبو نعيم في الحلية (274/9).

وقال: ليس الزاهد مَن ألقى هموم الدنيا، واستراح منها، إنما الزاهد مَن زهد في الدنيا، وتعب فيها للآخرة[1].

فالزهد في الدنيا يُراد به تفريغ القلب من الاشتغال بها؛ ليتفرَّغ لِطلب الله، ومعرفته، والقرب منه، والأُنس به، والشوقِ إلى لقائه، وهذه الأمور ليست من الدنيا، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "حُبِّب إليَّ من دنياكم: النساء والطيب، وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة"[2]. ولم يجعل الصلاة ممَّا حُبِّب إليه من الدنيا، كذا في المسند والنسائي: "حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث"[3]، فأدخل الصلاة في الدنيا، ويشهدُ لذلك حديث: "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالما أو متعلِّما"[4]. خرَّجه ابن ماجه والترمذي وحسَّنه، من حديث أبي هريرة مرفوعا، وروى نحوه من غير وجه مرسلا ومتَّصلا[5].

وخرَّج الطبراني، من حديث أبي الدرداء مرفوعا قال: "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما ابتُغِيَ به وجه الله"[6]، وخرَّجه ابن أبي الدنيا موقوفا[7]، وخرَّجه أيضا من رواية شَهْر بن حوشب، عن عُبادة، أراه رفعه، قال: "يُؤتى بالدنيا يوم القيامة، فيقال: ميِّزوا منها ما كان لله عزَّ وجلَّ، وألقوا سائرها في النار"[8].

فالدنيا وكلُّ ما فيها ملعونة، أي: مُبْعِدة عن الله؛ لأنها تَشْغلُ عنه، إلا العلم النافع الدالَّ على الله، وعلى معرفته، وطلب قُربه ورضاه، وذكر الله وما والاه مما يقرِّب من الله، فهذا هو المقصود من الدنيا، فإن الله إنما أمر عباده بأن يتَّقوه ويطيعوه، ولازم ذلك دوام ذكره، كما قال ابن مسعود:

1- رواه أبو نعيم في الحلية (273/9)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (144/34).

2- سبق تخريجه.

3- قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (30/6): وليس بمحفوظ بهذا فإن الصلاة ليست من أمور الدنيا وأنما هي من أهم شؤون الآخرة. قال المناوي في فيض القدير (489/3): من زاد كالزمخشري والقاضي- لفظ ثلاث- فقد وهم.

4- رواه الترمذي (2322)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (4112)، كلاهما في في الزهد، والبيهقي في الشعب باب طلب العلم (1708)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1609)، عن أبي هريرة.

5- رواه الطبراني في الأوسط (4072)، عن أبي مسعود الأنصاري.

6- رواه الطبراني في مسند الشاميين (612)، وقال الهيثمي (381/10): فيه خداش بن المهاجر، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (24/1)، رواه الطبراني بإسناد لا بأس به، وقال الألباني: حسن لغيره، صحيح الترغيب (3/1).

7- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (185).

8- رواه ابن أبي الدنيا في في ذم الدنيا (6).

"تقوى الله حقَّ تقواه أن يُذكر فلا يُنسى"[1]، وإنما شرع الله إقام الصلاة لذكره، وكذلك الحجَّ والطواف. وأفضل أهل العبادات أكثرُهم ذكرا لله فيها، فهذا كلُّه ليس من الدنيا المذمومة، وهو المقصود من إيجاد الدنيا وأهلها، كما قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات:56][2] انتهى.

1- رواه ابن جرير في جامع البيان (7536)، والطبراني (92/9)، وأبو نعيم في الحلية (238/7)، وقال الهيثمي في المجمع (48/7): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح والآخر ضعيف.

2- جامع العلوم والحكم لابن رجب (196/2-199).

عقبات في طريق الزهد

ما الذي يمنع الإنسان المسلم من الزهد في الدنيا، ويجعله مشغولا بزخارفها وزينتها ومتاعها الأدنى، وينسى الآخرة التي هي دار البقاء والخلود؟

إنا ننظر إلى الناس في الدنيا، فنراهم فيها راغبين, وإليها جانحين, وعليها مكبِّين، وعلى حطامها متنافسين، بل متسابقين، وعن الآخرة غافلين، ما سرُّ هذا؟ وما العوائق أو العقبات التي تحُول بين المُكلَّفين، وبين الإقبال على الآخرة الباقية، والزهد في الدنيا الفانية؟

الحقُّ أن هناك عقبات شتَّى في هذا الطريق، يجب على مُريد الآخرة أن يعرفها، ليجتهد في تجاوزها والتغلُّب عليها.

1. الغفلة:

أول هذه العوائق والعقبات هو: الغفلة التي تصيب بعض الناس، فتتعطَّل عقولهم عن الفَهم، وحواسُّهم عن الإدارك، وكأنهم مخدَّرون! فهم في غفلة عن (الله) جلَّ شأنه، وهو الذي خلقهم ورزقهم, وأسبغ عليهم نِعمه ظاهرة وباطنة.

وهم في غفلة عن (الموت) هاذم اللذات، الذي يتنظرهم، وهو أصدق غائب ينتظر، وسواء طال العمر أم قصُر، فإن الموت آتٍ لا محالة، لا بدَّ من يوم يقال فيه: فلان مات! فيصبح مجرَّد خبر يذاع في الناس، كما قال الشاعر[1]:

حكم المنية في البرية جارٍ ما هذه الدنيا بدار قرار!

بينا يُرى الإنسان فيها مُخبِرًا حتى يُرى خبرًا من الأخبار

ثم الغفلة عما بعد الموت، والموت أشدُّ ما قبله، وأهون ما بعده، فبعد الموت يكون القبر، يوضع المرء في حفرة من تراب الأرض، متر في مترين أو أقل، يدخل المرء هذه الحفرة وحده، ليس معه أهل ولا مال، ولا أنيس له إلا عمله.

وقد كان عثمان رضي الله عنه، إذا رأى القبر اشتدَّ بكاؤه حتى تبلَّ دموعُه لحيته. فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكي مثل هذا البكاء! فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "القبر أول منازل الآخرة"[1].

1- من شعر أبي الحسن علي بن محمد التهامي في مطلع مرثيته الشهيرة لولده.

وبعد القبر هناك البعث وأهوال يوم القيامة، من الموقف والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وكما يقول الشاعر:

ولو أنا إذا متنا تُركنا لكان الموت راحة كلِّ حيّ

ولكنَّا إذا متنا بُعثنا لنسأل بعدها عن كلِّ شيٍّ[2]

والغفلة عن مصاير الغابرين من حولنا، ومن قبلنا, ممَّن نعرفهم ونحبُّهم، ومَن لا نعرفهم، وكذلك مصاير الأمم من قبلنا، ممن أثاروا الأرض وعمروها، تمتَّعوا فيها سنين، **{ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ}** [الشعراء:206، 207].

هذه (الغفلة) تمثِّل حجابًا كثيفًا تحول دون رؤية الحياة الدنيا على حقيقتها، فهي تصغِّر أمر الآخرة، وتُعظِّم أمر الدنيا، وتبعِّد الأمر القريب، وتقرِّب الأمر البعيد، وبهذا تلتبس الأمور، وتتغبَّش الرؤية، ولهذا ذمَّ القرآن الغفلة، وجعلها وراء كلِّ شرّ، يقول تعالى: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}** [الأعراف:179].

وقال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [يونس:7، 8].

ولا غَرْو أن وجَّه الله تعالى رسوله، فقال: **{وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}** [الأعراف:205]، وقال: **{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** [الكهف:28].

والمطلوب من السالك في منازل السائرين في الطريق إلى الله: أن يستبدل بالغفلة (اليقظة)، أعني يقظة القلب وبصيرته، بحيث يُزيح الغفلة عنه، لينتبه إلى ما يجب الانتباه إليه من ذكر الله والدار الآخرة.

ولا يُغْني عن هذه اليقظة: تحصيل العلوم والمعارف، التي تزيد خبرته بالحياة الدنيا، وكيفية الاستمتاع بما فيها، وهو ليس مذمومًا ما دام في الحدود المشروعة، ولكنه لا يبصِّره بالغاية التي خُلق لها، والرسالة التي يجب أن يؤدِّيها. ولهذا لا يكفي هنا هذا العلم وحده، لأنه علم بـ(ظاهر

1- رواه أحمد (454)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي (2308)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (4267)، كلاهما في الزهد، والحاكم في الرقائق (330/4)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الجنائز (56/4)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (2564)، عن عثمان بن عفان.

2- ينسب إلي علي بن أبي طالب.

الحياة الدنيا) كما قال تعالى: **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}** [الروم:6، 7].

2. طول الأمل:

ومن العوائق والعقبات في طريق الزهد، والإقبال على الآخرة: (طول الأمل).

ومعنى طول الأمل: أن يعيش المرء في الدنيا وكأنه مُخلَّد فيها، يستبعد الموت، فلا يكاد يخطر له على بال. وإذا كان ينسب إلى بعض الصحابة قولهم: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا[1]. فأهل الدنيا يأخذون بالشقِّ الأول من هذه الوصية، ولا يذكرون الشقَّ الثاني منها.

روَوا عن الزاهد المعروف مالك بن دينار قال: أربعة من عَلَم (علامة) الشقاوة: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا[2].

ولهذا قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار[3]!

المهم في هذا المقام أن تكون الآخرة أكبر همِّه، وأن يتذكَّر أنه في هذه الدنيا ضيف مصيره إلى الرحيل، ولهذا كانت وصية الرسول صلى الله عليه وسلم: "كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[4].

ومن هنا ذكر القرآن عن سيدنا يوسف، وقد مكَّنه الله في الأرض، وأصبح عزيزها والمُتصرِّف الأول فيها، وقد جمع الله شمله بأبويه وإخوته، حين استقبلهم وقال: **{ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ}** [يوسف:99]، ثم ذكر القرآن مناجاته لربِّه: **{رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}** [يوسف:101]، يعني تعبير الرؤى.

1- رواه الحارث في مسنده (1093) البغية، وابن قتيبة في غريب الحديث (286/1)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، موقوفا. ولا يصح رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم، وللمحدث السيد أحمد بن الصدِّيق الغماري رسالة أسماها: "سبل الهدى في إبطال حديث اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا" أبطل فيه الحديث سندا ومتنا، وإن كان الشطر الثاني فيه، تؤيده الحاديث الكثيرة الصحيحة.

2- رواه ابن الأعرابي في الزهد (71).

3- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (234)، في خطبة طويلة.

4- رواه البخاري في الرقاق (6416)، عن ابن عمر.

فها هو يوسف يفسِّر رؤيا الملك، وفي تفسيره وضع خطة لخمسة عشر عامًا للخروج بمصر وما حولها من أزمة المجاعة بسلام، ومع هذا يقول: **{تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}**.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يُخطِّط للقيام برسالته، ولتأسيس دولته، كما خطَّط للهجرة وللغزوات المختلفة، ومع هذا كان لا يشغله عن ربِّه شيء، ولا يلهيه عن الآخرة أمر، بل كان محياه ومماته لله، كما علَّمه الله أن يقول: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** [الأنعام:162، 163].

إنَّ الأمل مطلوب لكلِّ حيٍّ، لكي تستمرَّ الحياة، ويقوم المجتمع، وتعمر الأرض، ولولا الأمل ما غرس غارس غرسا، ولا بنى بانٍ بنيانًا, ولا فكَّر أحد في خطَّة لغد, وخصوصًا إذا نظرنا إلى الأمر في إطار أمة صاحبة رسالة.

وفي عصرنا أصبحت هناك دراسات مستقبلية، وأصبح استشراف المستقبل، والتخطيط للمستقبل، جزءًا من البناء الحضاري للأمم، حتى تستطيع أن تعيش، وأن يكون لها دور في عالم يتقدَّم ويتطوَّر من يوم لآخر، وقد تقارب وتقارب حتى أصبح كقرية صغيرة، فمَن عاش ليومه، وأغفل غده, داسته أقدام الأقوياء، الذين يعملون ويخطِّطون.

هذا ما نؤكِّده بالنظر إلى الأمة، بل هو ما ينبغي للفرد المسلم ألا يغفل عنه، ولا يطرحه وراء ظهره، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبس – يدَّخر – لأهله قوت سنة[1].

والناس في عصرنا يخطِّطون لحياتهم، بحيث يتمُّ أحدهم مراحل تعليمه، من الابتدائي إلى الجامعة. ثم يفكِّر أحدهم كيف يتزوَّج، ثم كيف يبني لنفسه وأهله مسكنا يعيش فيه. وإذا كان من الأذكياء والنوابغ، فإنه يفكِّر في الدراسات العليا. وأعتقد أن التفكير في مثل هذه الأمور ليس ممنوعا شرعا, بل هو مطلوب للمسلم المعاصر. فما المقصود من (طول الأمل)، والمقصود من مقابله (قصر الأمل) إذن؟

ونقول هنا بكلِّ وضوح: إن سياسة الأمم تقوم على طول الأمل، وهو ما أشار إليه القرآن، حين قال عن هزيمة الروم أمام الفرس: **{وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ}** [الروم:3، 4]، أي: أن الدنيا دُوَل, والأمم لا يُحكم على مستقبلها بخسارة معركة. وقد علم الله أنهم سيَغلبون,

---

1– متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (5357)، ومسلم في الجهاد (1757)، بلفظ: عن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم.

بعد أن غُلبوا, في حدود بضع سنين. وقال تعالى معزّيا للمؤمنين بعد غزوة أحد، التي فقدوا فيها سبعين شهيدا: **{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}** [آل عمران:140]، فبيَّن هذه السنة من سنن الله، تداول الأيام بين الناس، فالدهر يومان: يوم عليك، ويوم لك. وكم من مهزوم انتصر، وكم من مغلوب غلب، وإن مع اليوم غدا، وإن غدا لناظره قريب.

وقال في أول البعثة في سورة المزمّل، في تعليل تخفيفه عن الصحابة فرضية قيام الليل: **{عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** [المزمل:20].

وقال أيضا في سورة القمر وهي مكية: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}** [القمر:45]، إشارة إلى ما سيحدث للمشركين من هزيمة في بدر وغيرها.

ولكن الكلام هنا في تربية الأفراد تربية إيمانية ربانية، فهنا يلزم الفرد أن يوازن بين ما يجب عمله، لتحقيق مطالبه المشروعة لتحسين حياته وحياة مَن يعولهم، وواجبه نحو آخرته، وما يجب أن يقوم به للإعداد لآخرته، التي هي دار القرار، وإليها المنتهى، والفوز فيها هو الفوز الحقيقي، **{فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}** [آل عمران:185]، وهذا يقتضيه ألا يستبعد الموت، بل يذكره أبدا، ويقصر أمله في الدنيا، كما قال الشاعر:

تزوَّد من التقوى فإنك لا تدري | إذا جَنَّ الليل هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من سليم مات من غير علَّة | وكم من سقيم عاش حينا من الدهر!

ولهذا جاء عن غير واحد من السلف تفسير الزهد بأنه: قِصَر الأمل.

قال الإمام الحارث المحاسبي في رسالة المسترشدين: وأعونُ الأخلاق على الزهد قِصَر الأمل[1].

قال ابن رجب: (ووجه هذا: أن قصر الأمل يوجب محبَّة لقاء الله، بالخروج من الدنيا. وطول الأمل يقتضي محبَّة البقاء فيها، فمَن قصر أمله فقد كره البقاء في الدنيا. وهذا نهاية الزهد فيها والإعراض عنها)[2].

3. سيادة القيم المادية:

1- رسالة المسترشدين ص161، ونقل العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته النفيسة على الرسالة: وجاء في نهج البلاغة (199/4) منسوبا إلى سيدنا علي رضي الله عنه: "الزهد كله بين كلمتين من القرآن: قول الله سبحانه **{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**[الحديد:23] ومن لم يأس –أي يحزن– على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه. انتهى.

2- جامع العلوم والحكم (184/2).

ومن العوائق في طريق الزهد: انتشار القِيَم المادية وسيادتها في الحياة، واتساع الثقافة الدنيوية، التي لا تكاد ترى لله مكانا، ولا للآخرة موضعا، ولا للرُّوح موقعا في حياتنا.

هذه الثقافة التي يشبُّ عليها الصغير، ويَهْرَم عليها الكبير، وتغرس في عقول الجميع وفي قلوبهم: التعلُّق بالدنيا, واعتبار المال هو كلُّ شيء، لا يقوَّم الناس بالإيمان، ولا بالعلم، ولا بالأخلاق، ولا بالإنجاز، ولكن بما يملكون من متاع الدنيا.

فقيمة ربِّ الألف ألفٌ وزِدْ تزدْ　　　　وقيمة ربِّ الدرهم الفرد درهم!

فالدنيا هي أكبر همِّهم، ومبلغ علمهم، ومدار اهتمامهم، ومحور تفكيرهم. إليها يركضون، وعليها يحرصون، ولها يجمعون، وفي سبيلها يتزاحمون ويتنافسون، بل يتصارعون ويتقاتلون. من أجلها يعادي الأخ أخاه، والابن أباه، ويَجْفو القريب قريبه، ويبيع الصديق صديقه، بل قد يبيع أهله ووطنه ودينه. وهي (الفتن) التي حذَّر الحديث الصحيح منها، ومن خطرها، "فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا"[1].

1- رواه مسلم في الإيمان (118)، وأحمد (8030)، والترمذي في الفتن (2195)، عن أبي هريرة.

تحذير النبى صلى الله عليه وسلم من الدنيا:

إنها الدنيا التي حذَّر النبي الكريم الأمة من فتنتها، حين قال: "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم"[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: "إن مما أخاف عليكم بعدي، ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها"[2].

وعنه، أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء"[3].

المراد باتقاء الدنيا:

واتقاء الدنيا هنا – مثل اتقاء النساء – المراد به: التنبُّه لفتنتها، والحذر من إغرائها وزخرفها، وليس اعتزالها، إذ لا تبتُّل ولا رهبانية في الإسلام.

وعن أنس: أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"[4].

التحذير من فتنة المال:

ويحذِّر النبي صلى الله عليه وسلم أمَّته من أعظم فتنة في الدنيا، وهي فتنة المال الذي أغوى الكثيرين حبُّه والحرصُ عليه، فأصمَّهم وأعمى أبصارهم، وفي هذا يقول: "إن لكلِّ أمة فتنة، وفتنة أمتي المال"[5].

1- متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (3158)، ومسلم في الزهد والرقائق (2961)، كما رواه أحمد (17234)، والترمذي في صفة القيامة (2462)، والنسائي في الكبرى كتاب السير (8713)، وابن ماجه في الفتن (3997)، عن عمرو بن عوف الأنصاري.

2- متفق عليه: رواه البخاري (1465)، ومسلم (1052)، كلاهما في الزكاة، كما رواه أحمد (11157)، والنسائي في الزكاة (2581).

3- رواه مسلم في الرقاق (2742)، وأحمد (11035)، والترمذي (2191)، وابن ماجه (4000)، كلاهما في الفتن، والنسائي في الكبري في عشرة النساء (9224).

4- متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (3795)، ومسلم في الجهاد (1805)، كما رواه أحمد (12757)، والترمذي (3856)، والنسائي في الكبرى (8256)، كلاهما في المناقب.

5- رواه أحمد (17461)، وقال مخرجوه: حديث صحيح، والترمذي في الزهد (2336)، وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى كتاب الرقائق (11795)، وابن حبان في الزكاة (3223)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، والحاكم في الرقاق (318/4)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (3911)، عن كعب بن عياض.

المراد بفتنة المال:

وفتنة المال ليست في جمعه وكسبه من وجوهه المشروعة، إنما هي في حبّه حبًّا جما يلهيه عن طاعة الله، والحرص عليه حرصا يجعله لا يبالي أن يكسبه من غير حلِّه، وينفقه في غير محلّه، ويبخل به عن حقِّه، والشرُّ كلُّه من هذا نبع. وهذا ما حذَّر منه الحديث: "ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه"[1]، يعني بالشرف: الجاه والمنزلة.

الثروة التي لا تنفد والكنوز التي لا تفنى:

من أجل ذلك يعلِّم الإسلام أبناءه: أن المال ليس هو كلُّ شيء في الحياة، بحيث يحصر الإنسان كلَّ همّه فيه، وكلَّ سعيه له، وكلَّ حماسه ونشاطه في طلبه وجمعه، بحيث لا يَدَع في عقله وقلبه مكانا للرغائب الكبيرة، والمثل العليا، التي يجب أن ترنو إليها الأبصار، وتشرئب نحوها الأعناق.

إن المُثُل الأخلاقية العليا، والقِيَم الروحية الرفيعة، من الإيمان والعمل الصالح والخلق الكريم، هي الثروة التي لا تنفد، والكنوز التي لا تفنى، والباقيات الصالحات على مرّ الأعوام والأعصار، ولهذا يوجِّه القرآن إليها همم المؤمنين وآمالهم، بمثل قوله تعالى: **{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}** [الكهف:46]، وقوله: **{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ}** [القصص:60]، وقوله في قصة قارون: **{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}** [القصص:79، 80]، وقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: **{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [طه:131]، فرزق ربِّه هنا ليس هو الموعود به في الجنة فحسب، بل ما أنعم الله به عليه في الدنيا من معاني الإيمان، ومنازل التقوى، ومكارم الأخلاق، وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم، في دار الخلود، ويقول تعالى: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ**

1- رواه أحمد (15784)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الزهد (2376)، وقال: حسن صحيح، وابن حبان في الزكاة (3228)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (10557)، عن كعب بن مالك.

أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران:14،15][1].

4. **افتقاد القدوة:**

ومن العقبات في سبيل الزهد: افتقاد (القدوة). أعني الإنسان الصالح، الذي يقتبس الناس منه معنى الزهد، يأخذونه من حاله قبل مقاله، ومن سلوكه قبل دعاويه، وقد قيل: حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل.

المَثَل الأعلى في الزهد:

لهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم، أُسوة للمؤمنين بأخلاقه وأفعاله، قبل أن يكون معلِّما لهم بأقواله. قال تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}** [الأحزاب:21].

وسُنَّة محمد عليه الصلاة والسلام، تتضمَّن أقواله وأفعاله وتقريراته. وأفعاله عليه السلام هي التي تمثِّل الجانب العملي، الذي هو موضع الأسوة والاقتداء. وقد كان هو المثل الأعلى في كلِّ خلق، وكلِّ قيمة إيمانية أو ربانية أو إنسانية.

وهو في الزهد إمام الأمة بلا ريب، كان أول مَن يجوع، وآخر مَن يشبع[2]، وكانت تمرُّ الأشهر ولا يوقد في بيته نار[3]، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع[4]، وكان ينام على وسادة حشوها ليف. وبكى عمر حين دخل عليه، ووجده ينام على حصير أثر في جنبه[5]، إلى آخر ما هو معروف من سيرته.

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نماذج مشرفة في الزهد:

1- انظر: كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) صـ104-107.

2- يدل على ذلك حديث أبي هريرة في شدة جوعه، وشربه وشبعه وريِّه، ثم شرب النبي صلى الله عليه وسلم بعده، وفيه: "فحمد الله وسمى وشرب الفضلة" رواه البخاري في الرقاق (6264)، وأحمد (10679)، والترمذي في صفة القيامة (2477).

3- عن عائشة قالت: إنا كنا لننظر إلي الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في بيت رسول الله نار. متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (2567)، ومسلم في الزهد (2972).

4- عن جابر قال: لما كان يوم الخندق نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدته قد وضع حجرا بينه وبين إزاره، يقيم به صلبه من الجوع. رواه أبو يعلي (2004)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا على ضعف في إسماعيل بن عبد الملك (566/10).

5- عن ابن عباس قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر عن آية ... وإنه لعلى حصير، ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مصبوبا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت ..." متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4913)، ومسلم في الطلاق (1479).

وبعده كان في أصحابه نماذج مشرقة، ممَّن سار على دربه في الإعراض عن متاع الدنيا، والإقبال على الآخرة، منهم أبو بكر وعمر وعلي وأبو ذر وسلمان وأبو الدرداء والمقداد، وغيرهم من الصحابة الكرام، وجمهورهم كان من أهل الآخرة. ولهذا هان عليهم أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

وهؤلاء الصحابة هم الذين هدى الله بهم الأمم إلى الإسلام، فلم يكونوا كالفاتحين الذين إذا انتصروا على بلد استحلُّوها، ونهبوا كنوزها، واغتصبوا نساءها، وعاشوا – أو عاثوا – في نعيم أهلها. بل كانوا زُهَّادا في الدنيا، متحرِّين لحلالها، خائفين من حرامها.

يقول ابن مسعود لأصحابه: أنتم أكثر صوما وصلاة وجهادا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم! وهم كانوا خيرا منكم! قالوا: كيف ذلك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب منكم في الآخرة[1].

وقال عمرو بن العاص فاتح مصر لأصحابه: ما أبعد هديكم من هدي نبيكم صلى الله عليه وسلم، إنه كان أزهد الناس في الدنيا، وأنتم أرغب الناس فيها[2].

ولا يوجد في أصحاب نبي من الأنبياء مثل أصحاب محمد، في بذلهم وجهادهم وزهدهم في حطام الدنيا.

وسنتحدَّث في خواتيم هذا الكتاب عن عدد من النماذج الورعة الزاهدة، منهم من الصحابة عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

1- رواه ابن أبي شيبة في الزهد (35692)، والحاكم في المستدرك في الرقاق (315/4)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10636).

2- رواه أحمد (17810)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وابن عساكر في المعجم (1619)، وصححه.

تلاميذ الصحابة من التابعين:

وبعد الصحابة كان تلاميذهم الذين اتَّبعوهم بإحسان، والذين قال القرآن عنهم: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ}** [التوبة:100].

وكان من هؤلاء أئمة الهدى، ومصابيح الدُّجى، ساروا على نهج شيوخهم من الصحابة.

وفي كلِّ عصر كان يوجد من هؤلاء المُربِّين الربانيين مَن يُقتدى به فيُهتدى، مَن إذا رأيتَه ذكرتَ الآخرة، وإذا سمعتَه ذكرتَ الله، وإذا عايشتَه زهدتَ في الدنيا.

أثر صحبة الزاهدين:

وصحبة هؤلاء، والتتلمذ على أيديهم، والتأسِّي بسلوكهم هي المدرسة الحقيقية لتعلُّم الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة. ولا يُغني عن ذلك كتاب يُقرأ، أو شريط يُسمع أو يُرى. وإن لم يخلُ ذلك من أثر، ولا سيما إذا كان مؤلف الكتاب أو المتحدِّث بالشريط، ممَّن يرجون الله والدار الآخرة، ويخافون يوم الحساب، فإن من المعروف أن تأثير الحال أقوى من تأثير المقال، وإنما يؤثِّر أهل الزهد بأحوالهم لا بأقوالهم.

استمرار الخير في هذه الأمة:

ولا ريب أن هؤلاء المُربِّين والربانيين موجودون في دنيانا، ولا يُخْلي اللهُ الأرض من بعضهم، فهم أوتاد الأرض ودعائمها. سنة الله الذي يبقي أبدا في هذه الأمة طائفة تقوم على الحقِّ، لا يضرُّها مَن خالفها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وهم الذين يسمِّيهم العلماء (الطائفة المنصورة)، وفيهم وفي فضلهم استفاضت الأحاديث[1]، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: **{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** [الأعراف:181].

ولكن يطغى على هؤلاء الربانيين مع قلَّتهم: صَخَب عشَّاق الدنيا، وعبيد الظهور والأضواء، وغيرهم ممَّن **{اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}** [البقرة:16]، الذين **{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}** [الروم:7].

طوائف أهل الدنيا الغافلون عن الآخرة:

عدَّد الإمام الغزالي في (الإحياء) طوائف الناس في العالم ومواقفهم من الدنيا، الذين تفاوتت وجهاتهم، فانقسموا إلى طوائف شتَّى:

1- منها ما رواه البخاري في المناقب (3641)، ومسلم في الإمارة (1037)، عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم مَن خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس". واللفظ لمسلم.

1. فطائفة غلبهم الجهل والغفلة، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم، فقالوا: المقصود أن نعيش أياما في الدنيا، فنجتهد حتى نكسب القوت، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكلَ فيأكلون ليكسبوا, ثم يكسبون ليأكلوا! وهذا مذهب الفلاَّحين والمحترفين، ومَن ليس له تنعُّم في الدنيا، ولا قدم في الدين, فإنه يتعب نهارا ليأكل ليلا, ويأكل ليلا ليتعب نهارا، وذلك كسَيْر السَّوَاني[1]، فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.

2. وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطَّنوا الأمر, وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل, ولا يتنعَّم في الدنيا, بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا, وهي شهوة البطن والفرج, فهؤلاء نسوا أنفسهم, وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان, وجمع لذائذ الأطعمة, يأكلون كما تأكل الأنعام, ويظنُّون أنهم إذا نالوا ذلك, فقد أدركوا غاية السعادة, فشغلهم ذلك عن الله تعالى, وعن اليوم الآخر.

3. وطائفة ظنُّوا أن السعادة في كثرة المال, والاستغناء بكثرة الكنوز, فأسهروا ليلهم, وأتعبوا نهارهم، في الجمع. فهم يتعبون في الأسفار, طول الليل والنهار, ويتردَّدون في الأعمال الشاقة, ويكتسبون ويجمعون، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة, شحًّا وبخلا عليها أن تنقص. وهذه لذَّتهم, وفي ذلك دأبهم وحركتهم, إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض, أو يظفر به مَن يأكله في الشهوات واللذات, فيكون للجامع تعبه ووباله, وللآكل لذَّته, ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

4. وطائفة ظنُّوا أن السعادة في حسن الاسم، وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمُّل والمروءة, فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش, ويضيِّقون على أنفسهم في المطعم والمشرب, ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة, والدواب النفيسة, ويزخرفون أبواب الدور, وما يقع عليه أبصار الناس, حتى يُقال: إنه غني, وإنه ذو ثروة. ويظنُّون أن ذلك هو السعادة, فهمَّتهم في نهارهم وليلهم في تعهُّد موقع نظر الناس.

5. وطائفة أخرى ظنُّوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس, وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير, فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة, لطلب الولايات, وتقلُّد الأعمال السلطانية, لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس, ويرون أنهم إذا اتَّسعت ولايتهم, وانقادت لهم رعاياهم, فقد

1- السواني جمع سانية، وهي الناقة التي يسقى عليها وفي المثل: سير السَّوَاني سفر لا ينقطع. مختار الصحاح صـ326.

سعدوا سعادة عظيمة, وأن ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس, فهؤلاء شغلهم حبُّ تواضع الناس لهم عن التواضع لله، وعن عبادته، وعن التفكُّر في آخرتهم ومعادهم.

6. ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، تزيد على نَيِّف وسبعين فرقة, كلُّهم قد ضلُّوا وأضلُّوا عن سواء السبيل. وإنما جرَّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن, ونسَوا ما تُراد له هذه الأمور الثلاثة, والقدر الذي يكفي منها, وانجرَّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها, وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها. فمَن عرَف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال, وعرَف غاية المقصود منها, فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل, إلا وهو عالم بمقصوده, وعالم بحظِّه ونصيبه منه, وأن غاية مقصوده تعهُّد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك. وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه، وفرغ القلب, وغلب عليه ذكر الآخرة, وانصرفت الهمَّة إلى الاستعداد لها. وإن تعدَّى به قدرَ الضرورة كثرت الأشغال, وتداعى البعض إلى البعض, وتسلسل إلى غير نهاية, فتتشعَّب به الهموم, ومَن تشعَّبت به الهموم في أودية الدنيا, فلا يبالي الله في أيِّ واد أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا.

7. وتنبَّه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا, فحسدهم الشيطان, ولم يتركهم, وأضلَّهم في الإعراض أيضا حتى انقسموا إلى طوائف:

أ- فظنَّت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة, والآخرة دار سعادة لكلِّ مَن وصل إليها, سواء تعبَّد في الدنيا أو لم يتعبَّد, فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا. وإليه ذهب طوائف من العبَّاد من أهل الهند, فهم يتهجَّمون على النار, ويقتلون أنفسهم بالإحراق, ويظنُّون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا!

ب- وظنَّت طائفة أخرى أن القتل لا يخلِّص, بل لا بد أولا من إماتة الصفات البشرية, وقطعها عن النفس بالكلية, وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب, ثم أقبلوا على المجاهدة, وشدَّدوا على أنفسهم, حتى هلك بعضهم بشدَّة الرياضة, وبعضهم فسد عقله وجُنَّ, وبعضهم مرض وانسدَّ عليه الطريق في العبادة, وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية, فظنَّ أن ما كلَّفه الشرع محال, وأن الشرع تلبيس لا أصل له, فوقع في الإلحاد. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كلُّه لله, وأن الله تعالى مستغنٍ عن عبادة العباد, لا ينقصه عصيان عاصٍ, ولا تزيده عبادة متعبِّد فعادوا إلى

الشهوات, وسلكوا مسلك الإباحة, وطوَوا بساط الشرع والأحكام, وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغنٍ عن عبادة العباد.

ج- وظنَّ طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى, فإذا حصلت المعرفة فقد وصل, وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة, فتركوا السعي والعبادة, وزعموا أنه ارتفع محلَّهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف, وإنما التكليف على عوامِّ الخلق.

د- ووراء هذا مذاهب باطلة, وضلالات هائلة, يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيِّفا وسبعين فرقة. وإنما الناجي منها فرقة واحدة, وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه, وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية, ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد, وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل, ولا يتَّبع كلَّ شهوة, ولا يترك كلَّ شهوة, بل يتَّبع العدل, ولا يترك كلّ شيء من الدنيا, ولا يطلب كلَّ شيء من الدنيا, بل يعلم مقصود كلِّ ما خُلق من الدنيا, ويحفظه على حدِّ مقصوده, فيأخذ من القوت ما يقوِّي به البدن على العبادة, ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحرِّ والبرد, ومن الكسوة كذلك, حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن, أقبل على الله تعالى بكُنْه همَّته, واشتغل بالذكر والفكر طول العمر, وبقي ملازما لسياسة الشهوات ومراقبا لها, حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى.

ولا يُعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة, فإنه عليه السلام لما قال: الناجي منها واحدة قالوا: يا رسول الله، ومَن هي؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي"[1].

وقد كانوا على النهج القصد, وعلى السبيل الواضح, الذي فصَّلناه من قبل, فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا, بل للدين, وما كانوا يترهَّبون ويهجرون الدنيا بالكلية, وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط, بل كان أمرهم بين ذلك قواما, وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين, وهو أحبُّ الأمور إلى الله تعالى. والله أعلم[2].

1- انظر تخريج الحديث والكلام عليه في كتابنا (الصحوة بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) صـ34، طبعة دار الشروق.

2- إحياء علوم الدين، ربع المهلكات، كتاب ذم الدنيا (3/230-228)، طبعة دار المعرفة، بيروت.

بواعث الزهد

إذا عرَفنا العوائق التي تقف في طريق الزهد في الدنيا، فأعتقد أن هذا ييسِّر علينا معرفة البواعث التي تحفز على الزهد في الدنيا, والإقبال على الآخرة. فكلُّ ما هو عائق أو عقبة في طريق الزهد يكون عكسه وضدُّه باعثا على الزهد.

ومعنى هذا, أنه إذا كان من العقبات الغفلة عن الموت، يكون عكسه هو ذكر الموت، وكذلك الغفلة عن الآخرة يكون عكسه كذلك استحضار الآخرة، وهكذا كلُّ العقبات.

وعلى هذا الأساس نتحدَّث عن البواعث المؤدِّية إلى الزهد في الدنيا.

1. ذكر الموت:

وأول هذه البواعث القوية والمؤثِّرة في الإغراء بالزهد، هو (ذكر الموت). فإذا كان من عوائق الزهد: طول الأمل في الدنيا، فلا غرو أن يكون من بواعث الزهد فيها، هو تذكُّر الموت دائما، وعدم نسيان المصير الحتمي، الذي ينتظر كلَّ حيٍّ، فهذا مما يقصِّر أمله، ويجعله يعيش في الدنيا بقلب أهل الآخرة، ويعيش في الدنيا كأنه غريب، أو عابر سبيل، كما نصحه الرسول الكريم.

ومن هنا كان الإرشاد النبوي للأمة: "أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت"[1].

كيف ننتفع بذكر الموت؟

ولكي ننتفع بذكر الموت، يجب أن نذكر هنا عدَّة حقائق عن الموت:

الأولى: شمول الموت وعمومه، فهو نهاية كلِّ حيٍّ، أيًّا كانت منزلته الدينية أو الدنيوية، وفي هذا يقول القرآن: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}** [العنكبوت:57].

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران:185].

ويخاطب الله تعالى خاتم رسله محمدا، فيقول: **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}** [الزمر:30].

ويقول: **{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ* كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}** [الأنبياء:34، 35].

1- رواه أحمد (7925)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي في الزهد (2307)، وقال: حسن غريب، والنسائي في الجنائز (1824)، وابن ماجه في الزهد (4258)، وابن حبان في الجنائز (2992)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (2090)، والحاكم في الرقاق (321/4)، وصححه ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

وفي الحديث الشريف: "عِش ما شئتَ فإنك ميت، وأحبب مَن شئتَ فإنك مفارقه، واعمل ما شئتَ فإنك مجزيٌّ عنه"[1].

الثانية: أن الموت يأتي بعد أجل مسمًّى للإنسان، لا يزيد ولا ينقص، فهو مسجَّل عند الله في كتاب لا تغيير فيه ولا تبديل، كما قال تعالى: **{وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** [فاطر:11]، ومعنى **{يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ}**، أي: يموت في شبابه قبل أن يعمَّر. وعند انتهاء أجله يموت لا محالة، لا يملك أحد أن يستأخرعن أجله ساعة, أي: لحظة، كما لا يستقدم عن أجله لحظة، كما قال تعالى: **{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}** [الأعراف:34]، وهذه الآية وإن جاءت في شأن الأمم، فهي أيضا تنطبق على الأفراد؛ لأن القدر الذي يجري على الأمم، هو نفسه الذي يجري على الأفراد، وسنن الله في الجميع واحدة. يؤكِّد هذا قوله تعالى: **{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}** [المنافقون:11].

الثالثة: أن الموت إذا جاء الأجل لا يمكن الفرار منه بحيلة من الحيل، ولو أمكن ذلك، لاستطاع الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والتبابعة, وملوك العرب والعجم أن يتحصَّنوا من الموت أو يهربوا منه، ولكنهم جميعا خضعوا لحكمه، ودانوا لقهره، وفي هذا يقول القرآن: **{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}** [النساء:78]، كما قال القرآن في مخاطبة اليهود: **{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ}** [الجمعة:8].

وقد ذكر ابن عبد ربه في (العقد الفريد)، أن وباءً نزل ببعض الأعراب، وبدأ يحصد منهم جماعة، فعزم أحد الشباب أن يرحل من منطقته الموبوءة إلى منطقة أخرى، لعله يسلم مما أصاب زملاءه من الأعراب، وحاول أبوه أن يمنعه من الرحيل، وأن يبقى مع قومه، يجري عليه ما يجري عليهم، فلم يستجب لدعوة أبيه. وأصرَّ على الخروج، وفعلا خرج وسافر، وفي طريقه نام تحت شجرة، فجاءت حيَّة ولدغته فمات، وعلم أبوه بما وقع له، فأنشد يقول:

راح يبغي نجوة — من هلاك فهلك

والمنايا راصدات — للفتى حيث سلك

كلُّ شيء قاتل — حين تلقى أجلك[2]

1- رواه الحاكم في الرقائق (324/4)، وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في الأوسط (4278)، وقال الهيثمي في المجمع (374/10): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (73)، عن سهل بن سعد.

2- العقد الفريد (261/3).

2. الاعتبار بمصاير أهل الدنيا:

ومن البواعث على الزهد: الاعتبار بمصاير أهل الدنيا، عشَّاق الدنيا، عبَّاد الدنيا، الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يفكروا في أمر الآخرة.

لقد ذكر لنا القرآن نماذج من عبَّاد الدنيا وسدنتها، الذين رضُوا بالحياة الدنيا، واطمأنُّوا بها، وركنوا إليها، وعاشوا كأنهم مخلَّدون فيها، يرفلون في النعيم، ويمرحون في الزينة، ويتمتَّعون بالجاه، ويبغون على الضعفاء، ولا يرون لأحد حقًّا فيما بأيديهم من مال، فالمال مالهم وحدهم، جمعوه بكدِّهم وذكائهم، ونمَّوه بعبقريتهم وحسن إدارتهم، وليس لأحد فيه حقٌّ يطالبون به من أحد من الناس. فكيف كانت عاقبة هؤلاء؟ وإلام انتهى أمرهم؟

قصة قارون:

نختار قصة من قصص القرآن تتحدَّث عن نموذج يُضرب به المثل في الغنى والثروة، وهو قارون الذي آتاه الله من (الكنوز) ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، فإذا كانت مفاتيح الأبواب التي تضمُّ مجموع الكنوز النفيسة التي يملكها قارون تنوء بالعصبة أولي القوة، وتضعف عن حملها، فما بالك بالكنوز نفسها؟

لنقرأ القصة كما ذكرها القرآن: {**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**} [القصص:76 – 83].

وقفات ونظرات في قصة قارون:

ولنا في هذه القصة وقفات تستحقُّ النظر والاعتبار:

أولاها: أن الرجل لم يبع آخرته بدنياه فقط، بل باع قومه، وبغى عليهم، وانضمَّ إلى عدوهم فرعون، فكان هو وهامان ذراعين له: هذا من الناحية الاقتصادية، وهامان من الناحية السياسية،

فاجتمع ثالوث الطغيان والفساد: الملكية المتألِّهة المتكبِّرة، والرأسمالية المتعجرفة المتجبِّرة، والمهارة السياسية التي تضع نفسها في خدمة الفرعونية والقارونية.

<u>ثانيتها:</u> أن قوم قارون – وهم قوم موسى – نصحوه بخمس نصائح مهمَّة، يجب أن تكون مصابيح مضيئة لكلِّ ذي ثروة, وهي:

أ- عدم الفرح، ومعنى الفرح هنا: البَطَر والغرور بالثروة.

ب- ابتغاء الدار الآخرة بالمال الذي آتاه الله، فلا يكون كلُّ همّه الدنيا.

ج- وليس معنى ابتغاء الآخرة أن يحرم نفسه من طيبات الدنيا، بل لا ينسى نصيبه من الدنيا.

د- أن يُحسن إلى غيره كما أحسن الله إليه، ففي هذا المال حقٌّ لله الذي آتاه إياه، وحقٌّ للمجتمع الذي ساهم في تكوين هذه الثروة بصورة أو بأخرى.

هـ- ألا يتَّخذ الثروة الكبيرة التي بيديه وسيلة للإفساد في الأرض، بشراء الذمم، وإشاعة الفاحشة، وجحد حقوق الفقراء، والتعاون مع الأقوياء على الإثم والعدوان.

ولكن قارون لم ينتصح، ولم يأبه لما قاله قومه، وقال في زهو وكِبر: **{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}!** فلم يعترف بفضل الله تعالى، ولا بفضل المجتمع عليه.

<u>وثالثتها:</u> أن قارون أراد أن يستعرض قوَّته وسلطانه، **{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ}**، في موكب يبهر الأبصار، ويُغري الطامعين، ويرهب المناوئين، وهنا قال الذين يقيسون الأمور بمظاهرها: **{يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**، وردَّ عليهم أولو البصائر الذين لا يخدعهم السراب: أن ما عند الله للصالحين خير وأبقى مما عند قارون.

<u>ورابعتها:</u> هو المشهد الأخير، وهو ما أنزله القدر بدنيا قارون، وهو أن خسف الله به وبداره الأرض، فلم تُغنِ عنه كنوزه، ولا مَن حوله من الأتباع والمطبِّلين. وهنا تجلَّت الحقيقة للذين خُدعوا بالأمس، وتمنَّوا أن يكون لهم مثل ما أُوتي قارون، حين عرَفوا أن العاقبة للمتقين، وأنه لا يفلح الكافرون بالله، وبنعم الله، وبحقوق عباده.

وهنا جاء التعليق القرآني على القصة بهذه الآية: **{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** [القصص:83]، فالمفلحون عند الله حقًّا ليسوا أصحاب الملايين ولا البلايين، ولكنهم المخلصون الصادقون، الذين صحَّت نيَّاتهم، وسَمَت أهدافهم، واستقامت أهدافهم، فلا يريدون علوًّا في الأرض كالملوك، ولا فسادا كاللصوص وقطَّاع الطريق.

نماذج من مصاير الذين غرتهم الدنيا:

هذا وقد ذكر القرآن مصاير عدد من هؤلاء الذين غرَّتهم الحياة الدنيا، ونسوا ما عند الله، وبغَوا على الضعفاء من الناس، فأخذهم الله أخذًا أليمًا شديدًا، مثل صاحب الجنتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم، ومثل الذين كذَّبوا رسل الله, واغترُّوا بدنياهم, فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر, كما قال تعالى: **{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** [العنكبوت:40].

3. استحضار الآخرة:

وإذا كانت الغفلة عن الآخرة وأهوالها من الآفات العائقة عن الزهد في الدنيا، فقد تبيَّن لنا – بحكم التقابل – أن استحضار معاني الآخرة وما يتَّصل بها من البواعث المهمَّة التي تدعو إلى الزهد في الدنيا، وإيثار الآخرة عليها.

ومَن يقرأ القرآن الكريم والسنة النبوية، يجد أن النصوص المتكاثرة من آيات القرآن، ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تتحدَّث عن الآخرة، وتذكِّر بها، وبما فيها من هول الحشر، وطول الموقف، وشدَّة الحساب، وقراءة الكتاب، ودقَّة الميزان، تملأ القلب يقينا بأن لا نجاة يوم القيامة، إلا لمَن كانت الآخرة محور تفكيره وإرادته، وغاية سعيه وجهده، ولم تكن الدنيا أكبر همّه ولا مبلغ علمه.

يقول تعالى: **{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ}** [البقرة:281].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شيئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [لقمان:33].

وهذا المعنى تصوّره سورة أخرى تقول: **{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}** [عبس:34–37].

ويصوِّر ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بحديثه الذي روته عائشة زوجه: "يحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلا". قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض[1]، **{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}** [عبس:37]".

وانظر إلى قوله تعالى: **{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ*الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ*وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ*أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ*لِيَوْمٍ عَظِيمٍ*يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [المطففين:1–6].

وفي موضع آخر يقول تعالى مبيّنا طول الموقف يوم القيامة: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** [المعارج:4].

1– متفق عليه: رواه البخاري الرقاق (6527)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (2859)، كما رواه أحمد (24265)، والنسائي في الجنائز (2084)، وابن ماجه الزهد (4276)، عن عائشة.

وفي وضع الكتاب يقول تعالى: {**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**} [الكهف:49].

{**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا**} [الإسراء:13].

وتحدَّث القرآن عن الميزان وموقف الناس منه: {**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**} [الأنبياء:47].

{**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ*فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**} [المؤمنون:101، 102].

محكمة العدل الإلهية:

وهكذا نرى في هذا اليوم (محكمة عادلة) تقوم على محاكمة كلِّ مكلَّف وفق (كتابه)، الذي سُجِّلت فيه أعماله كلُّها، خيرا وشرًّا، وسرًّا وجهرا، {**هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**} [الجاثية:29], {**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**} [الزخرف:80].

كما يقوم على (الميزان) الذي تُوزن به أعمال المكلَّف، حسناتها وسيئاتها، فلا تُظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبَّة من خردل لا تضيع، بل يأتي الله بها، فلا يخاف أحد ظلما ولا هضما.

وشهود الإنسان عليه من داخله: {**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**} [النور:24], {**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**} [يس:65]، {**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**} [غافر:17].

فإذا كانت الدنيا دارا تضيع فيها الحقوق، ويفلت منها الظالمون من العقاب، ويُحرم كثيرون – من الأخيار الصالحين – من ثمرات صلاحهم، فلا يجزَون إلا شرًّا، ففي الدار الآخرة يأخذ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه, {**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**} [الزلزلة:7، 8].

وفي الآخرة يتجلَّى عدل الله تعالى وحكمته، فلا يسوِّي بين برٍّ وفاجر، وعادل وظالم، وخيِّر وشرِّير، وهذا هو الباطل الذي يتنزَّه الله أن يُوصف به، {**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**} [ص:27، 28].

ولهذا كان الذين يتصوَّرون الوجود الإنساني ينتهي بالموت، يجهلون أو يجحدون أن هناك عدلا إلهيًّا يقوم على إثابة المحسن وعقوبة المسيء، وهذه هي الحكمة من وجود الدار الآخرة، **{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}** [النجم:31].

ولولا ذلك لكان من حقِّ الناس أن يسألوا: أين خالق هذا العالم ومدبِّر أمره؟ لماذا ترك الجبابرة والأشرار يفسدون في الأرض, ويقتلون ويظلمون, ولا ينالون جزاءهم؟ ولماذا ترك الأبرار والشهداء والمظلومين يعملون الخير، ولا يلقون إلا الشرَّ في حياتهم؟

تكامل حلقات الوجود الإنساني:

لقد كانت الآخرة هي المجال لتصفية الحساب، وعقوبة الذين أفلتوا في الدنيا من يد العدل في الأرض، ومثوبة الذين حُرموا في الدنيا من أيِّ جزاء على ما قدَّموا من خير، **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ*وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [الجاثية:21، 22]، **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}** [النساء:40]، وبهذا تتكامل حلقات الوجود الإنساني، حَلْقة بعد حلقة: وجوده الجنيني قبل أن يُولد، ووجوده الدنيوي بعد أن يُولد إلى أن يموت، ووجوده البرزخي في القبر إلى أن يُبعث، ووجوده الأخروي بعد البعث ليُحاسب، ويواجه مصيره إلى الجنة أو النار.

مراحل الوجود الإنساني:

وهذه المراحل حدَّثنا عنها القرآن بالتفصيل في سورة (المؤمنون) حين قال: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ*ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ*ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ*ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}** [المؤمنون:12–16].

ولخَّصت سورة عبس هذه المراحل والحَلْقات، فقالت: **{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ*مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ*ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ*ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ*ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ}** [عبس:17–22].

أثر استحضار الآخرة:

فمَن استحضر هذه المعاني المتعلّقة بالآخرة، وجعلها نُصب عينيه، وبصَّر بها عقله، وذكَّر بها نفسه، كان جديرًا أن يُبادر إلى الصالحات، وأن يكفَّ عن السيئات، وأن يبذل الخير لعباد الله ما استطاع، كما حدَّثنا الله تعالى عن الأبرار بقوله: **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}** [الإنسان:7 – 10]. هذا الخوف من هذا اليوم العبوس دفعهم إلى البذل والإحسان وإطعام الطعام – على حبِّه – لهؤلاء الضعفاء من الناس، من المسكين واليتيم والأسير.

ويصف الله روَّاد مساجده بقوله: **{رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}** [النور:37].

ويخاطب الله رسوله، فيقول: **{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ*مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}** [الأنعام:15، 16].

4. معرفة قيمة الدنيا:

ومن أهم البواعث على الزهد: أن يعرف الإنسان قيمة الدنيا، هذه الدنيا التي يتهافت عليها الناس تهافت الذباب، ويتهاوشون من أجلها تهاوش الذئاب، الدنيا التي في سبيلها يعقُّ الابن أباه، ويخاصم الأخ أخاه، ويعادي الصديق صديقه، ويبيع المرء أهله ووطنه، ويضحِّي بعض الناس بدينه، ويتقاتل في سبيلها أهل البلد الواحد، والدين الواحد، والمصير الواحد. هذه الدنيا ما قيمتها الحقيقية؟ وهل تستحقُّ كلَّ هذا التطاحن والتعادي والصراع؟

الواقع أن هذه الدنيا عند التأمُّل لا تستحقُّ أبدا هذا كلَّه، فهي أقلُّ شأنا، وأهون قدرا، وأوضع مقاما، من أن يسفك من أجلها قطرة دم واحدة، أو يضحَّي من أجلها بشيء من الدين أو الوطن أو الأسرة أو الأمة.

صفات الدنيا الأساسية:

فهذه الدنيا عند تحليلها نجدها موصوفة بهذه الصفات الأساسية، كما وصفها خالقها:

أ- فهي **(متاع قليل)** كما سمَّاه الله، قال تعالى في ذمِّ قوم: **{وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}** [الرعد:26]، فيصفها الله بأنها (متاع)، وكلمة (متاع) نفسها تفيد خسَّتها، لأن المتاع ما يُعَد للمسافر، وإنما يُعَد للمسافر الشيء الهيِّن اللائق بالسفر وضروراته. ثم هو نكَّرها حين قال: (متاع)، والتنكير يفيد التحقير، كأنه قال: متاع حقير. وقال تعالى: **{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}** [النساء:77]،

وفي سورة أخرى قال: **{أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}** [التوبة:38]، وقلَّتها تتجلَّى بالنظر إلى أمور ثلاثة:

أولها: بالنسبة إلى الكون، فإذا كانت الدنيا هي الأرض وما عليها، فإن الأرض بالنسبة إلى الكون الكبير شيء ضئيل ضئيل، فهي جزء صغير من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية جزء ضئيل من المجرَّة التي تعيش فيها، ومجرَّتنا واحدة من ملايين من المجَّرات الموجودة في الفضاء الكوني.

ثانيها: هي متاع قليل، بالنسبة لما يأخذه الإنسان منها، فهو - وإن ملك الملايين أو البلايين - لا يستطيع أن يأكل أكثر من ملء معِدته، ومعدته شبر في شبر أو أقل. فأغنى الأغنياء من الناس، وأفقر الفقراء في هذا سواء. وربما حُرم الغني من كثير من الأطعمة، نتيجة لما يعانيه من أمراض، عوفي منها المساكين ومحدودو الدخل.

ثالثها: هي متاع قليل بالنسبة لمدَّة بقاء الإنسان فيها، فما قيمة عمر الإنسان بالنسبة لعمر الأرض أو الكون؟ ونحن نرى الجيولوجيين والبيولوجيين وغيرهم يقدِّرونها بالملايين ومئات الملايين وآلاف الملايين؟! ثم هي عن قريب محكوم عليها بالفناء، كما قال تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا}** [الكهف:7، 8]. وهذا الفناء يمكن أن يحدث في أيِّ وقت، كما قال تعالى: **{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [النحل:77]، وقال تعالى عن الساعة: **{لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}** [الأعراف:187].

ب- وهي متاع زائل؛ لأن عمر الإنسان فيها محدود، ثم يَدَع كلَّ شيء ويرحل، فإن لم تزُل عنه الدنيا، فهو لا محالة زائل عنها. فإن الموت آت، طال عمر الإنسان أو قصُر، وهو أمر مقدَّر على كلِّ حيٍّ، شرب كأسه الأنبياء والصديقون، كما شربه العصاة والفاسقون، قال تعالى لرسوله: **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}** [الزمر:30]، وقال: **{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ}** [الأنبياء:34].

وكذلك ورد حوضه الملوك والأباطرة والمستكبرون، كما ذاقه العوام والمحكومون. عندما حضرت الوفاة هارون الرشيد، أعظم ملوك الأرض في زمنه، كان يناجي ربه ويقول: **{مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}** [الحاقة:28، 29][1]!

وكان ابنه الخليفة المأمون يقول عند اقتراب موته: يا مَن لا يزول ملكه، أرحم مَن زال ملكه[2]!

وقال تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}** [آل عمران:185].

وقال الشاعر:

وإذا كان آخر العمر موتا ... فسواء قصيره والطويل

ومهما يطُل عمر المرءِ في الدنيا، فعند الموت ينكمش العمر المديد، ويقصر الزمن الطويل، ويمسي وكأنه لحظات قصار، ولذا يتمنَّى الإنسان عند احتضاره لو يمهل بعض الوقت، حتى يستدرك بعض ما فاته من العمل الصالح، وهيهات.

1- ذكره عبد الحق الاشبيلي في العاقبة في ذكر الموت صـ128.

2- ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام (239/15).

قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**} [المنافقون:9-11].

وقد قيل أن نوحا عليه السلام، حينما أتاه ملك الموت ليقبض رُوحه بعد أكثر من ألف سنة، فسأله: يا أطول الأنبياء عمرا، كيف وجدتَ الدنيا؟ قال: وجدتُها كدار لها بابان، دخلتُ من أحدهما، وخرجتُ من الآخر[1]!

ولأنها متاع زائل شُبِّهت بحلم النائم، وبالظلِّ السريع الزوال، كما قال الشاعر:

أحلام نوم أو كظلٍّ زائل		إن اللبيب بمثلها لا يُخدع[2]!

كما شبَّهها القرآن بالزرع الأخضر الذي سرعان ما يذوي ويصبح هشيما تذروه الرياح، كما قال تعالى: {**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**} [الحديد:20].

سرعة التقلُّب:

ج- ومن أوصاف الدنيا التي عرَفها بها الناس: سرعة التقلُّب من حال إلى حال، من يُسر إلى عسر، ومن غنى إلى فقر، ومن عزٍّ إلى ذلٍّ، ومن صحَّة إلى سقم، ومن شباب إلى هَرَم، ومن نصر إلى هزيمة، ومن كثرة إلى قلَّة، ومن حياة إلى موت، ومن عمران إلى خراب.

وكلُّ امرئ معرَّض في كلِّ يوم إلى نعمة زائلة، أو بليَّة نازلة، أو منيَّة قاتلة، أو فقد حبيب، أو حرمان نصيب، أو جفاء قريب، أو علاج طبيب، أو هجوم مشيب، أو حدوث أمر غريب.

ومن هنا قالوا: الزمان قُلَّب. وقالوا: الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك. وقالوا: دوام الحال من المحال. وقال الله تعالى: {**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**} [آل عمران:140].

وقال الشاعر:

إنما الدنيا هِبَات		وعَوَارٍ مستردَّة

شدَّة بعد رخاء		ورخاء بعد شدَّة[1]

1- رواه ابن عساكر في تاريخه (275/62)، عن سفيان بن عيينة.

2- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (23)، عن الحسن البصري.

وقال آخر:

يا خاطب الدنيا الدنيَّة إنها دار الرَّدى وقرارة الأكدار

دار إذا ما أضحكت في يومها أبكت غدا، تبًّا لها من دار[2]!

وقالت بنت النعمان بن المنذر، بعد زوال ملك أبيها، وباتت تسأل الناس ما يكفيها:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتكفَّف!

فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلَّب ساعات بنا وتصرَّف

ويقول شاعر آخر:

دع المقادير تجري في أعنَّتها ولا تبيتنَّ إلا خالي البال

يوما تريش خسيس الحال ترفعه إلى السماك ويوما تخفض العالي[3]

ويقول أبو البقاء الرَّندي – في قصيدته الشهيرة – في رثائه لآخر مدينة سقطت في الأندلس:

لكلِّ شئ إذا ما تمَّ نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتُها دُول مَن سرَّه زمن ساءته أزمان!

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين عاد وشدَّاد وقحطان؟

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟

أتي على الكلِّ أمر لا مردَّ له حتى قَضَوْا فكأنَّ القوم ما كانوا!

حذر الزاهدين من غرور الدنيا:

من أجل هذا، حرص العقلاء على الحذر من غرور الدنيا، وأن يتَّخذوها مزرعة الآخرة، ولا يعيشوا فيها كأنهم مخلَّدون.

قال يحيى بن معاذ الرازي: العقلاء ثلاثة: مَن ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه[4].

وقال بكر بن عبد الله: مَن أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا، كان كمطفئ النار بالتبن[5]!

1- من شعر أبي العتاهية.

2- من شعر الحريري.

3- تنسب إلي الواثق بالله.

4- رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (68/10)، والبيهقي في الزهد الكبير صـ198.

5- رواه الدينوري في المجالسة (548).

وقال يزيد بن ميسرة: كان أصحابنا يسمُّون الدنيا خنزيرة، فيقولون: إليك عني يا خنزيرة! فلو وجدوا لها اسما أقبح من هذا لسمَّوها به[1].

وقال الحسن البصري: أدركتُ أقواما، وصحبتُ طوائف، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب! فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم. وكانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها لهم، فلم يزالوا على ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب، ولا نجَوا إلا بالمغفرة[2].

1- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (347)، والبيهقي في الزهد الكبير صـ139.

2- رواه الإمام أحمد في الزهد صـ285.

دار عناء ومتاعب:

د- وهي مع ذلك، دار عناء ومتاعب. قال أحدهم لسيدنا علي رضي الله عنه: صِف لنا الدنيا. فقال: وماذا أصف لك من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء[1]؟!

يريد بقوله: أولها بكاء: أن الطفل أول ما ينزل من بطن أمه يبكي. وقد عبَّر عن ذلك أحد الشعراء فقال:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد[2]!

وأما أن أوسطها عناء: فلأنها مبنيَّة على الابتلاء الذي قام عليه أمر الإنسان، كما قال تعالى: **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}** [الإنسان:2]، وقال تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}** [البلد:4]، أي: في مكابدة للمشقَّات طوال حياته منذ وُلد، وإلى أن يموت.

فهو يكابد منذ طفولته الآلام والأوجاع، وبعد ذلك يكابد طلب الرزق، ومزاحمة الخلق، ومتاعب التعلُّم، ومقاساته من أهل الدنيا ومكايدهم وعداواتهم، حتى قال أحد الصالحين: زهَّدني في الدنيا: قلَّة غنائها، وكثرة عنائها، وسرعة فنائها، وخسَّة شركائها! وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء، لا دار استواء، ودار تَرَح، لا دار فرح، مَن عرفها لم يفرح برجاء، ولم يحزن على شقاء[3].

ولهذا شبَّهها الحكماء والأدباء بجيفة الميتة التي يتنافس على لحمها الكلاب.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: قال علماؤنا: أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذاقمط قماطا، وشد رباطا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الاولاد، والخدم والاجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الاضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الاذن.

1- رواه القالي في الأمالي في لغة العرب (122/2).

2- من شعر ابن الرومي.

3- قوت القلوب لأبي طالب المكي (442/1).

ويكابد محنا في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مسألة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار، قال الله تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}** [البلد:4]، فلو كان الامر إليه لما اختار هذه الشدائد.

ودل هذا على أن له خالقا دبَّره، وقضى عليه بهذه الاحوال، فليمتثل أمره[1].

ومن خصائص الدنيا: أن لذَّاتها ممزوجة بالآلام، وخيراتها مخلوطة بالشرور، وعافيتها محفوفة بالبلاء من كلِّ جانب، لا تدوم على حال، ولهذا وصفوها بالغدر. يقول الشاعر:

هي الدنيا تقول بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرركمو مني ابتسام فقولي مضحك والفعل مبكي[2]

ولكثرة متاعب الدنيا وآلامها، يقول العامة عنها: الدنيا أشغال شاقَّة، ونهايتها الإعدام!

وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرُّك، إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يسوءك[3]!

وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، وأنه لم يدرك ما أمَّل، وأنه لم يحسن الزاد لما يقدم عليه[4].

بل تجد متاعب الدنيا تلاحق الإنسان حتى بعد موته. قيل لابن عمر: أن زيد بن جارية مات وترك مائة ألف، فقال: لكنها لا تتركه[5]! يعني أنه سيحاسب عليها.

1- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (293/22)

2- من شعر أبي الفرج الكاتب.

3- رواه الدينوري في المجالسة (1399)، وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (263)، وأبو نعيم في الحلية (239/3).

4- رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (275)، وأبو نعيم في الحلية (272/6).

5- رواه ابن أبي شيبة في الزهد (35791)، وابن الأعرابي في الزهد (118)، والطبراني (224/5)، وأبو نعيم في الحلية (306/1)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (10678)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (172/31)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (205/3)، وعند ابن أبي شيبة وابن الأعرابي وأبي نعيم والبيهقي والهيثمي: زيد بن حارثة. وهو تصحيف، والصواب زيد بن جارية كما في المعجم الكبير، والإصابة (595/2).

نسبة الدنيا إلى الآخرة:

ومن المهم هنا لكي نعرف الدنيا على حقيقتها، ولا يخدعنا سرابها، ويغرُّنا ظاهر نضرتها: أن نقيسها إلى ضَرَّتها الآخرة، فبضدِّها تتميَّز الأشياء. فكم تكون نسبة الدنيا إذا قارناها بالآخرة؟

القرآن يقول: **{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}** [التوبة:38].

متاع الدنيا قليل بالنسبة للزمان:

هي قليل بالنسبة إلى الزمان، إذ لا قيمة لمدَّة الدنيا – مهما طالت – بالنسبة إلى الخلود، أو قُل: إلى الأبد.

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ، فلينظر: بم يرجع؟"[1]. إذا أدخل الإنسان أصبعه في البحر أو في المحيط ثم أخرجه، فما قيمة ما علق بأصبعه من ماء بالنسبة لما في البحر أو المحيط؟!

وروى أبو سعيد بن الأعرابي في كتابه (الزهد) بسنده، عن عمر أنه قال: والله لكأن الدنيا في الآخرة كنَفْجَة أرنب[2]! أي: كوثبته من مَجْثَمه. يريد تقليل مدَّتها. وكأن المعنى: ما مقدار الدنيا بالنسبة إلى الآخرة – من ناحية الزمن – إلا كالزمن القليل الذي يأخذه الأرنب حين ينتقض من مكان لآخر!

هذا بالنسبة إلى الزمان.

متاع الدنيا قليل بالنسبة للمكان والمساحة:

أما بالنسبة إلى المكان والمساحة، فقد قال تعالى: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}** [الحديد:21]، **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** [آل عمران:133]، فإذا كان هذا هو عرضها، فكم يكون طولها؟

وقد ورد أن آخر مَن يدخل الجنة يُعطى مثل أعظم ملوك الدنيا عدَّة مرات، فما بالك مَن يدخلها من السابقين المقرَّبين؟ ففي الحديث: "سأل موسى ربه فقال: يا ربِّ، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي ربِّ، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أَخَذَاتهم؟ فيقال له: ألا ترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربِّ. فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة:

1- سبق تخريجه.

2- رواه ابن الأعرابي في الزهد (119)، وابن أبي شيبة في باب الزهد (35616).

رضيتُ ربِّ. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك. فيقول: رضيتُ ربِّ. قال: ربِّ فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدى، وختمتُ عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر"[1].

ولو قارنا نعيم الدنيا بنعيم الجنة، لرأينا الدنيا وكأنها لا شيء، وقد قال تعالى: **{يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [الزخرف:71]، وفي الحديث الصحيح الذي يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربِّه عز وجل: "قال تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، إقرأوا إن شئتم: **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [السجدة:17]"[2].

وإذا كانت هذه نسبة الدنيا إلى الآخرة، فأي الدارين نُؤثر، وأيهما نرجِّح؟ وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: مثل الدنيا والآخرة كمثل الضَّرَّتين، إذا أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى، وكمثل المشرق والمغرب، إذا اقتربتَ من أحدهما ابتعدتَ عن الآخر، وككِفَّتي الميزان، إذا رجَّحت إحداهما خفَّت الأخرى[3].

لا شكَّ أن الآخرة عند التعارض أولى بالإيثار والترجيح.

1- رواه ومسلم في الإيمان (189)، والترمذي في تفسير القرآن (3198)، عن المغيرة بن شعبة.

2- متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (3244)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (2824)، كما رواه أحمد (9649)، والترمذي في تفسير القرآن (3197)، وابن ماجه في الزهد (4328)، عن أبي هريرة.

3- إحياء علوم الدين (60/1).

ليس من متطلَّبات الزهد

يجب علينا هنا: أن نكشف عن أمور يعدها بعض الناس – أو بعض المتصوفة – من أساسيات الزهد، ولكنها – في ميزان الإسلام – ليست من حقيقة الزهد الذي يحبه الله، ولا من ضروراته. وسنذكر هنا جملة أشياء مما يتصور أنها تنافي الزهد، وهي لا تنافيه، مثل الزواج وحب النساء والبنين، وامتلاك المال، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. وسنخص كلا منها بحديث مختصر.

1- ليس من الزهد الإعراض عن الزواج:

وليس مما ينافي الزهد في الدنيا: أن يتزوَّج المسلم, بل هو من الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، التي أباحها الله لعباده، ومن أهمِّها (الزواج)، الذي امتنَّ الله به في كتابه, وجعله آية من آياته، فقال تعالى: **{وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** [الروم:21].

وفي سورة النحل – وهي التي تسمَّى سورة النعم – ذكره الله تعالى في معرض الامتنان على عباده، فقال: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً}** [النحل:72].

وخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً}** [الرعد:39].

وقال عن الزوجات: **{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}** [البقرة:187]، ثم قال: **{فَالْآَنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}** [البقرة:187].

وكان للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، تسع نساء توفي عنهنَّ، ونزلت فيهنَّ آيات من كتاب الله.

وحثَّ القرآن على الزواج, فقال: **{فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ}** [النساء:3].

كما حث المجتمع على التزويج فقال: **{وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** [النور:32].

ولم يعتبر الغريزة الجنسية رجسا ولا نزغة من الشيطان, بل ربما كان إشباعها بالحلال عبادة إذا صحَّت النية. وأباح الاستمتاع بالنساء إلا في حالة الحيض: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ}** [البقرة:222].

{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [البقرة:223].

بل شرع الإفضاء إلى النساء ولو في ليالي الصيام, كما قال تعالى:**{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}** [البقرة:187]، بما توحي به كلمة (اللباس) من اللصوق والستر والزينة والدفء.

وقال عليه الصلاة والسلام: "حبِّب إليَّ من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرَّة عيني في الصلاة"[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوَّج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء"[2].

وقال: "الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا، المرأة الصالحة"[3].

وقال: "تنكح المرأة لأربع: لحسبها ولجمالها ولمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"[4]، وقال: "أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء"[5].

ولما سأل بعض الصحابة الرسولَ عليه الصلاة والسلام، أن يأذن لهم في التبتُّل (أي الترهُّب) أو الخصاء، أبى عليهم ذلك[6].

وذهب ثلاثة من الصحابة يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، زوجاته فكأنهم تقالُّوها قالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدهما: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال الآخر: إني أصوم الدهر أبدا، ولا أُفطر. وقال

1- سبق تخريجه.

2- سبق تخريجه.

3- سبق تخريجه.

4- متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (5090)، ومسلم في الرضاع (1466)، كما رواه أحمد (9521)، وأبو داود (2047)، والنسائي (3230)، وابن ماجه (1858)، ثلاثتهم في النكاح، عن أبي هريرة.

5- رواه ابن حبان في النكاح (4032)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2576)، عن سعد بن أبي وقاص.

6- عن سعد بن أبي وقاص، رد رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا. متفق عليه: رواه البخاري (5073)، ومسلم (1402)، كلاهما في النكاح، كما رواه أحمد (1514)، والترمذي (1083)، والنسائي (3212)، وابن ماجه (1848)، ثلاثتهم في النكاح.

الآخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوَّج أبدا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قُلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوَّج النساء فمَن رغب عن سنتي فليس مني"[1]. رواه البخاري، عن سعيد بن أبي مريم، وأخرجه مسلم من حديث ثابت، عن أنس.

وجاءت أحاديث نبوية صحيحة تنصح الأزواج أن يحسنوا الاستمتاع بما أحلَّ الله لهم, ولا يكون كلُّ همِّ الرجل أن يقضي شهوته, ويريح نفسه, دون نظر إلى شريكته, وأن عليه أن يبذل جهدا في الاستمتاع بأهله, وفي إمتاعهم أيضا, ولذا قال عليه الصلاة والسلام: عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا غشي الرجل أهله فليصدقها فإن قضى حاجته ولم تقض حاجتها فلا يعجلها[2].

وبهذا عُلم: أن لا رهبانية في الإسلام.

ولهذا لا تجد في الصحابة مَن أعرض عن الزواج وترهَّب، وانقطع للعبادة، بل نجد كثيرا منهم تزوَّج أكثر من واحدة، مثل عمر بن الخطاب, ومثل علي بن أبي طالب, الذي كان عنده أربع نسوة, غير الجواري, وكان الحسن بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثر الناس محبَّة للنساء, وكان يتزوَّج ويطلِّق. وخصوصا أن المجتمع كان مجتمع جهاد وقتال في سبيل الله. وكان كثير الشهداء في سبيل الله، وهؤلاء الشهداء تركوا أرامل من بعدهم، تزوَّجها رفقاؤهم وإخوانهم من الصحابة، ليرعونهن ويرعوا أولادهنَّ، ليكون لهم أجر كافل اليتيم.

1- متفق عليه: رواه البخاري (5063)، ومسلم (1401)، كلاهما في النكاح، كما رواه أحمد (13534)، والنسائي في النكاح (3217)، عن أنس بن مالك.

2- رواه عبد الرزاق في النكاح (10468)، عن أنس.

خطر الانشغال بالزوجة والأولاد عن حق الله تعالى:

فليس الخطر في الزواج, بل الخطر في الانشغال بالمرأة والأولاد عن حقّ الله تعالى وطاعته, وعند ذلك يكونوا أعداء للمؤمن إذا شغلوه عن ربِّه, كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}** [التغابن:14].

وقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [المنافقون:9].

تخيير النبي صلى الله عليه وسلم نساءه:

وكان للرسول الكريم هدي في معاملة النساء, أشار إليه القرآن حين اجتمع نساءه وطالبنه بالمزيد من النفقة, وقد أصبح سيد الجزيرة, فلماذا هذه الحياة المتقشِّفة يحيينها, فهجرهن عليه الصلاة والسلام, حتى نزلت آيات (التخيير) في سورة الأحزاب: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا,وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآَخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا}** [الأحزاب:28-29].

وحين قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم عليهن الآيات - بدءا بعائشة - اخترن جميعا الله ورسوله والدار الآخرة[1].

هديه صلى الله عليه وسلم في بيته ومع نسائه:

وذكر ابن القيم في (زاد المعاد) هديه عليه الصلاة والسلام، في بيته ومع نسائه, فقال: (وكانت سيرته مع أزواجه حسن المعاشرة، وحسن الخلق.

وكان يسرِّب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها[2]. وكان إذا هويت شيئًا لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه، فوضع فمه في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرَّقت عِرْقا - وهو العظم الذي عليه لحم - أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتَّكئ في حجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها، وربما كانت حائضا، وكان يأمرها وهي حائض فتتَّزر ثم يباشرها، وكان يقبِّلها وهو صائم، وكان من لطفه وحسن خلقه مع أهله أنه يمكِّنها من اللعب، ويريها الحبشة

1- حديث طويل متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (5191)، ومسلم في الطلاق (1479).

2- عن عائشة قالت: كنتُ ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمَّعن منه، فيسربهن إليَّ فيلعبن معي. رواه البخاري في الأدب (6130).

وهم يلعبون في مسجده، وهي متّكئة على منكبيه تنظر، وسابقها في السفر على الأقدام مرَّتين، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرَّة.

ولقد روت لنا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي صغر سنها، وحصها على اللهو.

وقد استمع إليها وهي تحكي مواقف الاثنتى عشرة من أزواجهن، وكل امرأة منها لها موقف، ولها حديث عن زوجها، وهو ما يعرف بـ(حديث أم زرع).

وكان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيَّتهن خرج سهمها خرج بها معه، ولم يقضِ للبواقي شيئًا، وإلى هذا ذهب الجمهور.

وكان يقول: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"[1].

وربما مدَّ يده إلى بعض نسائه في حضرة باقيهن، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه، فدنا منهن واستقرأ أحوالهن، فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبة النوبة، فخصَّها بالليل. وقالت عائشة: كان لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندهن في القَسْم، وقلَّ يوم إلا كان يطوف علينا جميعا، فيدنو من كلِّ امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ التي هو في نوبتها فيبيت عندها[2])[3].

الموقف من المرأة:

يتمِّم الأمر موقف الإسلام من المرأة، وبالتالي موقف المسلم (الزاهد) من المرأة. ولا نتحدَّث هنا عن مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وحقوقها الأدبية والاجتماعية والسياسية، وكيف رفع الإسلام شأنها، وجعل لها مثل ما للرجل بالمعروف؟

وإنما نتحدَّث عنها باعتبارها نعمة من نعم هذه الدنيا، وطيِّبة من طيِّبات هذه الحياة، ماذا كان موقف الإسلام منها؟

قد يثِب إلى الذهن لأول وهلة هذه الأحاديث التي نسمعها من ألسن الوعاظ والخطباء، ونطالعها في كتب المرشدين والمتصوفين، مثل: "ما تركتُ بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء"[4]، "اتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[1].

1- رواه الترمذي في المناقب (3895)، وقال: حسن صحيح، والدارمي في النكاح (2260)،

2- رواه أحمد (24765)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف ابن أبي الزناد قد تفرد به وهو مما لا يحتمل تفرده، وأبو داود في النكاح (2135)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (1852): حسن صحيح، والحاكم في الطهارة (186/2)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

3- زاد المعاد لابن القيم (1/153-150).

4- سبق تخريجه.

ولكن مهلا فقد شاءت حكمة الله أن يكون دينه العظيم – خاتم الأديان – وسطا في كلِّ شئ، وأن يكون المؤمنون به أمة وسطا.

فتنة شعوب ومذاهب بجسد المرأة:

فهناك شعوب وأمم، وفلسفات ومذاهب فتنت بالمرأة، وشُغفت بجسدها، وجعلت أدبها وفنها، ونثرها وشعرها، وصحافتها ومسرحها وخيَّالتها تدور حول محور واحد، هو جسد المرأة، وخصرها النحيل، وقدِّها الأسيل، وطرفها الكحيل، وشعرها الناعم، ونهديها البارز، وغير ذلك من تفاصيل جسدها، وفي ذلك ما فيه من فتنة وإغراء، ينبئ عن فساد وانحطاط وضياع.

لقد قام مزدك في فارس في أوائل القرن السادس الميلادي فدعا إلى إباحة النساء والأموال، وكان من جرَّاء ذلك ما كان من انتشار الفساد، وانحطاط البلاد، واختلاط الأنساب. ولم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده، ولا المولود أباه. وها هي المدنية الغربية قد جعلت المرأة معبودا جديدا، فانحل عقد الأسرة، واضطرب نظام المجتمع، وتوترت الأعصاب، وكثر الفساد، وأصبح خلف كلِّ حادثة وكارثة امرأة مكشوفة أو وراء الستار، حتى قالوا: (فتش عن المرأة).

موقف رهبان المسيحية من المرأة:

وعلى نقيض هؤلاء كان رهبان المسيحية وعبَّادها في القرون الوسطى، كانوا يفرُّون من ظلِّ النساء، ويتأثَّمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق، والتحدُّث إليهن – ولو كُنَّ أمهات أو شقيقات – يحبط أعمالهم الصالحة، وجهودهم الروحية، وقد روى (ليكى) في كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا) من هذه المبكيات المضحكات شيئًا كثيرا.

1- سبق تخريجه.

موقف الإسلام من المرأة:

إما الإسلام فقرَّر أن المرأة آية من آيات الله، جعلها الله للرجل أنس نفسه، وسكن قلبه، تُشيع في جوِّه المودَّة، وتنشر الرحمة: **{وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** [الروم:21].

حظر على المسلم قصد العزوبة، والتعبُّد بها، إذ لا رهبانية في الإسلام. ورغَّب في الحياة الزوجية؛ لما فيها من تكثير النسل، وكسر شرَّة الشهوة، وإحصان النفس بالمتعة الحلال، وعمارة الكون، وتدبير المنزل، وتوسيع دائرة العشيرة. والآيات والأحاديث في ذلك شتَّى.

وأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم: أن المرأة من نعم الله الكبرى على عبده: "أربع من أُعطيهن فقد أُعطى خير الدنيا والآخرة: قلب شاكر، ولسان ذاكر، وبدن على البلاء صابر، وزوجة لا تبغيه خَوْنًا في نفسها ولا ماله"[1].

وقال: "الدنيا متاع، وخير متاعها الزوجة الصالحة"[2]، "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن أقسم عليها أبرَّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله"[3].

ولم يهمل الجمال إهمالا كاملا، بل جعل له نصيبا غير مجهول في ترجيح شريكة الحياة: "تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك"[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ النساء خير؟ فقال: "خير النساء مَن تسرُّ إذا نظر، وتطيع إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ومالها"[5].

وكانت سيرة النبي عليه السلام في ذلك قدوة حسنة فقد قال: "حُبِّب إليَّ من دنياكم: النساء والطيب"[6].

1- رواه الطبراني في الكبير (134/11)، وفي الأوسط (7212)، وأبو نعيم في الحلية (65/3)، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (4429)، عن ابن عباس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجال الأوسط رجال الصحيح (502/4).

2- سبق تخريجه.

3- رواه ابن ماجه في النكاح (1857)، والطبراني (222/8)، عن أبي أمامة، وضعف سنده العجلوني في كشف الخفا وقال: له شواهد تدل على أن له أصلا (181/2).

4- سبق تخريجه.

5- رواه النسائي في النكاح (3231)، والطيالسي (2444)، والحاكم في النكاح (161/2)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

6- سبق تخريجه.

وكان يمزح معهن، ويطيب نفوسهن، ويستمع إليهن، ويصغي إلى قصصهن وأحاديثهن وإن طالت، كما في حديث أم زرع. ويسابق عائشة فسبقته مرَّة، ثم سبقها مرَّة فقال: "هذه بتلك"[1].

لقد بالغ الإسلام في الوصية بالمرأة وحُسن برِّها أُمًّا، وحُسن تربيتها بنتا، وحُسن رعايتها زوجة.

المحذور من جهة المرأة:

أما المحذور في الإسلام فهو أمران:

الأول: أن يدع الرجل أبواب الحلال الطيّب، ويلج أبواب الحرام الخبيث، ويبحث عن خدينة تخادنه، فهذا ما حذَّر الله منه، ونهى عباده عنه: **{إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}** [الإسراء:32].

أجل! حرَّم الله الزنى، لا تضييقا على الرجل والمرأة، ولا كراهية للتمتُّع بالطيِّبات، ولكن لما فيه من أضرار جسيمة على الفرد والأسرة والمجتمع، من فقدان الغَيرة، واختلاط الانساب، وتفكُّك الروابط، وانهيار الاخلاق.

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقِم عليهم مأتما وعويلا[2]

وقد رسم رسول الله صلى اله عليه وسلم، الخطة لكلِّ شاب تائق إلى النساء: "يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوَّج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء"[3].

ولكيلا تصعب الحياة على الشاب العزب، الذي لا يجد القدرة على الزواج، أمر أن تُغلق الأبواب التي تهبُّ منها رياح الفتنة الجنسية، فحرَّم تبرُّج الجاهلية، والخلوة الشيطانية، والغزل المكشوف، والغناء الماجن، وزي الكاسيات العاريات، وكلَّ ما يهيِّج الغريزة، ويحرِّك الشهوة البهيمية.

ومن الناحية الايجابية: أزال العوائق، ويسَّر السبل للزواج المشروع، والاستمتاع الحلال، فلا ينبغى أن تقف العقبات المادية أو الاجتماعية في سبيل الزواج: "خير الصداق أيسره"[1]، "إذا جاءكم مَن ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد"[2].

1- رواه أحمد (24118)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الجهاد (2578)، وابن أبي شيبة في السير (34274)، وابن حبان في السير (4691)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والطبراني (47/23)، والبيهقي في الكبرى كتاب السبق والرمي (17/10)، عن عائشة، صححه الألباني في الصحيحة (131).

2- من شعر أحمد شوقي.

3- متفق عليه: رواه البخاري (5065)، ومسلم (1400)، كلاهما في النكاح، كما رواه أحمد (3592)، وأبو داود (2046)، والترمذي (1081)، والنسائي (3207)، وابن ماجه (1845)، أربعتهم في النكاح، عن ابن مسعود.

كلٌّ ذلك رحمة من الله بالانسان، كى يستمتع بما أحلَّ الله له، ويبتعد عما حرَّم الله، **{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}** [النساء:26–28].

الأمـر الثـانى: الذي يحذِّر منه الإسلام أن تصبح المرأة – ولو كانت حلالا طيبا – شغل الرجل الشاغل، ومعبوده المقدَّس، في سبيل القرب منها والأنس بها يضحِّي بحقِ الجماعة، ويصمُّ سمعه عن نداء الأمة، ويُشغل بها عن واجب دينه وربِّه، وتصبح أحبَّ إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وفي مثل هذه الحال يقول القرآن: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}** [التغابن:14]، وأي عدو أدهى وأضر ممَّن يلهيك عن عبادة الله، وعن إعلاء كلمة الله؟!

المؤمن الحقُّ هو الذي يحبُّ المرأة ويأنس بها، فإذا جدَّ الجدُّ، ودقَّت ساعة الخطر، ودعا داعى الجهاد، طلَّق الفراش الوثير، وفارق الوجه الجميل، وركض إلى الله، ورضي الله عن أبي خيثمة حين خرج وترك زوجتيه في غزوة تبوك.

في مثل هاتين الحالتين: الاستمتاع الحرام بالمرأة، والانشغال بها عن واجب الدين والأمة، يورد الإسلام نذره الصارخه، وتحذيراته الصارمة من فتنة النساء.

بل إن الاستمتاع بمباشرة الزوجة يجعله الإسلام عبادة إذا صحبتها النية الصالحة، التي تنقل المباحات دائما إلى طاعات وقُربات، وكان يقصد كلٌّ منهما إحصان الآخر وإعفافه عن الحرام، استجابة لأمر الله في التمتُّع بما أحلَّ لهم، فضلا عن طلب الولد وابتغاء النسل.

وقال عليه الصلاة والسلام، وهو يعلِّم أصحابه: "وفي بُضع أحدكم صدقة". قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟! قال: "أرأيتم لو وضعها في الحرام، أكان عليه وزر؟". قالوا: نعم. قال: "فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر" رواه مسلم[3].

1– رواه الحاكم في النكاح (182/2)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب الصداق (232/7)، عن عقبة بن عامر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (3279).

2– رواه الترمذي في النكاح (1084)، وقال: خولف عبد الحميد بن سليمان فرواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة مرسلا، وابن ماجه في النكاح (1967)، والحاكم في النكاح (165/2)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: عبد الحميد قال أبو داود: غير ثقة، ووثيمة لا يعرف من هو، عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (3090).

3– رواه مسلم في الزكاة (1006)، وأحمد (21473)، وابن حبان في النكاح (4167)، والبيهقي في الكبرى كتاب الزكاة (188/4)، عن أبي ذر.

وقد جعل النبي مداعبة الرجل أهله ومطايبة امرأته، طاعة تقتضي الأجر والمثوبة. قال لسعد: "إنك لتؤجر في كلِّ شيء، حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك"[1]، وهل يضع الزوج اللقمة في في زوجته إلا من باب المداعبة والمطايبة والمزاح؟

إنما ذمَّ القران مَن يجعل التمتُّع همّه ومبتغاه، فيتحوَّل من إنسان ذي عقل ورُوح إلى بهيمة ذات غريزة وشهوة فحسب، **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}** [محمد:12].

وذمَّ الذين يُسقطون الآخرة من حسابهم، فلا يَدَعون شيئًا من طيبات الدنيا – مهما كان سحتا أو حراما – إلا استمتعوا به، وهؤلاء هم الذين يُقال لهم يوم القيامة: **{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ}** [الأحقاف:20].

2- ليس من الزهد العزلة عن المجتمع:

وليس من ضرورة الزهد: العزلة عن المجتمع, والبعد عن المشاركة في أنشطته الفكرية والثقافية, والاقتصادية والاجتماعية والسياسية, إذ لا رهبانية في الإسلام, والأسوة للناس هنا هم أنبياء الله ورسله, الذين حملوا رسالة الهداية إلى البشر, فدعوهم إلى الله، فآمن بهم مَن آمن, وكفر بهم مَن كفر, ولم يزالوا على دعوتهم حتى نصرهم الله, وأخذ أعداءهم أخذا أليما شديدا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بشِعب في عيينة من ماء عذبة, فأعجبته لطيبها, فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشعب, ولن أفعل حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "لا تفعل, فإن مُقام أحدكم في سبيل الله, أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما, ألا تحبُّون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزو في سبيل الله, مَن من قاتل في سبيل الله فُوَاق ناقة وجبت له الجنة"[2].

1- متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (1295)، ومسلم في الوصية (1628)، كما رواه أحمد (1488)، وأبو داود (2864)، والترمذي (2116)، والنسائي (3626)، وابن ماجه (2708)، أربعتهم في الوصايا، عن سعد بن أبي وقاص.

2- رواه أحمد (10786)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والترمذي (1650)، وقال: حديث حسن، والحاكم (68/2)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (160/9)، عن أبي هريرة، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1301). وقد ذكرها شيخنا البهي الخولي وعلَّق عليها في كتابه (تذكرة الدعاة).

لذا رأينا من الأئمة الزهاد مَن يشارك في أنشطة الحياة المتنوِّعة, يروي الحديث ويفقِّه الأمة في الدين, ويعلِّم الجاهلين, ويفتي المستفتين, ويؤلِّف الكتب, ويجود بماله على المحتاجين, ويشارك في الجهاد والرباط مع المجاهدين والمرابطين.

وأوضح مثل لذلك: هو الإمام العلم عبد الله بن المبارك (ت181هـ), صاحب الشخصية الرحبة، التي جمعت الفضائل المتعدِّدة في رجل واحد, على نحو ما قال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد!

وقد كتب وهو في الرباط والجهاد, إلى أخيه وصديقه الزاهد العابد الشهير الفضيل بن عياض, الذي كان يتردَّد بين مكة والمدينة متنسِّكا بالطاعة والتقرُّب إلى الله جل جلاله, كتب إليه أبياتا شهيرة, قال له فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا   لعلمتَ أنك بالعبادة تلعب!

مَن كان يخضِب خدَّه بدموعه   فنحورنا بدمائنا تتخضَّب[1]

3- العمل لكسب الدنيا ليس مذموما ولا ينافي الزهد:

وليس من متطلبات الزهد أن يترك الإنسان المسلم عمله الدنيوي، ويعيش عالة على غيره، بل العمل لكسب العيش مطلوب طلبا شرعيًّا، وليس مذموما في ذاته. فإن الله تعالى منذ خلق الأرض، **{بَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}** [فصلت:10]، وجعل فيها معايش للناس، **{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}** [الأعراف:10]، وضمن لهم زرقهم فيها: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا}** [هود:5]، ولكن قضت سنَّته في خلقه: أن لا يحصل الإنسان على رزقه إلا بالمشي في مناكب الأرض، والتماسه في خباياها. لهذا أمر الله تعالى به في آيات كثيرة من القرآن. قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}** [الملك:15]، حتى يوم الجمعة – وهو العيد الأسبوعي للمسلمين – لم يطلب فيه التفرُّغ للعبادة، ولم يحرِّم العمل الدنيوي فيه كما حرَّمت اليهودية العمل في يوم السبت، بل قال تعالى: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [الجمعة:10]، أي: صلاة الجمعة.

1- تاريخ دمشق لابن عساكر (449/32)، وفي أحد ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر: أنكر أحد الدعاة الكبار نسبة هذا الشعر إلى ابن المبارك، مستبعدا أن يقول: (أنك بالعبادة تلعب). والقصة ثابتة ومشهورة، ذكرها ابن كثير في تفسيره في آخر سورة آل عمران (447/1)، طبعة الحلبي، نقلا عن ابن عساكر، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (364/8، 365).

وقال في سبب تخفيفه عن المسلمين في صلاة الليل، وإنه لم يفرضها عليهم: **{عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** [المزمل:20]، فانظر كيف قرن بين الضرب في الأرض لطلب المعيشة وبين القتال في سبيل الله. وانظر أيضا كيف أطلق على هذا العمل الدنيوي هذه العبارة الجميلة،**{يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ}** [الفتح:29].

وقد قال عمر بن الخطاب: ما جاءني أجلي في مكان – ما عدا في سبيل الله عزَّ وجل – أحبُّ إليَّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي رحلي، أطلب من فضل الله[1].

وقد أثنى القرآن على التجَّار الذين يعمرون المساجد بالصلوات، ولم تشغلهم تجارتهم ولا أموالهم، فيقول تعالى: **{رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}** [النور:37].

وحتى في الحجِّ لم يمنع التجارة فيه، قال سبحانه: **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ}** [البقرة:197]، وأثنى الله على نبيه داود بأن علَّمه صناعة الدروع من الحديد: **{وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}** [الأنبياء:10،11].

صحاح الأحاديث تنوّه بالحِرَف والأعمال الدنيوية:

وجاءت جملة من صحاح الأحاديث تنوِّه بالحِرف والأعمال الدنيوية، مثل الزراعة والصناعة والتجارة، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"[2].

"ما أكل أحد طعاما قط طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده"[3].

"التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء"[4].

الشروط التى تجعل العمل الاقتصادي عبادة لله وجهادًا فى سبيله:

1– رواه عبد الرزاق في الجامع (21018)، والبيهقي في الشعب باب التوكل بالله (1256).

2– متفق عليه: رواه البخاري في الحرث والمزارعة (2320)، ومسلم في المساقاة (1553)، كما رواه أحمد (13389)، والترمذي في الأحكام (1382)، عن أنس.

3– رواه البخاري في البيوع (2072)، وابن ماجه في التجارات (2138)، عن المقدام بن معديكرب.

4– رواه الترمذي (1209)، وقال: حديث حسن، والدارمي (2539)، والحاكم (6/2)، شاهدا وحكم عليه بالإرسال، والدارقطني في السنن (7/3)، أربعتهم في البيوع، عن أبي سعيد الخدري، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (1782).

بل يُضفي الإسلام على هذا العمل الاقتصادي لونا من القدسية، بحيث يصبح ضربا من العبادة لله، أو من الجهاد في سبيل الله. إذا تحقَّقت فيه جملة شروط:

1. أن تكون وراءه نيَّة صحيحة: أن يعفَّ نفسه عن سؤال الناس، وأن يقوم بأعباء أسرته وعياله، ويُسهم في رُقيِّ أمَّته، ويقوم بدوره في عمارة الأرض، ومساعدة أهل العَوز والحاجة من حوله. وهذه كلُّها أهداف مشروعة، يُثاب عليها مَن قصد إليها.

2. أن يؤدِّي عمله بإحسان وإتقان كما يحبُّ الله تعالى، فقد قال رسوله: "إن الله كتب الإحسان على كلِّ شيء"[1]، والإحسان هو إحكام العمل وإتقانه، ومعنى (كتبه)، أي: فرضه فرضيَّة مؤقَّتة، كما فرض الصيام بقوله: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}** [البقرة:183]. وفي الحديث الآخر: "إن الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"[2].

3. أن يكون عمله مشروعا مباحا، فأما إذا كان محرَّما، فإن تعبه فيه لا يكسبه إلا إثما ووزرا. كالذي يزرع التبغ أو النباتات المخدِّرة، أو يصنِّعها لتتحوَّل إلى سموم تقتل الشعوب، أو يتاجر فيها ليكسب الملايين من ورائها، ولا يبالي بقتل الملايين من البشر، وكذلك كل مَن يبيع ما حرَّم الله كالخمر والخنزير، أو ينتج ما حرَّم الله، أو يروِّج ما حرَّم الله، كمنتجات الفنِّ الخليع، وصحافة الإغراء والفضائح التي يسمُّونها الصحافة الصفراء وغيرها. فعمله هذا اتِّباع لخطوات الشيطان.

4. أن يلتزم في عمله حدود الله، ويرعى حقوق الناس، فلا يظلم أحدا، ولا يخون متعاملا، ولا يجور على حقٍّ، ولا يغشُّ ولا يخدع. وإن كان يبيع أو يشتري، فلا يطفِّف في كيل أو وزن، ولا يبخس الناس أشياءهم، ولا يكون همّه ربح الدنيا وإن خسر الآخرة. وحسبه وعيد الله للمطففين: **{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [المطففين:1-6]. هذا فيمن طمع في حفنة أو بعض حفنة من حقِّ غيره، فما بالك بمَن يأكل حقوق الآخرين كلَّها ولا يبالي؟

5. ألا يلهيه عمل دنياه عن عمل دينه، ولا حظُّ نفسه عن حقِّ ربه، بل يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا، لا يضيِّع صلاة، ولا يبخل بزكاة، ولا يفرِّط في جنب

1- رواه مسلم في في الصيد والذبائح (1955)، وأحمد (17139)، وأبو داود في الضحايا (2815)، والترمذي في الديات (1409)، والنسائي في الضحايا (4405)، وابن ماجه في الذبائح (3170)، عن شداد بن أوس.

2- رواه أبو يعلى (4386)، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (5314)، عن عائشة، وصححه الألباني في الصحيحة (1113).

الله، ولا ينسى ذكر الله، ولا يكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. واضعا نصب عينيه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون:9][1].

4- ليس من ضرورة الزهد أن يعيش المسلم فقيرا:

وكذلك ليس من الزهد أو من ضرورة الزهد: أن يعيش المسلم فقيرا لا يملك شيئًا، فإذا كان العمل لكسب الدنيا من حِلِّها بشروط ليس مذموما، فكذلك الحصول على الغنى وامتلاك الدنيا بشروطها ليس مذموما. المهم أن يملك الدنيا ولا تملكه، وأن يستخدمها ولا تستخدمه، وأن يضعها في يده، ولا يُسكِنها في قلبه، وألاَّ يتَّخذها له ربًّا، فتتَّخذه لها عبدا. فقد خلق الله الدنيا للإنسان، ولم يخلق الإنسان للدنيا!

وليس في الإسلام ما في المسيحية من ذمِّ الغنى مطلقا، كما ورد في الإنجيل: لا يدخل الغني ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة[2].

وليس فيه ما قال المسيح لمَن أراد أن يؤمن بربِّه ويتَّبعه: اذهب فبِع مالك ثم اتبعني[3].

بل في القرآن امتنان الله على رسوله بالغنى في قوله: {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى:8]، وقوله في شأن المؤمنين: {فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:148]، فاعتبر إعطاء الدنيا من الثواب المعجَّل للمؤمنين.

وقال تعالى على لسان نوح: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح:10-12]، فجعل إعطاء الأموال والجنات والأنهار من عاجل مثوبتهم على استغفارهم لربِّهم.

وفي القرآن آيات كثيرة تجعل سَعة الرزق من ثمرات التقوى والعمل الصالح، كما في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف:96]، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:2، 3]، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل:97]، وغيرها من الآيات.

1- انظر: كتابنا (العبادة في الإسلام) صـ47- 76.

2- إنجيل متى (23/19).

3- مرقص (21/10).

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى"[1]، "اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشرِّ فتنة الغنى، وشرِّ فتنة الفقر"[2]، وأثنى على الله ثناء طويلا عظيما ثم سأل الغنى وقضاء الدين: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر"[3].

ولو كان الفقر خيرا يُسعى إليه، ويحرص عليه، ما استعاذ بالله من شرِّه، وما فرض الزكاة على الأغنياء لتردَّ على الفقراء، وما قال: "اليد العليا خير من اليد السفلى"[4]، أي: اليد المعطية خير من اليد الآخذة.

ولا وضع المناهج وشرع الأنظمة لعلاج مشكلة الفقر، وتحقيق الكفاية التامة للفقراء، بالزكاة، وبنفقات الأقارب الموسرين على المعسرين، وبفرض حقوق في المال بعد الزكاة إذا لم تكفِ حاجات الفقراء، وبموارد الدولة المختلفة.

وفي الحديث النبوي: "إن من أمنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر"[5]، "ما نفعني مال كمال أبي بكر"[6]، "إن الله يحبُّ العبد التقى الغنى الخفى"[7]، ومعنى "الخفي": البعيد عن الشهرة، أي: الذي يعمل في صمت.

فليس الغنى مناقضا للصلاح والتقوى، فقد ذكر القرآن بعض الأنبياء الذين آتاهم الله مالا وملكا ومكَّن لهم في الأرض، كما أعطى يوسف: **{كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}** [يوسف:56].

1- رواه مسلم في الذكر والدعاء (2721)، وأحمد (3904)، والترمذي (3489)، وابن ماجه (3832)، كلاهما في الدعوات، عن عبد الله بن مسعود.

2- متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (6377)، ومسلم في الذكر والدعاء (589)، كما رواه أحمد (25727)، والترمذي في الدعوات (3495)، عن عائشة.

3- رواه مسلم في الذكر (2713)، وأحمد (5960)، وأبو داود في الأدب (5051)، والترمذي في الدعوات (3400)، عن أبي هريرة.

4- متفق عليه: رواه البخاري (1427)، ومسلم (1035)، كلاهما في الزكاة، كما رواه وأحمد (15326)، والترمذي في صفة القيامة (2463)، والنسائي في الزكاة (2531)، عن حكيم بن حزام.

5- متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (467)، ومسلم في فضائل الصحابة (2382)، كما رواه أحمد (11134)، والترمذي في المناقب (3660)، عن أبي سعيد الخدري.

6- رواه أحمد (7446)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في المناقب (3661)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في المقدمة (94)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في الصحيحة (2718).

7- رواه مسلم في الزهد (2965)، وأحمد (1441)، عن سعد بن أبي وقاص.

وكذلك أعطى داود وسليمان ملكًا عظيمًا، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}** [النمل:15].

وكذلك كان بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذوي الثروة، وقد بذلوا منها في سبيل الله ما بذلوا، ولم يضنُّوا بها على نصرة الإسلام، كما في تجهيز جيش العُسرة وغيرها.

من هؤلاء: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وهما من السابقين الأولين من المهاجرين، ومن العشرة المبشَّرين بالجنة، والذين تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راضٍ.

وجمع كثير من السلف الصالحين من هذه الأمة بين الغنى والتقى، وهو الذي يسمِّيه المسلمون (الغني الشاكر).

المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر:

وقد اختلف العلماء فيهما: أيُّهما أفضل للمرء: أن يكون غنيًّا شاكرا أم فقيرا صابرا؟

والذي تدلُّ عليه الأحاديث: أن الغني الشاكر هو الأفضل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم. قال: "أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون؟ إن بكلِّ تسبيحة صدقة، وكلِّ تكبيرة صدقة، وكلِّ تحميدة صدقة، وكلِّ تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة". قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر" رواه مسلم[1].

والحديث الصحيح المتَّفق عليه يقول: "اليد العليا خير من اليد السفلى"[2]. واليد العليا هي اليد المعطية، والسفلى هي الآخذة. مما يدلُّ على فضل الغني المُعطِي والمنفق في سبيل الله، والمعين للفقراء وذوي الحاجة.

الغنى أداة خير للأخيار:

1- سبق تخريجه.

2- سبق تخريجه.

وقد رد ابن الجوزي على الذين ذموا الغنى واعتبروا المال شرا، فقال: (أما شرف المال، فإن الله عزَّ وجلَّ عظَّم قدره، وأمر بحفظه، إذ جعله قواما للآدمي الشريف، فهو شريف، فقال تعالى: **{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا}** [النساء:5]، ونهى عزَّ وجلَّ أن يسلَّم المال إلى غير رشيد، فقال: **{فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}** [النساء:6].

وقد صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه نهى عن إضاعة المال[1].

وقال لسعد رضي الله عنه: "لأن تترك ورثتك أغنياء، خير من أن تتركهم عالة يتكفَّفون الناس"[2].

وقال: "ما نفعني مال كمال أبي بكر"[3].

وعن عمرو بن العاص قال: بعث إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني". فأتيتُه فقال: "إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة". فقلتُ يا رسول الله: ما أسلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمتُ رغبة في الإسلام!! فقال: "يا عمرو، نِعم المال الصالح للرجل الصالح"[4].

والحديث بإسناده، عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، دعا له بكلِّ خير، وكان في آخر دعائه أنه قال: "اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له"[5].

وبإسناده، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، أن عبيد الله بن كعب بن مالك قال: سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث بحديث توبته قال: فقلتُ: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال: "أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك"[6].

فهذه الأحاديث مخرَّجة في الصحاح، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوِّفة، من أن إكثار المال حجاب وعقوبة، وأن حبَّه ينافي التوكُّل.

1- متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (1477)، ومسلم في الأقضية (593)، كما رواه أحمد (18147)، عن المغيرة بن شعبة.

2- سبق تخريجه.

3- سبق تخريجه.

4- سبق تخريجه.

5- متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (6379)، ومسلم في فضائل الصحابة (2480)، كما رواه أحمد (27426)، والترمذي في المناقب (3829)، عن أم سليم.

6- متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (2757)، ومسلم في التوبة (2769)، كما رواه أحمد (15770)، وأبو داود (3317)، والنسائي (3824)، كلاهما في الأيمان والنذور، عن كعب بن مالك.

ولا يُنكر أنه يُخاف فتنته، وأن خلقا كثيرا اجتنبوه لخوف ذلك، وأن جمعه من وجهه يعزُّ، وسلامة القلب من الافتتان به يبعُد، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة ينذُر، ولهذا خيف فتنته.

فأما كسْب المال، فإن مَن اقتصر على كسب البُلغة من حِلِّها، فذلك أمر لا بد منه، وأما مَن قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادَّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح، أثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات، وقد كانت نيَّات خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، في جمع المال سليمة، لحسن مقاصدهم لجمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيادته.

وعن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقطع الزبير حضر فرسه بأرض يقال لها: ثرثر. فأجرى فرسه حتى قام ثم رمى سوطه، فقال: "أعطوه حيث بلغ السوط"[1].

وكان سعد بن عبادة يدعو فيقول: اللهم وسِّع عليَّ[2].

قال ابن الجوزي: وأبلغ من هذا أن يعقوب عليه الصلاة والسلام، لما قال له بنوه: **{وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ}** [يوسف:65]، مال إلى هذا، وأرسل ابنه بنيامين معهم، وأن شعيبا[3] طمع في زيادة ما يناله فقال: **{فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ}** [القصص:27]، و"أن أيوب عليه السلام لما عُوفي نثر عليه رجل جراد من ذهب، فأخذ يحثو في ثوبه يستكثر منه، فقيل له: أما شبعت؟ قال: يا ربِّ، مَن يشبع من فضلك!"[4]. وهذا أمر مركوز في الطباع، فإذا قصد به الخير كان خيرا محضا.

وأما الأنبياء فقد كان لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، زرع ومال، ولشعيب ولغيره.

وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول: لا خير فيمن لا يطلب المال، يقضي به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه، فإن مات تركه ميراثا لمَن بعده. وخلَّف ابن المسيب أربعمائة دينار، وقد ذكرنا ما خلَّفت الصحابة، وقد خلَّف سفيان الثوري رضي الله عنه، مائتين وكان يقول: المال في هذا الزمان سلاح[5]. وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء، وإنما

1- رواه أحمد (6458)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الخراج والإمارة (3072)، والطبراني في الأوسط (4273)، والبيهقي في الكبرى كتاب إحياء الموات (144/6)، عن ابن عمر، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (673).

2- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (264/20).

3- لم يثبت أن الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام

4- رواه البخاري في الغسل (279)، وأحمد (8038)، والنسائي في الغسل والتيمم (409)، عن أبي هريرة.

5- رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (78)، وروى أبو نعيم في الحلية (381/6)، عنه: ان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن.

تجافاه قوم منهم إيثارا للتشاغل بالعبادات، وجمع الهمم، فقنعوا باليسير، ولو قال هذا القائل: إن التقلُّل منه أولى، قرُب الأمر، ولكنه زاحم به مرتبة الإثم.

الصبر على الفقر والشكر على الغنى:

واعلم أن الفقر مرض، فمَن ابتُلي به فصبر أُثيب على صبره، ولهذا "يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام"[1]، لمكان صبرهم على البلاء، والمال نعمة، والنعمة تحتاج إلى شكر، والغني وإن تعب وخاطر، كالمفتي والمجاهد، والفقير كالمعتزل في زاوية.

الرد على من كره أن يخلف الفقير شيئا:

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب (سنن الصوفية)، باب كراهية أن يخلِّف الفقير شيئًا، فذكر حديث الذي مات من أهل الصفة وخلف دينارين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كيَّتان"[2].

قال ابن الجوزي: وهذا احتجاج مَن لا يفهم الحال، فإن ذلك الفقير كان يزاحم الفقراء في أخذ الصدقة، وحبس ما معه، فلذلك قال: "كيَّتان".

ولو كان المكروه نفس ترك المال، لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: "إنك إن تَذَر ورثتك أغنياء، خير من أن تَذَرهم عالة يتكفَّفون الناس"[3]. ولَمَا كان أحد من الصحابة يُخلِّف شيئًا.

الرد على من زعم أن ليس للإنسان ادِّخار شيء لغده:

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، على الصدقة، فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما أبقيتَ لأهلك". فقلتُ: مثله[4]. فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير الطبري: وفي هذا الحديث دليل على بطلان ما يقوله جهلة المُتصوِّفة: أن ليس للإنسان ادِّخار شيء في يومه لغده، وأن فاعل ذلك قد أساء الظنَّ بربِّه، ولم يتوكَّل عليه حقَّ توكُّله.

قال ابن جرير: وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "اتَّخذوا الغنم فإنها بركة"[5]. فيه دلالة على فساد قول مَن زعم من المُتصوِّفة، أنه لا يصحُّ لعبد التوكُّل على ربِّه، إلا بأن يصبح ولا شيء عنده

1- رواه أحمد (7946)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط البخاري، والترمذي في الزهد (2353)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد (4122)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (1918).

2- رواه أحمد (22180)، وقال مخرجوه: حديث صحيح وهذا إسناد جيد، والطبراني في الكبير (105/8)، والبيهقي في الشعب باب الزكاة (3514)، عن أبي أمامة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات (154/3).

3- سبق تخريجه.

4- رواه أبو داود في الزكاة (1678)، والترمذي في المناقب (3675)، وقال: حسن صحيح، والدارمي في الزكاة (1660)، والبزار (263/1)، والحاكم (414/1)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى (180/4)، كلاهما في الزكاة، عن عمر، وحسنه الألباني في الترمذي (2902).

5- رواه أحمد (27381)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والطبراني (426/24)، عن أم هانئ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (82).

من عين ولا عَرَض، ويمسي كذلك، ألا ترى كيف ادَّخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه قوت سنة[1].

وقد خرج أقوام من أموالهم الطيبة، ثم عادوا يتعرَّضون للأوساخ ويطلبون، وهذا لأن حاجة الإنسان لا تنقطع، والعاقل يعدُّ للمستقبل، وهؤلاء مثلهم في إخراج المال عند بداية تزهُّدهم، مثل مَن رؤي في طريق مكة، فبدَّد الماء الذي معه. والحديث بإسناد عن جابر بن عبد الله قال: قدم أبو الحصين السلمي بذهب من معدنهم، فقضى دينا كان عليه، وفضل معه مثل بيضة الحمامة، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ضع هذه حيث أراك الله، أو حيث رأيت. قال: فجاءه عن يمينه فأعرض عنه، ثم جاءه عن يساره فأعرض عنه، ثم جاءه من بين يديه فنكس رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، فلما أكثر عليه أخذها من يديه، فحذفه بها لو أصابته لعقرته، ثم أقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يعمد أحدكم إلى ماله فيتصدَّق به، ثم يقعد فيتكفَّف الناس، وإنما الصدقة عن ظهر غني، وابدأ بمَن تعول"[2])[3].

قال ذو النون المصري: أقرب الناس إلى الكفر، ذو فاقة لا صبر له. وقلَّ في الناس الصابرون على الفقر.

ولم يستطع الغزالي الذي عقد لذمِّ المال فصلا، من كتاب (ذمِّ البخل وذمِّ حبِّ المال) من (الإحياء)، أن يجحد النصوص التي تمدح المال وتثني عليه، وتذمُّ الفقر وتنفِّر منه، فقال: (اعلم أن الله تعالى قد سمَّى المال خيرا في مواضع من كتابه العزيز، فقال جلَّ وعزَّ: **{إِنْ تَـرَكَ خَيْـرًا...}** الآية [البقرة:180]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"[4].

وكلُّ ما جاء في ثواب الصدقة والحجِّ، فهو ثناء على المال، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به، وقال تعالى: **{وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}** [الكهف:82]، وقال تعالى ممتنًّا على عباده:

1- عن عمر: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ... وكان ينفق على أهله نفقة سنته. متفق عليه: رواه البخاري (2904)، ومسلم (1757)، كلاهما في الجهاد والسير، كما رواه أحمد (171)، وأبو داود في الخراج والإمارة (2965)، والترمذي في الجهاد (1719)، والنسائي في قسم الفيء (4140)، عن عمر.

2- رواه أبو داود (1673)، والدارمي (1659)، وابن حبان (3372)، والحاكم (413/1)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، أربعتهم في الزكاة، عن جابر، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (369).

3- تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ220-226، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1426هـ 2005م.

4- سبق تخريجه.

{وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح:12]، وقال صلى الله عليه وسلم: "كاد الفقر أن يكون كفرا"[1]. وهو ثناء على المال)[2].

استدلال الغزالي على فضيلة الفقر بآيتين:

والعجيب أن الغزالي رحمه الله، حين عرض لبيان فضيلة الفقر في كتاب (الزهد)، لم يجد في القرآن ما يدلُّ على فضله، إلا آيتين في ظنّه:

قوله تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** [الحشر:8].

وقوله تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا}** [البقرة:274].

قال: (ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدَّم وصفهم بالفقر، على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر)[3].

بُعد الإمام الغزالي عن المعنى الدقيق للآيتين:

ورحم الله أبا حامد، فقد بَعُد عن الفَهم الدقيق للآيتين، فالآية الأولى جاءت بعد قسمة الفيء تبيّن المستحقِّين له، وقد أفاء الله على رسوله من أموال يهود بني النضير، ولم يخمّسها الرسول صلى الله عليه وسلم كغنائم بدر، وإنما عوَّض بها رسول الله المهاجرين عما فقدوه في وطنهم القديم، من ديار وأموال، فقال تعالى: **{مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [الحشر:7].

فليست الآية إلا بيانا لموضع الفيء من الناس، وبيان الصفة التي استحقوا بها هذا، وهي الفقر، مع بيان العلة التي أدت إلى هذا الفقر، وهي هجرتهم، وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربنا الله، فهل في الآية مدح للفقر ذاته، أو حث على الاتصاف به؟ لا ثم لا.

والآية الثانية بيان لأحق الناس بالصدقة والإنفاق الذي يحبه الله، وهم الفقراء الذين أحصروا، وقبلها: **{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ**

1- رواه أبو نعيم في الحلية (53/3)، والبيهقي في الشعب باب الحث على ترك الغل (6612)، عن أنس، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (4148).

2- إحياء علوم الدين (193/4).

3- المرجع السابق.

إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة:272، 273]، فذكر صفاتهم في الآية وهي خمس صفات:

1. **{لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}.**
2. **{لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ}.**
3. **{يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ}.**
4. **{تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ}.**
5. **{لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا}.**

ثم ختم الآية بقوله: **{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}.**

وقد رُوي عن سعيد بن جبير: أنها نزلت في قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله تعالى، فصاروا زمنى، فجعل لهم في أموال المسلمين حقا[1].

ورُوي عن ابن عباس: أنها نزلت في أهل الصفة. وهم جماعة من فقراء المهاجرين لم يكن لأكثرهم مأوى، فكانوا يقيمون في المسجد – موضع مظلَّل منه – قد حبسوا أنفسهم لحفظ القرآن، وبه تحفظ أصول الدين، والخروج مع السرايا للجهاد، وبه بحفظ كيان الأمة.

فهل في الآية دلالة واضحة – كما يقول الغزالي – على مدح الفقر؟ كلا ثم كلا.

متى يكون المال شرا؟

إنما يكون المال شرًّا إذا أصبح حبُّ جمعه وتنميته هو الشغل الشاغل لصاحبه، فيصير غاية لا وسيلة، ولا يبالي من أين جاء أمن خبيث أم من طيِّب؟ من حلال أم من حرام؟ وحينئذ يرتكب الموبقات في سبيل جمعه وتكثيره، ويستحلُّ الرشاوى والسرقة الظاهرة أو الخفية، ويأكل الربا، ويأكل مال اليتيم، وهذا ما حذَّر الله منه أشدَّ الحذر: **{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [البقرة:188]، **{وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا}** [النساء:2]، **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}** [النساء:10]، **{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}** [البقرة:275].

الغرور بالمال والبغي والطغيان به:

ويكون المال شرًّا إذا أدى بمالكه إلى الغرور به، والطغيان والبغي على غيره، **{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}** [العلق:6، 7]، **{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ**

1- انظر: الدر المنثور (89/2).

وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} [القصص:76]، **{فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}** [الكهف:34].

نسيان الآخرة:

ويكون المال شرًّا إذا أنسى صاحبه الآخرة، وظنَّ أنه مخلَّد في ماله، **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}** [الهمزة:1-3]، **{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}** [الكهف:35]، **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آَمِنُونَ}** [سبأ:34-37].

إنفاق المال في غير محله والبخل به عن حقه وموضعه:

ويكون المال شرًّا إذا أنفقه صاحبه في غير محلِّه، أو بخل به عن حقِّه وموضعه، **{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}** [التوبة:34، 35]، **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** [النساء:36، 37]، **{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا}** [النساء:38].

هؤلاء الذين يكنزون ويختالون ويبخلون ويبخِّلون في آن واحد، يبخلون ويأمرون غيرهم بالبخل عما أوجب الله.

وينفقون رئاء الناس في المظاهر الفارغة والأبَّهة الكاذبة، **{رِئَاءَ النَّاسِ}**، إرضاء لنزعة المباهاة والتفاخر فيهم.

شُغل المال صاحبه عن واجب دينه:

ويكون المال شرًّا اذا شغل صاحبه عن واجب دينه، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [المنافقون:9].

ويكون المال شرًّا إذا أصبح مقياس عظمة الناس وتقديرهم في الدنيا، دون النظر إلى ما يحملونه في قلوبهم من إيمان، وفي عقولهم من علم، وفي نفوسهم من أخلاق. كما قال القائل:

فقيمة ربِّ الألف ألف وزد تزد   وقيمة ربِّ الدرهم الدرهم

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآَنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف:31]، فالعظمة عندهم بكثرة المال وقوَّة النفوذ.

ميزان التفاضل عند الله:

وقد بيَّن القران أن ميزان التفاضل عند الله: الإيمان والعمل الصالح، لا المال ولا البنون ولا ما يملكه الإنسان من الدنيا: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آَمِنُونَ}** [سبأ:37].

ماذا يطلب من الغني ذي الثروة؟

لم يطلب القرآن من الغني أن يتخلَّى عن ماله، ولم يحرم عليه طيبات الدنيا وإنما طلب منه واجبات معيَّنة تحدِّد عَلاقته بالله، وعلاقته بالآخرة، وعلاقته بحياته، وعلاقته بالناس، وعلاقته بالحياة عامة.

ذكر الله هذه الواجبات على لسان المؤمنين من قوم موسى عليه السلام، وهو يقصُّ علينا قصة قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحة لتنوء بالعصبة أولي القوة، والقران حين يقصُّ علينا هذه القصص، لا يهمُّه أن نضيف إلى معلوماتنا التاريخية جديدا، وإنما يقصُّها لنا لأجل الهداية والعبرة: **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}** [يوسف:111].

هذه الواجبات هي أوامر ونواه خالدة، تتَّصل بمهمَّة الإنسان وغاية وجوده في الحياة، قيلت لقارون، وتقال لكلِّ ذي مال وغنى من بعده، وهذه هي:

{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ} [القصص:76، 77].

الوصية الأولى: {لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}:

فالوصية الأولى تتضمَّن ألاَّ يفرح بماله وغناه فرح البطر المغرور، وينسى ربَّه وواجبه نحوه، فينساه الله، ويعرض عنه ولا يحبه، **{لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}**.

ولا يظنَّن ظانٌّ أن الفرح هنا بمعناه المألوف – من السرور والانشراح، فهذا أمر مرغوب محبوب، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الهمِّ والحَزَن[1]، ويبشِّر مَن أدخل السرور على قلوب الناس بأعظم المثوبة[2] – وإنما هو الأَشَر والبَطَر والغرور، الذي يعمى عين

1– إشارة إلى حديث: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال". رواه البخاري في الدعوات (2893)، وأبو داود في الصلاة (1541)، والترمذي في الدعوات (3484)، والنسائي في الاستعاذة (5450)، عن أنس.

2– رواه الطبراني في الكبير (453/12)، والأوسط (6026)، والصغير (861)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سكين بن سراج وهو ضعيف (349/8).

البصيرة عن رؤية يد الله في جلب النعمة وتيسيرها، فيقول ما قال قارون في غرور واستعلاء: **{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}** [القصص:78].

ولو فكَّر وأنصف لقال ما قال يوسف عليه السلام، وقد صارت له خزائن مصر: **{رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}** [يوسف:101].

ولقال ما قال سليمان عليه السلام، وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، قال: **{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}** [النمل:19].

فرح قارون وأمثاله بغير الحقِّ الذي ذمه القران، وعذَّب الله أصحابه في نار السعير: **{ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ}** [غافر:75]. فرح هؤلاء فرح بالمادة لا بالرُّوح، وبالصورة لا بالمعنى، وبالأعراض المتغيِّرة لا بالقيم الثابتة، فأولى أن يقال لهم: **{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}** [يونس:58].

الوصية الثانية: {وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ}:

والوصية الثانية تطلب منه أن تكون وجهته في ماله وثروته الدار الآخرة، يبتغيها ويقصدها في إنفاقه إذا أنفق، واستثماره إذا استثمر، وتنميته إذا نمَّى.

فالدار الآخرة هي الغاية المطلوبة والمقصد المبتغى، والمال الذي ملَّكه الله بإيتائه إياه، واستخلافه فيه، هو الوسيلة والأداة، فإذا انقلبت الغاية وسيلة، والوسيلة غاية، وصار المال هو القصد الذي يوضع نصب العين، والآخرة هي التي تُطرح وراء الظهر، فذلك هو الضلال البعيد، والبلاء المبين.

كلام الغزالي في قصد سعادة الآخرة:

قال الإمام الغزالي في كتاب الشكر: (إنَّ مقصد الأكياس وأرباب البصائر: سعادة الآخرة، التي هي النعيم الدائم والملك المقيم. والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال: "أكثرهم للموت ذكرا، وأشدُّهم له استعدادا"[1].

وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا، وهي:

1- رواه ابن ماجه في الزهد (4259)، والطبراني في الأوسط (4671)، والحاكم في الفتن والملاحم (540/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب حسن الخلق (7993)، عن ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (3435).

الفضائل النفسية، كالعلم، وحسن الخلق. والفضائل البدنية، كالصحة، والسلامة. والفضائل الخارجة عن البدن، كالمال، وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة.

فالخارجة: أخسُّها، والمال من جملة الخارجات، وأدناها: الدراهم والدنانير، فإنهما خادمان ولا خادم لهما، ومرادان لغيرهما ولا يرادان لذاتهما. إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق، لتحصِّلها صفة في ذاتها، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواسِّ والأعضاء، والمطاعم والملابس تخدم البدن، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن، ومن المناكح إبقاء النسل، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق.

ومَن عرَف هذا الترتيب، فقد عرَف قدر المال، ووجه شرفه، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس، التي هي ضرورة بقاء البدن، الذي هو ضرورة كمال النفس، الذي هو خير. ومَن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده، واستعمله لتلك الغاية، ملتفتا إليها غير ناسٍ لها، فقد أحسن وانتفع، وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقِّه، فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح، ويصلح أن يتَّخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة، وتسدُّ سبيل العلم والعمل، فهو إذن محمود مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم)[1].

فهذا كلام الغزالي هنا، وهو كلام فقيه أصولي، مستمد من مصادر الشريعة، على خلاف كلامه إذا ترك نهج الفقه وأصوله، واتبع نهج المتصوفة بإطلاق، حتى فيما غلوا فيه، وشطوا عن السبيل.

الوصية الثالثة: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}:

وهذه الوصية توضح نقطة مهمة، وهي أن الغني الذي وسع الله عليه، حين يتجنب البطر والأشر، ويبتغي من ماله الدار الآخرة، لا يعني هذا أن يحرم نفسه من طيبات الدنيا، بل له حق في أن يأخذ نصيبه من هذه الدنيا، بل هو مأمور أن لا ينسى نصيبه منها بالمعروف، في غير إسراف ولا تقتير.

الوصية الرابعة: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}:

1- إحياء علوم الدين (233/3، 234).

وهذه وصية توجب على الغني أن يشكر نعمة الله عليه، الذي أحسن إليه فأغناه من فضله، وذلك بأن يحسن إلى خلق الله من أهل الفقر والحاجة، كما أحسن الله إليه، وهذا تذكير بحقيقة مهمة، وهي أن المال مال الله تعالى، والإنسان مستخلف فيه، بمثابة أمين الخزانة، فهو يتصرف فيه، بحسب أوامر مالكه. ومن ذلك الحقوق الواجبة في المال.

الوصية الخامسة: {وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ}:

وهذه الوصية الخامسة والأخيرة، وهي ألا يبغي الغني بماله نشر الفساد في الأرض، مثل الظلم والغش والاحتكار والربا والتطفيف والغبن الفاحش وغيرها، مما يجري في معاملات الرأسماليين الجشعين، ولا إشاعة الترف والميوعة وشرب المسكرات وتناول المخدرات في حياة الناس، أو الترويج لسلع مغشوشة أو مسرطنة، أو ملوثة بالإشعاع، أو انتهى أمد صلاحيتها، ابتغاء الربح من ورائها، وإن أضر بجماهير الخلق. فهذا من الإفساد في الأرض، والله لا يحب المفسدين، لأنهم أعداء الله، وأعداء الناس، وأعداء الحياة.

3- ليس من الزهد الإعراض عن الحياة الطيبة:

وإذا كان العمل للدنيا – بشروط – ليس مذموما، وامتلاك الدنيا – بشروط – ليس مذموما أيضا، فإن الاستمتاع بطيبات الدنيا ليس مذموما كذلك.

ذلك أن الله خلق هذه الطيبات، ليستمتع بها الناس، ويشكروا الله عليها، بل جعلها مما كرَّم به جنس الإنسان وميَّزه، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}** [الإسراء:70]، وقال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [غافر:64].

وما كان الله ليخلق هذه الطيبات ويمتنُّ بها على الناس، ثم يحرِّمها عليهم!

الإنكار على الذين حرَّموا على أنفسهم الطيبات:

بل نجد القرآن ينكر على المشركين وأهل الكتاب الذين حرَّموا على أنفسهم طيبات المآكل والمشارب والملابس وغيرها، مما يتزيَّن به الإنسان، فقال تعالى مخاطبا الجنس البشري كلَّه: **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** [الأعراف:31، 32].

فانظر إلى هذ الأسلوب من الاستفهام الإنكاري: **{مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ}**؟

وانظر إلى هذه الإضافة: إضافة الزينة إلى الله، وهي إضافة تشريف وتكريم.

وانظر إلى قوله: {**الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**}، فهو تبارك وتعالى يخرجها لهم، ويأتي مَن يحرّمها عليهم!

من أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الأساسية عند أهل الكتاب:

بل إن القرآن ليجعل من أوصاف الرسول الأساسية عند أهل الكتاب في التوارة والإنجيل: أنه يحلُّ الطيبات، ويحرِّم الخبائث، كما قال سبحانه: {**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**} [الأعراف:157].

والطيبات: كلُّ ما تستطيبه الفطر السليمة وتستحسنه، ولا تجد فيه خبثا ولا قذرا، وقد كان الله عاقب اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم جزاء ما صنعوا، كما قال تعالى: {**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**} [النساء:160، 161]، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم، بالرسالة العامة الخالدة، ألغى هذا الحظر الذي كانت له أسبابه، وليس معقولا أن يُعاقَب البشر جميعا بما اقترفه اليهود في مرحلة من الزمن.

امتنان القرآن بالطيبات على المؤمنين:

بل تجد القرآن يمتنُّ بالطيبات على المؤمنين، فيقول تعالى مخاطبا المسلمين بعد الهجرة في معرض الامتنان والإنعام: {**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [الأنفال:26].

موقف القرآن من المسلمين الذين أرادوا تحريم الطيبات:

وحين أراد بعض المسلمين أن ينزعوا نزعة رهبانية، فحرَّم مَن حرَّم منهم اللحم، وامتنع مَن امتنع منهم عن قُرب النساء، نزل قول الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**} [المائدة:87،88]، فكان توجيه القرآن لهم يتضمَّن المعاني التالية:

1. النهي عن تحريم الطيبات التي أحلَّها الله، فليس من حقِّ أحد أن يحرِّم ما أحلَّ الله، فإن تحريم الحلال قرين الشرك.

2. النهي عن الاعتداء والتجاوز في تناول الطيبات، والاعتداء هنا يكون بالجَور على حقّ الغير، أو تجاوز حدِّ الاعتدال في الاستهلاك، كما قال تعالى: **{كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا}** [الأعراف:31]، أو الاعتداء على حقِّ الله بتحريم ما أحلَّه.

3. رفع أيِّ حرج في الاستمتاع بالطيبات، حيث أمر بالأكل، وهو هنا يفيد الإذن والإطلاق، لأنه مع الأمر يقول: **{مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ}**، فهو إغراء بالأكل، ثم يقول: **{حَلَالًا طَيِّبًا}**، إغراء آخر. ومعنى **{طَيِّبًا}** هنا: أي: لذيذا تستطيبه أنفسكم، وتميل إليه طباعكم.

4. رعاية تقوى الله أبدا، في كلِّ ما تأتون وما تذرون، فهي ملاك الأمر كلِّه.

قبول الاستمتاع بالطيبات:

لا جناح على المسلم السائر في طريق الله أن يستمتع بما رزقه الله من الطيبات بقيود:

أ- أن يتحرَّى حِلَّها، فإذا شابها حرام أو شبهة حرام اتَّقاه استبراء لدينه وعرضه[1].

ب- أن يتجنَّب الإسراف، فإن تناول المباحات جميعا مقيَّد بعدم الإسراف، كما قرأنا قوله تعالى: **{كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا}**، وكلَّما كان من مريدي الزهد كان التقلُّل أولى به.

ج- ألا ينسى شكر نعمة الله عليه بهذه الطيبات، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}** [النحل:172]، وشكر الله على نعمه واجب، بالقلب واللسان والجوارح.

د- أن يراعي آداب الشرع في تناول الطيبات، فإذا أكل سمَّى الله، وأكل بيمينه، وأكل مما يليه[2]، وإذا فرغ من طعامه حمد الله[3]. وكذلك يسمِّي الله عند الشرب ويحمده عند الانتهاء[4].

وإذا لبس ثوبا جديدا قال: "اللهم لك الحمد؛ أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له"[5]. كذلك إذا استعمل أيَّ آلة جديدة.

1- كما تقدم في الحديث: "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه" وسبق تخريجه.

2- إشارة إلى حديث: "ياغلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك". متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (5376)، ومسلم في الأشربة (2022)، كما رواه أحمد (16331)، وابن ماجه في الأطعمة (3267)، عن عمر بن أبي سلمة.

3- عن أبي أمامة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع مائدته قال: "الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا". رواه البخاري في الأطعمة (5458)، وأحمد (22200)، وأبو داود في الأطعمة (3849)، والترمذي في الدعوات (3456).

4- إشارة إلى حديث: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها". رواه مسلم في الذكر والدعاء (2734)، وأحمد (11974)، والترمذي في الأطعمة (1816)، عن أنس.

5- رواه أحمد (11470)، وقال مخرجوه: حسن، وأبو داود (4020)، والترمذي (1767)، وقال: حسن، كلاهما في اللباس، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (3393).

وإذا ركب سيارته قال ما ذكره القرآن: **{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}** [الزخرف:14-12].

موقف خصوم الإسلام من الحديث عن الحياة الطيبة:

الحديث عن (الحياة الطيبة) في الإسلام حديث دقيق, ذلك أن خصوم الإسلام يقفون بالمرصاد لكلِ ما يُقال في هذه الناحية, فإذا تحدَّثنا عن عناية الإسلام بـ(الجانب الرُّوحي) وقيمته بالنسبة للحياة والإنسان، اتَّخذوا من هذا أداة للطعن، ونقطة للهجوم على الإسلام، أنه دين يدير ظهره للحياة، ويُغفل واقع الإنسان والوجود، ويدعو إلى الضعف والسلبية والحرمان والتقشُّف، فهو لهذا لا يصلح للحياة، ولا تصلح له الحياة.

وإذا تحدَّثنا عن (الجانب المادي) واهتمام الإسلام به، اهتمامه بجسم الإنسان وغرائزه وعواطفه، إلى جوار عقله ورُوحه. واهتمامه بالحياة الدنيا إلى جانب الحياة الباقية، سرعان ما يقولون: دين مادي لا رُوحانية فيه، يدعو إلى الحيوانية والاستغراق في الملذَّات.

على أن هذا لا يجعلنا نحجم عن بيان الحقِ المجرَّد، خشية أن يتَّخذ منه المغرضون المحرِّفون ذريعة للتقوُّل والافتراء والتضليل:

وهبني قلتُ: هذا الصُّبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء

تخوف بعض المسلمين من الدعوة إلى الحياة الإسلامية الحقة:

إن كثيرا من الناس – من المسلمين أنفسهم – يتوجَّسون خيفة، ويمسكون قلوبهم بأيديهم خوفا وفزعا، كلما دعاهم داع إلى الحياة الإسلامية الحقَّة، وما أسرع ما تلوح لمخيلاتهم صور شائهة مخيفة عن تلك الحياة، الحياة القاسية التي لا تعرف الرحمة، الضيقة التي لا تسمح بالسعة، البدوية التي لا تعرف التمدُّن، المحرومة التي لا تذوق طعم النعيم، الحزينة التي لا تعرف المرح، الصارمة التي لا ترخِّص في لهو، الجامدة التي لا يقربها تطوُّر.

وربما حلا لبعضهم – عن جهل أو عن سوء قصد – أن يتندَّروا بتلك الحياة، وقد استبدل الناس الجمال فيها بركوب القطارات والسيارات، وقناديل الزيت بمصابيح الكهرباء بقناديل الزيت، والزوايا والتكايا بالحدائق والمتنزهات، وأغلقت محلات الزينة والعطور بسبب الزهد والتقشف المفروض، وهكذا.

سبب هذا الوهم العريض:

وعلة هذا الوهم العريض ما أشاعته الفكرة الصوفية المتطرفة، من نظرة خاطئة عن الحياة والتمتُّع بطيِّباتها، وما تناقله بعض المتعلِّمين من موقف أديان أخرى من الحياة، ثم قاسوا الإسلام عليها ظلما، غافلين عن الفرق، جاهلين أن أول ما يضاف إليه الإسلام بحقٍّ، أنه (دين الحياة).

الحياة الإسلامية كما رسمها القُرآن والسُّنة:

ونحن هنا نتحدث عن الحياة الإسلامية كما رسمها صريح القرآن، وصحيح السنة، وعمل الجيل الفاضل الذي ربَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن اتبعهم بإحسان، متجنِّبين الفَهم السقيم للنصوص الثابتة، والانخداع الأبله بالأحاديث الواهية الأساس.

طبيعة الإنسان المادِّيَّة والروحيَّة:

اقتضت مشيئة الله أن يجعل في الأرض خليفة، وأن يكون هذا الخليفة بطبيعته قادرًا على تسخير الأرض والانتفاع بها وعمرانها، وإظهار حكمة الله فيها، بجوار قدرته على السجود والتحليق والاتصال بالملأ الأعلى، فلا غرو أن كانت طبيعة هذا الخليفة الإنسان المادية الروحية معا، فله جسمه الكثيف، وله روحه الشفافة، له غرائزه التي تهبط به إلى الأرض، وله أشواقه التي تحلِّق به إلى السماء، له شهوته التي تلحُّ عليه في الطعام والشراب، وله قلبه الذي يتطلَّع إلى نور الهداية.

في المأكل والمشرب:

ولم يكن من الحكمة أن يخلق الله الإنسان هكذا، جسما من طبيعته أن ياكل ويشرب وينكح، ثم يقول للإنسان: لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح. إن هذا ينافى الحكمة في خلق الإنسان على هذا الوجه، وتعالى الله أن ينافى حكمه حكمته، ويصادم تشريعه تكوينه، ويناقض أمره خلقه، وهو صاحب الخلق والأمر، تبارك الله ربُّ العالمين.

وقد أنكر الله في قرآنه على الذين عجبوا أن ياكل النبي الطعام، وما كان لهم أن يعجبوا ما دام النبي بشرا كسائر بني ادم، **{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا}** [الفرقان:7]، **{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}** [الفرقان:20]، **{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}** [الأنبياء:8].

ولولا أن الناس أفسدو دين الله، وأدخلو فيه ما ليس منه، وشوَّهوا فيه ما كان منه، ماكان لذكر هذه القضية ومثلها في الدين من وجه، فإنها من مقتضى الفطرة، وموجب الطبيعة الإنسانية، وما كانت تحتاج إلى وحى سماوي، أو نداء تشريعى، فإن الدين لا يدعو الإنسان الى ما ينساق إليه بطبيعته، ويندفع اليه بحكم غريزته، وكفى بالطبع سائقا، وبالغريزة دافعا!!

الملبس:

وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المرتفعة ولا الدون، فيتخيَّرون أجودها للجمعة والعيدين، ولقاء الإخوان، ولم يكن غير الأجود عندهم قبيحا.

وقد أخرج مسلم في صحيحه، من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حلة سيراء تباع عند باب المسجد، فقال لرسول صلى الله عليه وسلم: لو اشتريتَها ليوم الجمعة، وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما يلبس هذه مَن لا خلاق له في الاخرة"[1]. فما أنكر عليه ذكر التجمُّل بها، وإنما أنكر عليه لكونها حريرا.

وقد رُوي عن أبي العالية: كان المسلمون إذا تزاوروا تجمَّلوا[2].

وبسنده قال: كان المهاجرون والأنصار يلبسون لباسا مرتفعا.

1- متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (886)، ومسلم في اللباس والزينة (2068)، كما رواه أحمد (4713)، وأبو داود في الصلاة (1076)، والنسائي في الجمعة (1382)، وابن ماجه في اللباس (3591)، عن ابن عمر.

2- رواه البخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (348)، وابن سعد في الطبقات (115/7)، وأبو نعيم في الحلية (217/2).

وقد اشترى تميم الداري حُلَّة بألف درهم، وكان يصلِّي بأصحابه فيها، بل كان يقوم فيها بالليل إلى صلاته.

وقد كان ابن مسعود من أجود الناس ثوبا، وأطيبهم ريحا.

وكان الحسن البصرى يلبس الثياب الجياد، وقد خرج الحسن وعليه جُبَّة يمنية ورداء يمني، فنظر اليه فَرْقَد، فقال يا أستاذ، لا ينبغى لمثلك أن يكون هكذا. فقال الحسن: يا ابن أم فرقد، أما علمتَ أن أصحاب النار أصحاب الأكسية[1]. أي الأكسية الغليظة.

وكان مالك بن أنس يلبس الثياب العدنية الجياد.

وكان ثوب احمد بن حنبل يُشترى بنحو الدينار.

وقد كانوا يؤثرون البذاذة إلى حدٍّ، وربما لبسوا خلقان الثياب في بيوتهم، فاذا خرجوا تجمَّلوا ولبسوا ما لا يشتهرون به من الدون، ولا من الأعلى.

قال عيسى بن حازم: كان لباس ابراهيم بن أدهم كتانا، قطنا، فروة. لم أرَ (عليه) ثياب صوف ولا ثياب شهرة.

قال أبو جعفر الطبري: ولقد أخطأ مَن آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتَّان، مع وجود السبيل إليه من حِلِّه، ومَن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البُرِّ، ومَن ترك أكل اللحم خوفا من عارض شهوة النساء.

وجاء رجل إلى الحسن البصرى يلبس الصوف، وعليه جُبَّة صوف، وعمامة صوف، ورداء صوف، فجلس فوضع بصره في الأرض، فجعل لا يرفع رأسه مظهرا للخشوع، وكأن الحسن خال فيه العجب! فقال فيه الحسن: ها إن قوما جعلوا كبرهم في صدورهم، شنَّعوا – والله – دينهم بهذا الصوف. ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يتعوَّذ من زيِّ المنافقين. قالوا: يا أبا سعيد، وما زي المنافقين؟ قال: خشوع اللباس، بغير خشوع القلب[2].

ورأى ابن عمر على ولده ثوبا قبيحا دونا، فقال: لا تلبس هذا، فإن هذا ثوب شهرة[3]!

1- رواه ابن سعد في الطبقات (169/7).

2- لم أجده، وروى البيهقي في الشعب باب إخلاص العمل لله (6967)، عن أبي بكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعوَّذوا بالله من خشوع النفاق". قالوا: يا رسول الله، وما خشوع النفاق؟ قال: "خشوع البدن ونفاق القلب". وقال العراقي في تخريج الإحياء: فيه الحارث بن عبيد الأيادي ضعفه أحمد وابن معين (331/3).

3- رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (67).

وعن ابن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن لبس ثوب شهرة من الثياب ألبسه الله ثوب ذلَّة"[1].

عن أبي هريرة وزيد بن ثابت رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم، نهى عن الشهرتين. فقيل: يا رسول الله، وما الشهرتان؟ قال: "رقة الثياب وغلظها، ولينها وخشونتها، وطولها وقصرها، ولكن سداد بين ذلك واقتصاد"[2].

وعن سفيان: البس من الثياب ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك عليه الحكماء[3].

واعلم أن اللباس الذي يُزري بصاحبه، يتضمَّن إظهار الزهد، وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله عزَّ وجلَّ، ويوجب احتقار اللابس، وكلُّ ذلك مكروه ومنهيٌّ عنه.

عن الأحوص، عن أبيه قال: أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم، وانا قشف الهيئة، فقال: "هل لك من مال؟". قلتُ: نعم. قال: "من أي المال؟". قلتُ: من كلِّ المال قد آتانا الله عزَّ وجلَّ؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم. قال: "فاذا آتاك الله عزَّ وجلَّ مالا، فليُرَ عليك"[4].

وعن جابر قال: أتانا رسول الله زائرا في منزلى، فرأى رجلا شعثا فقال: "أما يجد هذا ما يسكن به رأسه؟"، ورأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال: "أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه؟!"[5].

عن عبد الله بن سلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم جمعة فقال: "ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم جمعة، سوى ثوب مهنته؟!"[6]. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، برد يمنية، وإزار من نسج عُمَان، فكان يلبسهما في يوم الجمعة، ويوم العيدين، ثم يطويان.

رد ابن الجوزي على شبهة المتزمِّتين من المتصوِّفة:

1- رواه أحمد (5664)، وقال مخرجوه: حسن وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك وبقية رجاله ثقات، وأبو داود في اللباس (4030)، وابن ماجه في اللباس (3606)، وأبو يعلى (5698)، عن ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (3399).

2- رواه البيهقي في الشعب باب الملابس والزي (6231)، وقال: أبو نعيم- أحد الرواة – هذا لا نعرفه، وقال الألباني في الضعيفة موضوع (2326).

3- روي مثله عن ابن عمر، رواه الطبراني (262/12)، وأبو نعيم في الحلية (302/1)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (238/5)، وحسنه الألباني في غاية المرام (92).

4- رواه (15891)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في اللباس (4063)، والترمذي في البر والصلة (2006)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الزينة (5223)، عن مالك بن نضلة.

5- رواه أحمد (14850)، وقال مخرجوه: إسناده جيد، مسكين بن بكير صدوق، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، وأبو نعيم في الحلية (156/3)، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي (6224)، عن جابر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1333).

6- رواه أبو داود في الصلاة (1078)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (1095)، وعبد بن حميد (499)، والطبراني (287/22)، والبيهقي في الكبرى كتاب الجمعة (242/3)، عن عبد الله بن سلام، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (953).

وقد رد ابن الجوزي على شبهة المتزمّتيين من المتصوِّفين الذين يقولون: إن تجويد اللباس والعناية به هوى للنفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزيُّن للخلق، وقد أُمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق.

قال: (ليس كل ما تهواه النفس يُذَمُّ، ولا كلُّ التزيُّن للناس يكره، وانما يُنهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو كان على وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يجب أن يُرى جميلا، وذلك حظُّ النفس ولا يلام فيه، ولهذا يسرِّح شعره، وينظر في المرآة، ويسوِّي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشن إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شئ من هذا ما يكره ولا يُذمُّ.

روى مكحول، عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم، وفي الدار رِكوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوى شعره ولحيته، فقلت: يارسول الله: وأنت تفعل هذا؟

قال: "نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال"[1].

وفي رواية: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمرَّ بركوة لنا فيها ماء, فنظر إلى ظلّه فيها، ثم سوَّى لحيته ورأسه، ثم مضى فلما رجع قلت: يارسول الله، تفعل هذا؟ قال: "وأي شئ فعلتُ؟ نظرتُ في ظلِّ الماء، فهيَّأتُ من لحيتى ورأسي، إنه لا باس أن يفعله الرجل المسلم، إذا خرج إلى إخوانه أن يهيء من نفسه)[2].

1- رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة صـ48، عن عائشة.

2- تلبيس إبليس صـ248، 249.

حدود الزهد في ضروريات الحياة
في نظر الإمام الغزالي

نذكر في هذا الفصل حدود الزهد المطلوب – في نظر الإمام الغزالي – من أرباب السلوك، ممَّن يريد أن يدخل في زمرة الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة. وذلك فيما يتعلَّق بأساسيات الحياة أو ضرورياتها، من المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن والأثاث، والمنكح (أي الزواج)، والجاه.

وقد عرض الغزالي لهذا الأمر في (الإحياء) وفصَّله، وقد ضيَّق فيه بحيث لا يتَّسع إلا لأناس متفرّغين للتعبُّد، أو لأناس أُوتوا من العزائم والقوَّة ما لم يؤتَ غيرهم. أما جمهور المسلمين الكادحين في الأرض، الساعين في طلب الرزق، فيصعب عليهم تنفيذ ما قاله الغزالي. كما أن (برنامج) الغزالي الذي وضعه لم يراعِ فيه أنه لا يليق بأمة لها رسالة تقود الأمم، وتصنع الحضارة، وتمتلك القوة، وتعمر الأرض بالحقِّ والخير. وسنناقش ذلك فيما بعد.

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة:

قال الإمام الغزالي: (اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول، وإلى مهم، فالفضول كالخيل المسومة مثلا، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفُّه بركوبها، وهو قادر على المشى. والمهم، كالأكل والشرب.

ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول، فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضرورى، والمهم أيضا يتطرَّق إليه فضول، في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بد من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض، وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حبِّ الخلق له، وكيفية الاحتراز منه، في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

ضرورة المطعم:

الأول: المطعم، ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه، ولكن له طول وعَرْض، فلا بد من قبض طوله وعَرْضه حتى يتم به الزهد، فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن مَن يملك طعام

يومه فلا يقنع به، وأما عَرْضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله، أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل،

وأقل درجات الزهد فيه: الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدَّة الجوع وخوف المرض.

ومَن هذا حاله فإذا استقلَّ بما تناوله، لم يدخر من غدائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا.

الدرجة الثانية: أن يدَّخر لشهر أو أربعين يوما.

الدرجة الثالثة: أن يدَّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد.

ومن ادَّخر لأكثر من ذلك، فتسميته زاهدا محال؛ لأن من أمَّل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا، فلا يتمُّ منه الزهد، إلا إذا لم يكن له كسب، ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدى الناس، كداود الطائى، فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة، فهذا لا يضادُّ أصل الزهد، إلا عند مَن جعل التوكُّل شرط الزهد.

وأما عَرْضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة: نصف رطل، وأوسطه: رطل، وأعلاه: مد واحد. وهو ما قدَّره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به. ومَن لم يقدر على الاقتصار على مدٍّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب.

وأما بالإضافة إلى الجنس، فأقلُّه: كلُّ ما يقوت ولو الخبز من النخالة، وأوسطه: خبز الشعير والذرة، وأعلاه: خبز البر غير منخول، فإذا ميِّز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعُّم، وخرج عن آخر أبواب الزهد، فضلا عن أوائله.

وأما الأُدْم، فأقلُّه: الملح أو البقل والخل، وأوسطه: الزيت أو يسير من الأدهان، أي دهن كان، وأعلاه: اللحم، أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرَّة أو مرَّتين. فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع، خرج عن آخر أبواب الزهد، فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا.

وأما بالإضافة إلى الوقت، فأقلُّه في اليوم والليلة: مرَّة، وهو أن يكون صائما، وأوسطه: أن يصوم ويشرب ليلة، ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه: أن ينتهى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه.

ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضوان الله عليهم، في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة، وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار. قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء[1]. وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

وقال الحسن: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار، ويلبس الصوف، وينتعل المخصوف، ويلعق أصابعه، ويأكل على الأرض، ويقول: "إنما أنا عبد، آكل كما تأكل العبيد، وأجلس كما تجلس العبيد"[2].

وقال المسيح عليه السلام: بحقٍّ أقول لكم: إنه مَن طلب الفردوس، فخبز الشعير له، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير[3].

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم، منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البرِّ[4].

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح، والبقل البري، وخبز الشعير، وإياكم وخبز البُر، فإنكم لن تقوموا بشكره[5].

1- رواه ابن المبارك في الزهد (969)، والطيالسي (1575)، والحاكم في الأطعمة (106/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عائشة.

2- رواه هناد في الزهد (799)، عن الحسن البصري.

3- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (443/47).

4- روى مسلم في الزهد والرقائق (2976)، وأحمد (9611)، والترمذي في الزهد (2358)، وابن ماجه في الأطعمة (3343)، عن أبي هريرة قال: والذي نفس أبي هريرة بيده، ما شبع نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة، حتى فارق الدنيا.

5- رواه مالك في صفة النبي (1665)، وأبو نعيم في الحلية (328/6)، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (4584)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (425/47)، عن مالك بلاغا.

مهم الملبس:

المهم الثانى: الملبس، وأقل درجته: ما يدفع الحرَّ والبرد، ويستر العورة، وهو كساء يتغطَّى به، وأوسطه: قميص وقلنسوة ونعلان، وأعلاه: أن يكون معه منديل وسراويل، وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حدَّ الزهد.

وشرط الزاهد: أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه، بل يلزمه القعود في البيت، فإذا صار صاحب قميصين وسروالين ومنديلين، فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار.

أما الجنس، فأقله: المسوح الخشنة، وأوسطه: الصوف الخشن، وأعلاه: القطن الغليظ.

وأما من حيث الوقت: فأقصاه: ما يستر سنة، وأقله: ما يبقى يوما، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه: ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه، فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل، وهو مضادٌّ للزهد، وإلا إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوَّته ودوامه، فمَن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدَّق به، فإن أمسكه لم يكن زاهدا، بل كان محبًّا للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة، كيف تركوا الملابس. قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها، كساء ملبَّدا، وإزارا غليظا، فقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين[1].

ولبس خاتما من ذهب، ونظر إليه على المنبر نظرة، فرمى به، فقال: "شغلني هذا عنكم، نظرة إليه، ونظرة إليكم[2].

وعُدَّ على قميص عمر رضي الله عنه، اثنتا عشرة رقعة بعضها من أُدم[3].

واشترى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة، وقطع كميه من الرسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه[4].

وقال الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء، ولا يحقرك عند الجهال.

1- متفق عليه: رواه البخاري (5818)، ومسلم (2080)، كلاهما في اللباس، كما رواه أحمد (24037)، وأبو داود (4036)، والترمذي (1733)، وابن ماجه (3551)، ثلاثتهم في اللباس، عن عائشة.

2- رواه أحمد (2960)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والنسائي (5289)، وابن حبان (4593)، والطبراني (40/12)، عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح النسائي (4883).

3- رواه المبارك في الزهد (964)، وابن سعد في الطبقات (328/3)، عن الحسن البصري.

4- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (483/42)، عن ابن عباس.

وكان يقول: إن الفقير ليمرُّ بي وأنا أُصلِّي فأدعه يجوز، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزَّة فأمقته ولا أدعه يجوز! وقال بعضهم: قوَّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني، وشرُّها ما خدمته.

وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها ما يشهرك، فينظر إليك.

وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة: ثوب لله، وهو ما يستر العورة، وثوب للنفس، وهو ما يطلب لينه، وثوب للناس، وهو ما يطلب جوهره وحسنه[1].

وقال بعضهم: مَن رقَّ ثوبه رقَّ دينه.

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما، وكان الخوَّاص لا يلبس أكثر من قطعتين؛ قميص ومئزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه.

ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة، وهو يعظ فقال: انظروا إلى أميركم، يعظ الناس وعليه ثياب الفسَّاق! وكان عليه ثياب رقاق.

وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزَّته فجعل يتكلَّم في الزهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه، وجعل يضرط به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر، فقال: أنت صنعتَ بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزَّة.

وقال علي رضي الله عنه: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس، ليقتدي بهم الغني، ولا يزري بالفقير فقره.

ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع، وأجدر أن يقتدي به المسلم[2].

ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعُّم، وقال "إن لله تعالى عبادًا ليسوا بالمتنعمين"[3].

وقال علي لعمر رضي الله عنهما: إن أردتَ أن تلحق بصاحبيك، فارفع القميص، ونكِّس الإزار، واخصف النعل، وكُل دون الشبع.

1- رواه أبو نعيم في الحلية (274/9).

2- رواه ابن الجعد في مسنده (2147)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (141)، والحاكم في معرفة الصحابة (143/3)،، وسكت عنه هو والذهبي، وأبو نعيم في الحلية (83/1)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (485/42)، عن زيد بن وهب.

3- رواه أحمد (22105)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لضعف بقية بن الوليد، وهو مدلس تدليس التسوية، وقد عنعن، وأبو نعيم في الحلية (155/5)، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي (6178)، عن معاذ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورواته ثقات (438/10)، وصححه الألباني في الصحيحة (353).

وقال عمر: اخشوشنوا، وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر.

وقال علي رضي الله عنه: مَن تزيَّا بزي قوم فهو منهم.

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: ما لك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال: وما للعبد والثوب الحسن؟ فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا.

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، أنه كان له جبَّة شعر وكساء يلبسهما من الليل إذا قام يصلِّي.

مُهِم المسكن:

المهم الثالث المسكن: وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات:

أعلاها: أن لا يطلب موضعا خاصًّا لنفسه، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعا خاصًّا لنفسه، مثل كوخ مبنيٍّ من سعف أو جص ما يشبهه.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنيَّة إما بشراء أو إجارة، فإن كان قدر سَعَة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة، ولم يكن فيه زينة، لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإن طلب التشييد والتجصيص والسَّعَة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع، فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن.

فاختلاف جنس البناء، بأن يكون من الجصّ أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسَّعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات، بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا، وللزهد مدخل في جميع ذلك.

وبالجملة، كلٌّ ما يراد للضرورة، فلا ينبغي أن يجاوز حدَّ الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضادٌّ للدين.

والغرض من المسكن: دفع المطر والبرد، ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول، والفضول كلُّه من الدنيا، وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدًّا.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبد شرًّا، أهلك ماله في الماء والطين"[1].

وقال عبد الله بن عمرو: مرَّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن نعالج خُصًّا فقال: "ما هذا؟". قلنا: خص لنا قد وَهَى. فقال: "أرى الأمر أعجل من ذلك"[1].

1- رواه الطبراني في الكبير (185/2)، والأوسط (9369)، وفي الصغير (1127)، عن جابر، وضعفه الألباني في الضعيفة (2294)، وعزاه العراقي لأبي داود عن عائشة، وليس فيه.

وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محيريز، وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحتَه. فقال: كم من رجل قد مات، وهذا قائم على حاله.

وفي الخبر: "كلُّ نفقة في الأرض يؤجر عليها، إلا ما أنفقه في التراب" أوقال: "في البناء"[2].

وكان من السلف مَن يبني داره مرارا في مدَّة عمره لضعف بنائه، وقصر أمله، وزهده في إحكام البنيان. وكان منهم مَن إذا حجَّ أو غزا نزع بيته، أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده. وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة.

قال الحسن: كنتُ إذا دخلتُ بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضربتُ بيدي إلى السقف.

وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع، ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيَّد، وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا، فالنظر إليه مُعينٌ عليه.

وقال الفضيل: إني لا أعجب ممن بنى وترك، ولكن أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين، ويضعون الدين، ويستعملون البرازين، يصلون إلى قبلتكم، ويموتون على غير دينكم.

مهم الأثاث:

المهم الرابع: أثاث البيت، وللزهد فيه أيضا درجات:

أعلاها: حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه، وعلى كل عبد مصطفى، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز، فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كلِّ أثاث، فإنه إنما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة، وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقلِّ الدرجات، وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف، ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف، إذا كان المقصود يحصل به.

1- رواه أحمد (6502)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الأدب (5236)، والترمذي في الزهد (2335)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد (4160)، عن عبد الله بن عمرو، وفي الإحياء ابن عمر، والمثبت الصواب.

2- رواه البخاري في المرضى (5672)، وأحمد (21069)، والترمذي في صفة القيامة (2483)، وابن ماجه في الزهد (4163)، عن خباب موقوفا.

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة، صحيح في نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها، ويشرب فيها، ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبُّون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

وأعلاها: أن يكون له بعدد كلِّ حاجة آلة، من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد، وركن إلى طلب الفضول.

ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها.

كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي ينام عليه، وسادة من أدم حشوها ليف[1].

ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عينا عمر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب؟". قال: ذكرتُ كسرى وقيصر، وما هما فيه من الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيُّه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط. فقال صلى الله عليه وسلم: "أما ترضى يا عمر، أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟". قال: بلى، يا رسول الله. قال: "فذلك كذلك"[2].

ودخل رجل على أبي ذر، فجعل يقلِّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعا، ولا غير ذلك من الأثاث؟ فقال: إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من متاع، ما دمت ههنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه[3]!

وقال الحسن: أدركتُ سبعين من الأخيار، ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه، وجعل ثوبه فوقه.

مهم المنكح (الزواج):

1- رواه مسلم في اللباس والزينة (2082)، وأحمد (24209)، وأبو داود في اللباس (4147)، والترمذي في اللباس (1761)، وابن ماجه في الزهد (4151)، عن عائشة.

2- رواه أحمد (12417)، وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، من أجل مبارك وهو وإن كان مدلسا، قد صرح بالتحديث في بعض مصادر التخريج، والبخاري في الأدب المفرد كتاب آداب المجلس (1163)، وابن أبي عاصم في الزهد (199)، وأبو يعلى (2782)، وابن حبان في التاريخ (6362)، عن أنس.

3- رواه البيهقي في الشعب باب الزهد (10651)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (211/66).

المهم الخامس: المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبد الله، وقال: قد حبِّب إلى سيد الزاهدين النساء، فكيف نزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة، وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سُرِّيَّة.

والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله، إذ قال: كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو عليك مشئوم[1]. والمرأة قد تكون شاغلا عن الله.

فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذَّته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا ثبت هذا، فمَن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أنه لا يشغله كثرة النسوة، ولا اشتغال القلب بإصلاحهن، والإنفاق عليهن، فلا معنى لزهده فيهن، حذرا من مجرَّد لذَّة الوقاع والنظر، ولكن أنَّى يُتصوَّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن، أو جمال المرأة، فلينكح واحدة غير جميلة، وليراعِ قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة، على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجنيد رحمه الله: أحبُّ للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث، وإلا تغيَّر حاله: التكسب، وطلب الحديث، والتزوُّج! وقال: أحبُّ للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ! لأنه أجمع لهمِّه، فإذا ظهر أن لذَّة النكاح كلذَّة الأكل، فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا.

الجاه:

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه.

وأما المال فهو ضروري في المعيشة، أعني القليل منه، فإن كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبَّتين رفع سفطه وقام، هذا شرط الزهد، فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة، فقد خرج عن حدِّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوَّة يقين في التوكُّل، فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة، فلا

1- رواه أبو نعيم في الحلية (264/9)، والخطيب في تاريخ بغداد (248/10)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (129/34).

يخرج بهذا القدر عن الزهد، بشرط أن يتصدَّق بكلِّ ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكُّل في الزهد كما شرطه أُويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد، وقولنا: إنه خرج من حدِّ الزهاد. نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة.

فإذًا ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سمٌّ قاتل، والمقتصر على الضرورة دواء نافع. وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضرٌّ، وما يَقْرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا، لكنه قليل الضرر، والسمُّ محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمَن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومَن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومَن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة، فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة[1] انتهى.

1- إحياء علوم الدين (4/241-230).

وقفات نقدية أمام الغلاة في الزهد

المخلصون من الصوفية قوم مجتهدون في طاعة الله، ولكنهم ليسوا أنبياء معصومين، ولا ملائكة مطهَّرين، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ومَن كان من أهل العلم منهم، فهو معذور في خطئه، بل مأجور عليه أجرا واحد. وقد نقلنا عن كثير منهم أقوالا حسنة مقبولة في بيان حقيقة الزهد، والتعريف به، كلٌّ منهم يعبِّر فيه عن حاله ووجدانه، ومجموعها يعطي صورة طيبة عن الزهد والزاهدين، الذين يعيشون في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، ويمشون على الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء، ويتعاملون بظاهرهم مع الخلق وبواطنهم معلَّقة بالخالق.

ولكن منهم مَن بالغ في تصوير الزهد، بحيث يحرم الناس من طيبات الدنيا، ويُشعِر المسلم المتدين في عصرنا بأنه قليل الدين، وأنه لا أمل له أن يصبح من أهل الآخرة، أو يقرُب من أهل التقوى، الذين قال الله فيهم: **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** [آل عمران:133].

ومن هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي الذي أحبُّه وأقدِّره لأمانته وإخلاصه لله، وخدمته للعلم والدين، ومقاومة أعداء الإسلام والمسلمين، حتى سُمِّي بحقِّ (حجَّة الإسلام).

فقد بالغ في تقدير ما ينبغي للزاهدين من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وأثاث، بحيث يظنُّ المسلم المعاصر أنه بعُد جدا عن حقيقة التديُّن المنشود.

وهؤلاء هم الذين نقف معهم في هذا المبحث وقفة نقدية، فليس في العلم كبير، وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم معصوم.

أولا: مصطلح الزهد والزهاد ليس قرآنيا ولا نبويا:

ويهمُّني أن أؤكِّد هنا ما ذكرتُه من قبل، وهو ما لا ينبغي أن يغيب عنا، وهو إن مصطلح (الزهد) أو (الزهاد) أو (الزاهدين) ليس من (المصطلحات القرآنية) أو (النبوية) التي يعرفها العلماء والدارسون.

إنما يعرف العلماء والدارسون المسلمون مفاهيم ومصطلحات (الإيمان) و(الصلاح) و(البر) و(التقوى) و(الإحسان) و(العبادة) و(العبودية للرحمن) ونحوها, وهي التي رُتِّبت عليها خيرات الدنيا والآخرة, ويعرف العلماء المسلمون المشتقَّات منها, التي تكرَّرت في القرآن الكريم، تنويها بها, وثناء

على أصحابها, ووعدا لهم بأحسن الجزاء في الآخرة والأولى, وبيانا لخصالهم وأوصافهم التي تميَّزوا بها, واستحقُّوا هذا العطاء, وذاك الجزاء من قبل الله تعالى عليهم.

من أوصاف المؤمنين في القرآن:

فنجد في القرآن بيانا ناصعا جليًّا لأوصاف (المؤمنين)، كما في قوله تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** [الأنفال:2-4].

وقوله في أول سورة المؤمنين: **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [المؤمنون:1-11].

وقوله في سورة الحجرات: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** [الحجرات:15].

وقوله في سورة النور: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [النور:51].

وفي سورة الأحزاب: **{إِ نَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الأحزاب:36].

كما بيَّن القرآن صفات الكافرين الصرحاء, والمنافقين المتلوِّنين, ليميِّز المؤمنين غاية التمييز.

من صفات المتَّقين في القُرآن:

وكذلك ميَّز القرآن صفات (المتقين) بجلاء, كما في أول سورة البقرة: **{هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [البقرة:2–5].

وفي نفس السورة بيَّن القرآن حقيقة البرِّ، الذي يعبِّر عن حقيقة التديُّن, وليس عن مجرَّد شكله, ويردُّ على اليهود الذين حاولوا أن يجعلوه مجرَّد الاتجاه إلى قبلة في المشرق أو المغرب, فيقول تعالى: **{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}** [البقرة:177].

وفي سورة آل عمران بيَّن القرآن خصال (المتقين)، الذين يستحقُّون جنة الله فقال: **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}** [آل عمران:133–136].

وفي سورة الأعراف: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}** [الأعراف:201]، فبيَّن القرآن أن الشيطان ممكن أن يمسَّ المتقين, فليسوا ملائكة مطهَّرين, ولا أنبياء معصومين, ولكن سرعان ما يتذكَّرون جلال الله تعالى ورقابته وحسابه وجزاءه, فإذاهم مبصرون الحقيقة, ومبصرون الغاية, ومبصرون الطريق.

بل إن المتقين قد يرتكبون الكبيرة بفعل الفاحشة، أو الصغيرة بظلم النفس, ولكنهم سرعان ما يذكرون الله فيستغفرون لذنوبهم, ويتوبون إلى ربهم: **{وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [آل عمران:135].

صفات الأبرار والمحسنين:

كما بيَّن القرآن وصف الأبرار من عباد الله, الذين يسأل الكثيرون أن يتوفَّاهم الله معهم، **{وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}** [آل عمران:193].

فيجلِّيهم ربنا في سورة الإنسان, فيقول: **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا**

شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان:7–12].

وبيَّن القرآن كذلك صفات المحسنين, فقال في سورة الذاريات: **{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}** [الذاريات:16–19].

صفات عباد الرحمن:

وبيَّن القرآن صفات عباد الرحمن فقال: **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}** [الفرقان:63–76].

صفات أولي الألباب:

ويبيّن القرآن صفات أولي الألباب, فيقول في سورة الرعد: **{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}** [الرعد:19–24].

كما يقول تعالى في سورة الزمر: **{فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}** [الزمر:17–18].

كما حدَّثتنا سورة آل عمران عن بعض أوصافهم: **{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** [آل عمران:191–149].

فمَن أراد أن يكون واحدًا من هذه الأصناف, فهذه أوصافهم, وهذه مميزاتهم مبيَّنة مفصَّلة, مشرقة ناصعة, وفي السنة بيان أوفى وتفصيل أكثر, حتى إن (شعب الإيمان) قد صنَّف لها الإمام البيهقي مصنفا كبيرا, ظهر محقَّقا في سبعة عشر جزءًا.

ليس كل ما يروى عن الزهاد مقبولا شرعا:

أما (الزهاد) أو (الزاهدون) فلا نجد لهم ذكرا في القرآن ولا في السنة, وإنما نجد مَن يتحدث عنهم, كلام أناس من أهل التجربة الروحية, ممَّن يصيبون ويخطئون, ويَغْلُون أو يقصرون, إذ لا عصمة لهم, ولا وحي يسدِّدهم إذا أخطأوا, فلا غرو أن تجد في سلوكياتهم وفي أقوالهم كثيرا من التجاوزات, التي قد توصف بالتشدُّد, أو تتَّهم بالقسوة على النفس, أو بالبعد عن سنن الله تعالى في الكون والمجتمع.

مثل دخولهم البادية المقفرة بغير زاد ولا رُفقة, ومثل عيشهم على خبز الشعير الجاف بغير ملح, واعتبار الملح ترفا يفسد عليهم طريقتهم, وتحريمهم شرب الماء البارد على أنفسهم, وتحريم بعضهم على أنفسهم أن يناموا على فراش, أو يضطجعوا على جنوبهم, واستمرارهم شهورا طويلة، بل سنين عديدة بلا نوم لين, حتى روى بعضهم: أنه عاشر واحدًا منهم أربع سنوات, فلم يره نام في ليل ولا نهار! فأين هذا من قول الله تعالى: **{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}** [النبأ:10،

11]، وقوله تعالى: {**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [القصص:71-73].

ومثل أن يعيش أحدهم بثوب واحد, إذا أراد أن يغسله لم يخرج من بيته, ومثل أن يحرّموا على أنفسهم بناء بيت يسكنون فيه, فهذا من طول الأمل الذي يتنافى مع الزهد, كما ألزموا أنفسهم لبس الصوف الخشن, وحرَّموا على أنفسهم التجمُّل وزينة الله التي أخرج لعباده, والطيبات من الرزق.

تحذيره صلى الله عليه وسلم من الغلوّ في الدين:

عن أبي قِلابة: أراد أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يرفضوا الدنيا، ويتركوا النساء، ويترهبوا. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغلظ فيهم المقالة، ثم قال: "إنما هلك مَن كان قبلكم بالتشديد، شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع، فاعبدوا الله ولا تشركوا به، وحجوا واعتمروا، واستقيموا يستقم بكم"[1].

قال: ونزلت فيهم: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ**} [المائدة:87][2].

وفي الحديث: "إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين"[3].

بهذه الصيحات الهادرة، والتوجيهات الجليَّة، وقف النبي بأصحابه عند حدود الله، وأرادهم أن يكونوا أمة وسطا، وشَهَر سلاحه في وجه كلِّ نزعة تدعو إلى الغلو والانحراف، وقد فَهم أصحابه رُوح الإسلام، واهتدوا بهديه، وقوَّم بعضهم بعضا إذا رأى مبالغة أو زيفا.

بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي:

كان أبو الدرداء رجلا نزَّاعا إلى كثرة العبادة، زاهدا في الحياة الدنيا، وكان سلمان الفارسي أخا له في الله، استطاع أن يتمثَّل تعاليم الإسلام حقًّا، ويتحرَّر من آثار الديانات التي مارسها قبل إسلامه، من وثنية فارسية، أو كتابية (رهبانية) نصرانية.

أخرج البخاري، عن أبي جُحَيْفة قال: آخى النبيُّ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء يوما، فرأى أم الدرداء متبَذِّلة. ليس عليها لباس الزينة كما تفعل الزوجات لأزواجهن، لابسة ثياب البِذْلة أي المهنة.

1- رواه ابن المبارك في الزهد (1031).

2- انظر: الدر المنثور للسيوطي (140/3)، دار الفكر، بيروت.

3- رواه أحمد (1754)، والنسائي (3007)، وابن ماجه (3020)، كلاهما في المناسك، عن ابن عباس.

فقال لها: ماشأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء، ليس له حاجة في الدنيا.

فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاما، فقال: كُل، فإني صائم.

قال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل.

فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال سلمان: نم. فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم. فنام.

فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصَلَّيا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

فأتى أبو الدرداء للنبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال صلى الله عليه وسلم: "صدق سلمان"[1].

تصدِّي ابن الجوزي للمنحرفين عن المنهج الوسط في كتابه (تلبيس إبليس):

من أجل ذلك تصدَّى الإمام الموسوعي أبو الفرج بن الجوزي, لهذه المبالغات في التقشُّف, والحرمان من المأكل والمشرب, والملبس والمسكن وغيرها, وبيَّن مخالفتها للمنهج الشرعي المستمد من القرآن والسنة, وذلك في كتابه النقدي القيم: (تلبيس إبليس)، الذي نقد فيه فئات المجتمع المختلفة بميزان القرآن والسنة.

(وقيل لعبد الرحمن بن مهدى: يا أبا سعيد، إن ببلدنا قوما من هؤلاء الصوفية؟ قال: لا تقرب من هؤلاء، فإنا قد رأينا من هؤلاء قوما أخرجهم الأمر إلى الجنون، وبعضهم أخرجهم إلى الزندقة. ثم قال: خرج سفيان الثوري في سفر فشيَّعتُه، وكان معه سُفرة فيها فالوذج، وكان فيها حَمَل، ويقول: إن الدابة إذا أُحسن إليها عملت.

وقال رجل لأحمد بن حنبل: إني منذ خمس عشرة سنة قد ولع بي إبليس، وربما وجدتُ وسوسة، أتفكر في الله عز وجل! فقال أحمد: لعلك كنتَ تدمن الصوم! أفطر وكُل دسما، وجالس القُصَّاص.

قال ابن الجوزى: فإن قيل: كيف تمنعون من التقلُّل، وقد رويتم أن عمر رضي الله عنه، كان يأكل كلَّ يوم إحدى عشرة لقمة، وأن ابن الزبير كان يبقى أسبوعا لا يأكل، وإن إبراهيم التميمي بقي شهرين.

1- رواه البخاري في الصوم (1968)، والترمذي في الزهد (2413)، عن أبي جحيفة.

قلنا: قد يجري للإنسان من هذا الفن في بعض الأوقات، غير أنه لا يدوم عليه، ولا يقصد الترقِّي إليه. وقد كان في السلف مَن يجوع عَوَزًا، وفيهم مَن كان الصبر له عادة لا يضرُّ بدنه، وفي العرب مَن يبقى أياما لا يزيد على شرب اللبن. ونحن لا نأمر بالشبع، إنما ننهى عن جوع يضعف القوَّة، ويؤذي البدن، وإذا ضعف البدن قلَّت العبادة، فإن حملت البدن قوَّة الشباب، جاء الشيب فأقذع بالراكب.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان يُطرح لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الصاع من التمر فيأكله حتى حشفه.

وقد روينا عن إبراهيم بن أدهم، أنه اشترى زبدا وعسلا وخبزا حوارى. فقيل له: هذا كلُّه تأكله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال)[1].

روَوا عن الحسن البصري أنه دُعي إلى طعام ومعه فَرقَد السَّبَخِي – أحد الزاهدين – وأصحابه، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمَّن والفالوذ، وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان.

فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد، أترى لعاب النحل، بلباب البُرِّ بخالص السمن يعيبه مسلم؟!

وقيل له: إن فلانا لا يأكل الفالوذ. ويقول: لا أستطيع أن أؤدِّي شكره.

قال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم.

قال: إنه جاهل؛ إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر عليه من نعمته في الفالوذ!!

ومن كلمات الحسن البصري: إن الله أدَّب عباده فأحسن أدبهم، قال تعالى: **{لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ}** [الطلاق:7]، ما عاب الله قوما وسَّع عليهم الدنيا فتنعَّموا وأطاعوا، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه[2].

النهي عن اتباع الشهوات والإسراف في الملذات:

إنما يكره الإسلام اتباع شهوة البطن، والاستسلام لها، كما يكره السرف والامتلاء إلى حدِّ التُّخَمَة.

قال تعالى: **{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}** [الأعراف:31].

1- تلبيس إبليس صـ266-267.

2- انظر: الكشاف للزمخشري (640/1)، دار المعرفة، بيروت.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثُلث لطعامه، وثُلث لشرابه، وثُلث لنفسه"[1].

وقال: "كلوا واشربوا وتصدقوا، ما لم يخالطه إسراف ولا مخيلة"[2].

وعن ابن عمر: تجشَّأ رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "كفَّ عنا جُشَاءك، فإن أكثرهم شِبَعا في الدنيا، أطولهم جوعا يوم القيامة"[3]. والجشاء أو التجشُّؤ: تنفس المعدة من كثرة الأكل.

لهذا قال عليه السلام: "من الإسراف أن تأكل كلَّ ما اشتهيتَ"[4].

<u>حاجة الأمة إلى التقشف من أجل الجهاد والأعمال الإنسانية الكبرى:</u>

وما أحوج الأمم إلى هذا المبدأ، حين تأخذ نفسها بالتقشُّف من أجل جهاد واجب، أو أعمال إنسانية كبرى، وقد ضاق عمر بن عبد العزيز بمَن يحبُّون أن يتناولو كلَّ ما يشتهون، فقال: أو كل ما اشتهيتم اشتريتم؟

وفي مثل هذا ما يرويه جابر بن عبد الله الأنصارى قال: لقينى عمر بن الخطاب وقد ابتعتُ لحما بدرهم، فقال: ما هذا، يا جابر؟ قلتُ: قرم أهلى – اشتدَّت شهوتهم للحم – فابتعتُ لحما بدرهم، فجعل عمر يردِّد: قرم أهلى ... حتى تمنَّيتُ أن الدرهم سقط منى، ولم ألقَ عمر[5].

إن عمر لم يُرِد تحريم ما أحل الله، ولكن أراد أن يأخذ الأمة، وبخاصة علماؤها وذوو المكانة فيها كجابر، بنوع من التربية النفسية، يعلون فيه على الاستسلام للشهوات، فلا يشترون كلَّ ما يشتهون.

ويكون اتباع هذا أوجب في البلاد التي تضيق مواردها الطبيعية، ولا يستطيع الرجل العادي والفقير أن يأخذ حظَّه من طيبات الحياة، إذا لم يَدَع له الموسرون والقادرون مكانا باختيارهم، قناعة

1- رواه أحمد (17186)، وقال مخرجوه: رجاله ثقات، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدام، والترمذي في الزهد (2380)، وقال: حسن صحيح، وابن حبان في الرقائق (674)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في الأطعمة (121/4)، وسكت، وصححه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (5650)، عن المقدام بن معديكرب، وصححه الألباني في الصحيحة، ونقل تصحيح الحاكم! (2265).

2- رواه أحمد (6695)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والنسائي في الزكاة (2559)، وابن ماجه في اللباس (3605)، وابن أبي شيبة في العقيقة (25374)، والحاكم في الأطعمة (135/4)، وصححه على شرط مسلم، وقال الذهبي: سويد بن عبد العزيز متروك، عن عبد الله بن عمرو .

3- رواه الترمذي في صفة القيامة (2478)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الأطعمة (3350)، والطبراني في الأوسط (4109)، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (5646)، عن ابن عمر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والكبير بأسانيد وفي أحد أسانيد الكبير محمد بن خالد الكوفي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات (34/5)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (2015).

4- رواه ابن ماجه في الأطعمة (3352)، وأبو يعلى (2765)، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (5721)، عن أنس.

5- رواه البيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (5673)، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (2144).

منهم وإيثارا. وهذا يفسِّر لنا قول عائشة: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثلاثة أيام من خبز الشعير[1].

وما رُوي أن عمر قال لجابر ومعه اللحم: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه، فأين تذهب عنكم هذه الآية: **{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا}** [الأحقاف:20][2].

محاربة الإسلام للترف والنعومة والإفراط في الشبع:

إن الإسلام يبيح التمتُّع بالطيبات، ولكنه يحارب الترف والنعومة، عن معاذ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما بعثه إلى اليمن، قال له: "إياك والتنعُّم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين"[3].

إن الإفراط في الشبع يؤدي إلى السِّمَن الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذمَّ أصحابه، وقد أخبر أن بعد القرون الأولى، يأتي قوم "يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يَفُون، ويظهر فيهم السمن"[4]، فالسمنة حمل ثقيل على صاحبه، وقيد معطِّل عن النشاط، ومرض تقصر به الأعمار.

رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا عظيم البطن، فقال بأصبعه، مشيرا إلى بطنه: "لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك"[5].

وهذا معنى ما قيل: إن أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشِّبَع. يعني الإفراط فيه، فإن القوم لما شبعت بطونهم، سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم، وجمحت شهواتهم.

ورحم الله الحافظ المنذري، فحين أورد هذه الأحاديث في كتابه (الترهيب والترغيب) جعل عنوانها: (الترهيب من الإمعان في الشِّبَع، والتوسُّع في المآكل والمشارب شَرَهًا وبَطَرًا).

1- رواه مسلم (2970)، والترمذي (2357)، كلاهما في الزهد، وابن ماجه في الأطعمة (3346)، عن عائشة.

2- رواه مالك في صفة النبي (1674)، والحاكم في التفسير (455/2) شاهدا، وقال الذهبي: القاسم- أحد الرواة- واه، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (5672)، عن عمر.

3- سبق تخريجه.

4- متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (2651)، ومسلم في فضائل الصحابة (2535)، كما رواه أحمد (19835)، والنسائي في الأيمان والنذور (3809)، عن عمران بن حصين.

5- رواه أحمد (15868)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، والطبراني (284/2)، والحاكم في الأطعمة (122/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب المطعام والمشارب (5666)، عن جعدة الجشمي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني باختصار ورجاله رجال الصحيح غير أبي إسرائيل الجشمي وهو ثقة (415/8).

ونزيد على ذلك: إن هذا المنهج (الرهباني) لا يتربَّى به مؤمن قوي, ولا يصلُح به مجتمع متحضِّر, ولا تُبنى عليه أمة ذات رسالة عالمية, وهو أبعد ما يكون عن منهج (الأمة الوسط)، التي جمعت بين الدنيا والآخرة, ومزجت بين الرُّوح والمادة, ووصلت العقل بالقلب, وواءمت بين الحقوق والواجبات, وربطت بين العلم والإيمان.

يمكن أن تقوم عليه طائفة من الناس، منعزلة عن الحياة، منقطعة عن العالم وما يجري فيه، بعيدة عن هموم الأمة وقضاياها وصراعاتها مع أعدائها الذين يكيدون لها، ويتربصون بها الدوائر.

ثانيا: زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا:

ومن المهم هنا أن نؤكد أن الصور التفصيلية لحياة الزهد والزهاد في الأزمنة الماضية, لم تعد تصلح للتطبيق في عصرنا, وإذا كنا نحن نقول في أحكام الفقه العام, في شؤون الأفراد والأمة والمجتمع: إن الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والحال والعُرْف وغيرها, فنحن أيضا نقول مثل هذا في (فقه السلوك)، فالإنسان ابن زمانه ومكانه وبيئته, شاء أم أبى.

ولا يمكن لإنسان مهما يكن مكانه في الصلاح والتقوى, أو في الزهد والإعراض عن الدنيا, أن يتخلَّى عن عصره وبيئته تخلِّيا مطلقا, ولذا وجدنا أيوب السختياني يطوِّل قميصه حتى يقع على قدميه, ويقول: كانت الشهرة في التطويل واليوم الشهرة في التقصير[1].

ومن هنا نجد بعض ما ذُكر عن الزهاد والصوفية في الأزمنة الماضية – ربما قبل منهم, وربما مُدحوا به – لا يمكن أن يقبل بحذافيره اليوم, فما ذكره الإمام الغزلي في كتابه (كسر الشهوتين) في ربع المهلكات من الإحياء, أو كتاب (الفقر والزهد) من ربع المنجيات, من تقليل المطاعم والمشارب, أو التقشف في الملابس أو البيوت والمساكن, لم يعد اليوم مستساغا ولا مرضيًّا بمنطق العصر, وفي ضوء معارف العصر, وتقنيات العصر, وضروريات العصر.

وفي الحديث: "إن الله عزَّ وجلَّ يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده"[2]، في مأكله ومشربه، وملبسه ومسكنه. ولهذا كان بكر بن عبد الله يقول: مَن أُعطي خيرا فرُئي عليه أثره، سُمِّي حبيب

1- صيد الخاطر لابن الجوزي صـ219، تحقيق الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية 1408هـ 1988م.

2- رواه والترمذي في الأدب (2819)، وحسنه، والطيالسي (2375)، والحاكم في الأطعمة (135/4)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي (6196)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (2260)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

الله، محدِّثا بنعمة الله عزَّ وجلَّ، ومَن أُعطي خيرا فلم يُرَ عليه، سُمِّي بغيض الله، معاديا لنعمة الله عزَّ وجلَّ[1].

مواصفات الطعام الصحي اللازم للإنسان:

إن (الطعام الصحي) الذي يمنح الإنسان الوقود اللازم لتشغيل الماكينة, والقيام بالدور المطلوب منه، والذي يقي الإنسان من الأمراض وسوء التغذية، له مواصفات أصبحت معروفة لجماهير الناس, فلا بد أن يتضمَّن عناصر متوازنة من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات (النشويات والسكريات) والأملاح والمعادن والفيتامينيات، وغياب عنصر من هذه العناصر بصفة دائمة أو غالبة, يعرِّض صاحبه للآفات, ويُلقي به إلى التهلكة, ويوقعه في الضرر, ومن المعروف أن الإسلام يحافظ على أبدان الناس وصحَّتهم وحياتهم, وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لجسدك عليك حقًّا"[2].

وكان عليه السلام يتخيَّر الماء الصافي، ويُستعذَب له الماء، ويحبُّ الحلو البارد، حتى إنه ليقول في دعائه لربِّه ومناجاته له: "اللهم اجعل حبَّك أحبُّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد"[3].

روى البخاري، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتى قوما من الأنصار يعود مريضا فاستسقى – طلب أن يشرب – وجدول قريب منه، فقال: "إن كان عندكم ماء بات في شنة وإلا كرعنا"[4].

وروي عن عائشة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يُستقَى له الماء العذب من بئر السقيا[5].

ضرورة المحافظة على النفس:

وقرَّر الفقهاء والأصوليون من علماء الإسلام: أن المحافظة على النفس (أي: الحياة والصحَّة) من الضروريات الخمس, التي اتَّفقت على حفظها كلُّ الشرائع السماوية، ولا سيما الإسلام.

1- رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (54)، وفي العيال (364)، يرفعه، وهو مرسل.

2- متفق عليه: رواه البخاري (1975)، ومسلم (1159)، كلاهما في الصوم، كما رواه أحمد (6867)، والنسائي في الصيام (2391)، عن عبد الله بن عمرو.

3- رواه الترمذي في الدعوات (3490)، وقال: حسن غريب، والحاكم في التفسير (433/2)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: بل عبد الله بن يزيد الدمشقي هذا قال أحمد: أحاديثه موضوعة، عن أبي الدرداء.

4- رواه البخاري في الأشربة (5613)، وأحمد (14519)، وأبو داود (3724)، وابن ماجه (3432)، كلاهما في الأشربة، عن جابر.

5- رواه أبو داود في الأشربة (3735)، وأبو يعلى (4613)، وابن حبان في الأشربة (5332)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (6033)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (3178).

قاعدة لا ضرر ولا ضرار:

كما أن من القواعد الشرعية القطعية المتَّفق عليها, قاعدة: (لا ضرر ولا ضرار). أي: لا يجوز للإنسان أن يضرَّ نفسه, ولا أن يضارَّ غيره, ولا ريب أن تناول الطعام غير الصحي باستمرار، سواء من ناحية جنسه, أو من ناحية قدره وكميته, ضار بالإنسان, ويسبِّب الأمراض, بشهادة وإجماع علماء الطب، وعلماء الصحَّة، وعلماء التغذية، وبشهادة الواقع الذي يلمسه جمهور الخلق.

إن بدن الإنسان هو مطيَّته التي يستخدمها للوصول إلى مقاصده الدينية والدنيوية, ولهذه المطيَّة عليه حقٌّ: أن يطعمها إذا جاعت, ويسقيها إذا عطشت, وينظِّفها إذا اتَّسخت, ويريحها إذا تعبت, ويداويها إذا مرضت, حتى يمكنها الاستمرار في حمله وتوصيله إلى حيث يريد.

اختلافات الأذواق والتوجهات:

على أن لكلِّ عصر، ولكل بلد ذوقه وتوجُّهه في المآكل والمشارب والملابس, والمساكن والأثاث وغيرها, والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم, كما قال علي رضي الله, وكذلك يقال في البيئة.

فلا يستطيع أحد أن يلبس في عصرنا (المرقَّعات) التي كان يلبسها الصوفية فيما مضى, ولا يستطيع أحد أن يلبس الثياب الرديئة التي تزري بمكانته بين الناس, ولا أن يخرج عن السائد في المجتمع, وإذا خرج عن هذا كان ثوبه ثوب شهرة, وهو مذموم شرعا, كما جاء في الحديث: "مَن لبس ثوب شهرة في الدنيا، ألبسه الله ثوب مذلَّة"[1].

ارتقاء نوع اللباس في عصرنا:

وقد ارتقى نوع اللباس في عصرنا في العالم كلِّه بالنسبة للعصور الماضية, بمناسبة ارتقاء صناعة الغزل والنسج والخياطة والتطريز, بحيث أن ما كان ترفا في الماضي، أصبح شيئًا عاديا اليوم, وغدا يلبسه الفقراء والفئة الدنيا من الناس اليوم, فهذه أحوال تتغيَّر وتتطوَّر بتغيُّر الزمان والمكان والحال, ولاسيما في زمن (العولمة)، حيث تقارب العالم وتداخل, حتى أصبح كأنه قرية واحدة.

كل لباس فيه شهرة فهو مكروه:

1- رواه أحمد (5664)، وقال مخرجوه: حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك، وبقية رجاله ثقات، وأبو داود (4030)، وابن ماجه (3606)، كلاهما في اللباس، والنسائي في الكبرى كتاب الزينة (9560)، عن ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (3400).

قال العلامة ابن الجوزي: (وكان في الصوفية مَن يجعل على رأسه خرقة مكان العمامة, وهو أيضا شهرة, لأنه على خلاف لباس أهل البلد, وكلُّ ما فيه شهرة فهو مكروه.

قال بشر بن الحارث: إن ابن المبارك دخل المسجد يوم جمعة, وعليه قلنسوة, فنظر إلى الناس ليس عليهم قلانس, فأخذها فوضعها في كمه)[1].

البيوت السكنية في عصرنا:

والبيوت السكنية, أو ما يسمُّونه (الشقق السكنية) لم يعد الإنسان حرًّا في أن يبنيها من اللبِن, أو ينشئ له خصا في مدينة أو قرية, فإن للبناء قواعد وتراخيص والتزامات لا بد من مراعاتها, حتى لا يتشوَّه منظر المدينة أو القرية, وحتى لا تتعرَّض الأبنية لخطر الانهيار, فيتضرَّر ما حولها ومَن حولها.

العناية بالأسرة والأولاد في مسكنهم وتعليمهم:

على أن الزاهد أو الصوفي إذا بنى فهو لا يبني لنفسه فقط, بل يبني لأسرته وأولاده, وهم ليسوا ملزمين بأن يعيشوا على طريقته في الزهد في الفضول والمباحات, وقد قال أبو سليمان الداراني: لا ينبغي للرجل أن يرهق أهله إلى الزهد, بل يدعوهم إليه, فإن أجابوا وإلا تركهم, وفعل بنفسه ماشاء.

قال الغزالي: (معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصُّه, ولا يلزمه كلُّ ذلك في عياله, ثم لا ينبغي أن يجيبهم فيما يخرج عن حدِّ الاعتدال)[2].

وإذا كان هؤلاء الأولاد في سن التعليم, فيجب عليه أن يوفِّر لهم ما يحتاجون إليه في تعليمهم من التوصيل إلى المدارس، ومن شراء الكتب والأدوات المدرسية، ومن دفع الرسوم إن كانت مطلوبة، وغير ذلك من كلِّ ما يطلب لأمثالهم من البنين والبنات, ولا يجوز له أن يهملهم بدعوى الزهد, ويحرمهم من حقِّهم في التعليم, الذي يناله زملاؤهم ورفقاؤهم, ويتأكَّد ذلك إذا كانوا نوابغ يمكن أن تستفيد الأمة من نبوغهم ونجابتهم, في علوم الدين أو علوم الدنيا.

ومعلوم أن المسكن الذي فيه أبناء وبنات يتعلَّمون لا بد أن تكون له مواصفات خاصة, من حيث سَعته، ومن حيث الأثاث, والحديث يقول في شأن الأولاد: "فرِّقوا بينهم في المضاجع"[3]، إذا بلغوا عشر سنين, وهنا ينبغي أن يكون للذكور حُجَرهم، وللإناث حجرهم, كما ينبغي أن تزوَّد

1- تلبيس إبليس صـ253.

2- الإحياء (239/4).

3- رواه أحمد (6756)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، وأبو داود في الصلاة (495)، والحاكم في الصلاة (197/1)، والدارقطني في الصلاة (230/1)، والبيهقي في الكبرى (228/2)، عن عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (466).

حُجَرهم بالإضاءة الكافية, والأثاث المعين على القراءة والكتابة, وفي الحديث الصحيح: "فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان"[1]، وهذا في حالة ما لم يكن له ولد, وإلا احتاج إلى فُرُش أخرى بقدر ما عنده من أولاد.

ثالثا: انتقاد منهج الإمام الغزالي:

ومنهج الإمام أبي حامد الغزالي في (الإحياء) منتقد من وجهين:

1. من جهة غلوِّ الصوفية وشطحاتهم وتجاوزاتهم في بعض الأحيان, استغراقا في التعبُّد لله تعالى, وحبِّ التقرُّب إليه, من غير استناد إلى أصل شرعي، وهذا هو أساس الابتداع في الدين, وما دفعهم إلى أن يشرعوا في دينهم ما لم يأذن به الله تعالى, من التقرُّب بالمحدَثات، والغلو في التعبُّدات, وهو أساس ابتداع النصارى للرهبانية, وما صحبها ولازمها من القسوة على النفس والغير, حينها كانوا يفرُّون من ظلِّ المرأة, ولو كانت أما أو أختا, وكانوا يتقرَّبون إلى الله بعدم الطهارة.

2. اعتماد الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كثير من استدلالاته على الأحاديث الضعيفة, بل الضعيفة جدا, والمنكرة والواهية, بل الموضوعة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك ما لا أصل له ولا سند في دواوين الحديث. وربما اعتذر بعضهم للغزالي: أن الأحاديث الضعيفة هنا، لا يؤخذ منها أحكام في الحلال والحرام, بل في فضائل الأعمال, والترغيب والترهيب, ولذا تساهلوا فيه, وأجازوا رواية الضعيف في خصوصه.

ونسَوا أن الضعيف في هذا المقام, يؤسِّس موقف الإسلام من الدنيا، أو من المال, أو من المرأة, أو من العزلة وعدمها, وهذا لا يقلُّ عن أحكام الحلال والحرام, بل هو أشدُّ خطرا منها.

شروط رواية الحديث الضعيف:

ثم إن الضعيف – ولو كان في مجال الرقائق – له شروط حدَّدها العلماء حتى تجوز روايته، منها:

1. أن لا يشتدَّ ضعفه.
2. وأن يكون الأمر الذي يُستشهد به فيه مندرجًا تحت أمر كلِّي ثابت بأدلَّة الشرع الأخرى.
3. وأن لا يعتقد صحَّته, بل يعتقد الاحتياط.

1– رواه مسلم في اللباس والزينة (2084)، وأحمد (14124)، وأبو داود في اللباس (4142)، والنسائي في النكاح (3385)، عن جابر بن عبد الله.

ولكن كثيرا من الأحاديث التي يوردها الغزالي لا تستوفي هذه الشروط, فكثيرا ما تكون ضعيفة جدا, أو لا أصل لها بالمرَّة, أو مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما بيَّن ذلك الإمام الحافظ زين الدين العراقي (ت804)، في تخريجه لأحاديث الإحياء.

كثرة ما أورده الغزالي من أحاديث باطلة:

لنأخذ مثلًا مما ذكره أبو حامد الغزالي رحمه الله، في كتاب (كسر الشهوتين) في بيان فضيلة الجوع وذمِ الشبع, وما ذكره فيه من أحاديث, فقد ذكر في هذا الفصل ثلاثة وعشرين حديثا, لم يصحَّ منها إلا ثلاثة أحاديث, والباقي إما لا أصل له بالكلية, مثل الأحاديث السبعة التي بدأ بها هذا الموضوع, فكلُّها قال فيها الحافظ العراقي: لم أجد له أصلا. وكذلك خمسة أحاديث أخرى لم يجد لها العراقي أصلا, والأحاديث الأخرى، واحد منها رواه ابن الجوزي في (الموضوعات)، والأخرى بأسانيد ضعيفة, فكيف يُبنى على ذلك حكم أو موقف ديني؟!

وما كنا نحبُّ للإمام أبي حامد رحمه الله، الذي ردَّ على الفلاسفة المناطحين للدين فأفحمهم, وردَّ على الباطنية المنافقين ففضحهم, ورد على المعتزلة فأسكتهم, وصنف في الفقه وأصوله: أن يقع فيما وقع فيه, ولكن لنعلم أن كلَّ عالم – وإن علا كعبه – يؤخذ من كلامه ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم.

ومما انتُقد على الإمام الغزالي, أنه لم يلتفت كثيرا إلى السنة الثابتة, والأحاديث الصحيحة التي تخالف ما دعا إليه، من المبالغة في التقشُّف والتبذُّل والحرمان.

رجوعه كثيرا إلى الوسط:

على أننا نجد أبا حامد رحمه الله كثيرا ما يرجع إلى المنهج الوسط، ويعلن في عدد من كتبه، منها (الإحياء) نفسه: أن المقصود بالشريعة هو (الوسط)، وكثيرا ما يشرح ذلك بعبارته البليغة فيُحسن الشرح، ويردُّ على الغُلاة فيتقن الردَّ.

وقد نقلنا عنه في كتابنا (فقه الوسطية والتجديد) نقولا جمَّة، تدلُّ على أن انتصاره رحمة الله عليه كان للوسطية المتوازنة التي جاء بها الإسلام في قرآنه وسنة نبيّه، ولهذا يجب أن يضمَّ بعضه إلى بعض.

اكتفي من ذلك ببعض ما نقلناه عنه في كتابنا المذكور.

الوسطية في رياضة الطبائع:

ومن ذلك: ما أورده في (الإحياء) في معرض مناقشته لمَن زعم أن الأخلاق لا تقبل التغيير بطريق الرياضة، استنادًا إلى أن (الآدمي ما دام حيًّا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحبُّ الدنيا وسائر هذه الأخلاق)[1].

ولكن الغزالي يخطِّئ هذه النظرة، ويردُّها بمنطق قوي، قائلاً: (فهذا غلط وقع لطائفة ظنُّوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكليَّة ومحوها، وهيهات! فإن الشهوة خُلقت لفائدة، وهي ضرورية في الجبلَّة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكليَّة لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حبُّ المال الذي يوصِّله إلى الشهوة، حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط)[2] اهـ.

الوسطية في الأخلاق:

وقد ظلَّ الإمام الغزالي على هذا النهج، لا يحيد عنه، ولا يفرِّط فيه، حتى في كتبه الفلسفية. وفي مقدِّمتها (تهافت الفلاسفة)، الذي قال فيه: (فقد ورد الشرع في الأخلاق بالتوسُّط بين كلِّ طرفين ... فلا ينبغي أن يبالغ في إمساك المال فيستحكم فيه الحرص على المال، ولا في الإنفاق فيكون مبذِّرًا، ولا أن يكون ممتنعًا عن كلِّ الأمور فيكون جبانًا، ولا منهمكًا في كلِّ أمر فيكون متهوِّرًا، بل يطلب الجود، فإنه الوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة، فإنها الوسط بين الجبن والتهوُّر، وكذا في جميع الأخلاق، وعلم الأخلاق طويل، والشريعة بالغت في تفصيلها)[3].

ويشرح الغزالي ذلك شرحًا رائعًا في كتاب آخر من كتب الإحياء (كسر الشهوتين) شرح المربِّي العالم بطبائع النفس البشرية، فيقول: (اعلم أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط؛ إذ خير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يُومئ إلى أن الإفراط فيه مطلوب، وهيهات، ولكن من أسرار حكمة الشريعة: أن كلَّ ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى، وكان فيه فساد، جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه، على وجه يُومئ عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادَّة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالم يدرك أن المقصود

1– الإحياء كتاب رياضة النفس (56/3).

2– المصدر السابق (57/3).

3– تهافت الفلاسفة صـ286، و(تهافت الفلاسفة) يعدُّ من الكتب الفلسفية، وإن كان يردُّ على الفلاسفة ويبطل مقولاتهم، ولكنه يردُّ عليهم بمنطق الفلسفة نفسه.

الوسط؛ لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع، فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثًا والشرع مانعًا، فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإن مَن يقدر على قمع الطبع بالكليَّة بعيد، فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية، فإنه إن أسرف مسرف في مضادَّة الطبع كان في الشرع أيضًا ما يدلُّ على إساءته، كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم لما عَلِم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كلَّه، ويقوم الليل كلَّه نهى عنه ...)[1]. يشير إلى موقفه من عبد الله بن عمرو[2]، وغيره من الصحابة.

أصناف الناس بالنسبة إلى الصراط المستقيم:

ومما يؤكِّد النظرية (الوسطية) عند الإمام الغزالي: ما بيَّنه من تصنيفه الناس بالنسبة للصراط المستقيم إلى ثلاثة أصناف:

1. صنف منهمكون في الدنيا دون التفات إلى العُقبى، وهذا طريق قد ذمَّه الشرع، وهو مُهلك.
2. وصنف تجرَّدوا للعبادة والإقبال على الآخرة، (أي إهمال أمر الدنيا تمامًا)، فهذا أيضًا قد ورد في الشرع ما يدلُّ على إساءته، كما يشير إلى ذلك كلام الغزالي المذكور آنفًا.
3. وصنف ثالث: متوسِّطون وفَّوا الدارين حقَّهما، وهم الأفضلون عند المحقِّقين؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة، ومنهم عامة الأنبياء عليهم السلام، إذ بعثهم الله لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد)[3].

وهؤلاء المتوسِّطون هم الذين ذكر القرآن دعاءهم في الحجِّ، بقوله تعالى: **{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [البقرة:201]، فهم يدعون بالحسنتين، وينشدون السعادتين في الدنيا والآخرة.

وقبلهم ذكر القرآن قومًا على سبيل الذمِّ، فقال: **{فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ}** [البقرة:200].

---

[1]- الإحياء (96/3).

[2]- إشارة إلى حديث رواه البخاري في فضائل القرآن (5052)، والنسائي في الصيام (2389)، عن عبد الله بن عمرو.

[3]- ميزان العمل (158،159).

ولم يذكر القرآن الصنف الثالث – حسب القسمة العقلية – وهم الذين يقولون: ربنا آتنا في الآخرة حسنة، وما لهم في الدنيا من خلاق! لأنه اعتبر هذا الصنف غير موجود، أو لا ينبغي أن يكون موجودًا؛ لأنه لا يوجد إنسان ليس له في الدنيا خلاق ولا نصيب، وإلا كيف يعيش؟!

الاقتداء بالفرقة الناجية:

وتكملة لمنهجه في الإصلاح والتربية والهداية إلى الصراط المستقيم، حثَّ على الاقتداء بالفرقة الناجية، وهم الصحابة رضي الله عنهم، الذين (كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح؛ فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهَّبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قوامًا، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحبُّ الأمور إلى الله تعالى)[1].

التوازن بين الخوف والرجاء:

ومنها: استشعار التوازن بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: **{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}** [الأنبياء:90]، وقد فصَّل ذلك في كتاب (الخوف والرجاء) من الإحياء، وفي عقبة (البواعث) في كتابه (منهاج العابدين)[2].

رابعا: الإسلام لا يعادي الحياة:

ومن المهم هنا كذلك: أن نعلن بكل جلاء: أن الإسلام لا يعادي الحياة، والقرآن – كتاب القرن – لا يعادي الحياة، ومحمد – رسول الإسلام – لا يعادي الحياة، بل معاداة الحياة هي النغمة السائدة في العالم قبل الإسلام، كما يشهد بذلك تاريخ الأديان.

ماذا كان يسمع الناس من الأديان قبل الإسلام ورسول الإسلام؟

العالم شرٌّ يجب التخلُّص منه، فقلِّل من الطعام والشراب حتى نُسرِع بفناء الفرد، واطَّرِح الزواج حتى نسرع بفناء النوع. هكذا كانت تقول المانوية الفارسية.

والجسد شرٌّ تجب مقاومته وتعذيبه حتى تنتصر الروح. هكذا تقول البرهمية الهندية.

لا يدخل الغني ملكوت السموات، حتى يدخل الجمل في سَمِّ الخياط[3]. هكذا تقول المسيحية.

---

[1]– الإحياء (230/3).

[2]– منهاج العابدين (64–62)، وانظر: كتاب (الفكر المقاصدي عند الغزالي) للدكتور محمد عبدو، مبحث أن مصدر الشريعة الوسط (93–89).

3– إنجيل متى (23/19).

الحياة قنطرة فاعبروها ولا تعمروها!

إذا رأيتَ الفقر مقبلًا، فقُل: مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيتَ الغنى مقبلًا، فقُل: ذنب عُجِّلت عقوبته.

هكذا كان يسمع الناس من رجال الملل والنحل القديمة، حتى رسخ في أذهان الكثيرين أن الدين دعوة إلى استدبار الحياة وتحريم طيباتها، ونبذ مقوِّمات الغنى والقوَّة فيها.

دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحياة:

وجاء رسول الإسلام فقلب هذه الموازين، وغيَّر تلك الأفكار، وكان دينه دعوة إلى الحياة، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}** [الأنفال:24].

أَفْهم المؤمنين أن الحياة نعمة يجب أن تُغتنم، وليست عبئا يجب أن يُلقى.

والعمل للحياة ليس رذيلة دينية، ولا نقيصة رُوحية، ولكنه عبادة في محراب كبير، وجهاد مقدَّس في ميدانٍ حدودُه أرض الله الواسعة.

روى كعب بن عُجْرة رضي الله عنه قال: مرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فرأى أصحاب رسول الله من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله! (أي في الجهاد) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن كان خرج يسعى على ولده صغارا، فهو في سبيل الله! وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها، فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان!"[1].

ابتغاء فضل الله:

لقد خلع القرآن على طلب الرزق وصفا عذبا جميلا، هو (ابتغاء فضل الله): **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأرض وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}** [الجمعة:10]، **{وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}** [المزمل:20]، **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ}** [البقرة:198].

العالم دليل على خالقه:

والعالم ليس شرًّا يجب التخلُّص منه، وإنما هو دليل على خالقه، وصورة ناطقة لعلمه وحكمته، وكتاب مفتوح تقرأ فيه آثار عظمته – أو بعبارة أخرى: العالم كلمات الله الصامتة، وكتابه المفتوح للقارئين والأميين، يُتلى فيه آثار عظمته، ونعمته – **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأرض**

1- رواه الطبراني في الكبير (129/19)، والأوسط (6834)، والصغير (940)، عن كعب بن عُجْرة، وقال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (335/2)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الثلاثة (أي معاجمه الثلاثة)، ورجال الكبير رجال الصحيح (596/4).

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق:12]، **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [الدخان:38، 39]، **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}** [آل عمران:190].

هذا العالم علويه وسفليه ليس إلا **{صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}** [النمل:88]، **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** [السجدة:7]، **{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه:50]، **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}** [الفرقان:2]، الله هو الذي أفرغ عليه وحدة جعلته – في أرضه وسمائه، وجماده ونباته وحيوانه – كأجزاء الجسد الواحد، تفاوتا وتناسقا وائتلافا، **{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** [الملك:3]، **{لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}** [يس:40].

تسخير الكون لخدمة الإنسان:

ليس في الكون شيء خُلق جزافا، ولا شيء خُلق عبثا، وانما هيّء كل شئ فيه ليؤدّي دوره فيما أراد الله، من عمارة الأرض، واستمرار الحياة، وخدمة هذا النوع المكرَّم من الخليقة (الانسان)، **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}** [إبراهيم:32–34]. انظر كيف تكررت كلمة **{لَكُمُ}** في هذا السياق خمس مرات، ليبين لهم أن منفعة المخاطبين المادية والمعنوية مقصودة من خالق السموات والأرض، ومنزل الأمطار، ومسخر الأنهار، ومسخر الشمس والقمر والليل والنهار.

واقرأ قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ}** [الملك:15].

{وَآَيَةٌ لَهُمُ الأرض الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [يس:33–35].

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس:5].

{أَلَـمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَـادًا * وَالْجِبَـالَ أَوْتَـادًا * وَخَلَقْنَـاكُمْ أَزْوَاجًـا * وَجَعَلْنَـا نَـوْمَكُمْ سُـبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَـا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَـا سِرَاجًا وَهَّاجًـا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ:6–16].

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيـهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص:71–73]. هذا هو الكون كله، علويه وسفليه مسخر لخدمة الإنسان.

نظرة الإسلام إلى المال والغنى وطيب الحياة:

ولم يعد المال نقمة أو مصيبة من السماء لصاحبه، ولكنه عدَّه خيرا، **{قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}** [البقرة:215]، **{إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي}** [ص:32]، **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** [العاديات:8]، واعتبره قيام للناس وعصب الحياة: **{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا}** [النساء:103]، وجعل الغنى والنعمة وطيب الحياة من الأمور التي يمتنُّ الله بها على عباده، ويذكره عباده بها شاكرين: **{وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}** [الضحى:8]، **{فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [الأنفال:26]، **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** [قريش:1-4]، رتَّب العبادة على الطعام والأمن، فان الجائع والخائف لا يستطيعان أن يعبدا الله حقًّا.

جعل الإسلام المال نعمة، والحياة الطيبة نعمة يجزي الله بها عباده المؤمنين الحقيقيين المستقيمين: **{وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}** [الجن:16]، **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرض وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [الأعراف:96]، **{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}** [المائدة:65]، **{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا}** [نوح:10-12].

صحيح أن العبادة مفروضة على المسلم لربِّه، ولكن الغلو فيها، وشغل الليل والنهار بها، وهضم حقوق الحياة من أجلها: أمر يرفضه الإسلام ورسول الإسلام.

الحكمة من إخفاء وقت قيام الساعة:

صحيح أنه أنذر بالساعة، ونبه العقول والقلوب على الاستعداد لها، وتهيئة الزاد للسفر إليها، فقال تعالى: **{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [المطففين:5، 6]، **{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ}** [المزمل:16، 17]، ولكنه – لحكمة عالية – أخفى وقت قيام الساعة عن خلقه، حتى لا يعطِّلوا الحياة في انتظارها. وسئل الرسول صلى الله عليه وسلم عنها، فقال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[1]. **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ**

1- متفق عليه: رواه البخاري (50)، ومسلم (9)، كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (9501)، وابن ماجه في المقدمة (64)، عن أبي هريرة.

ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:187].

عمارة الأرض حتى آخر لحظة في الحياة:

وهب أن الساعة قامت فجأة وفي يد المسلم عمل من أعمال الحياة، فهل يلقى ما في يده، ويستقبل الاخرة؟ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع الا تقوم حتى يغرسها فليغرسها"[1]. ولماذا يغرسها، ولا أمل لأحد في الانتفاع بها؟ إنه إقرار سنة الله تعالى في عمارة الأرض، والتعبد بالعمل فيها حتى آخر نَفَس تلفظه الحياة.

الصالحون لهم أموال وأولاد وتجارة:

وصحيح أن القرآن قال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}** [المنافقون:9]، ووصف المؤمنين بأنهم **{رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}** [النور:37]، ولكن افترض أن يكون عباده الصالحون لهم أموال وأولاد وتجارة وبيع، بيد أنها لا تلهيهم عن القيام بما أوجب الله.

فضيلة الطُّموح الموجّه إلى الخير:

والطموح ليس شيئًا ممقوتا، ولكنه فضيلة إذا وجه إلى الخير، كطموح سليمان للملك: **{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}** [ص:35].

وطلب يوسف لوزارة المالية والاقتصاد: **{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأرض إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}** [يوسف:55].

ودعاء عباد الرحمن بالإمامة في الدين: **{رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** [الفرقان:74].

غلاة الصوفية لم يراعوا شأن الأمة:

كما أن من عيوب النظرة الصوفية المتشددة في الزهد: أنها أغفلت جانب (الأمة) التي يريد أن يؤسسها الإسلام، وهي أمة ذات رسالة دينية وعمرانية وحضارية، أن تتميز عن الأمم بأنها تجمع بين الدين والدنيا، وتمزج بين الروح والمادة، فهي أمة وسط، ومن شأنها أن تقيم حضارة أو مدنية

1- رواه أحمد (12981)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وعبد بن حميد (1216)، والبخاري في الأدب المفرد كتاب البنيان (479)، عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1424).

تجمع بين العلم والإيمان، وبين السمو الروحي والأخلاقي والإبداع المادي والعمراني. وهو ما حدثنا عنه التاريخ.

وهو ما اعترف به مؤرخو الغرب أنفسهم، أمثال (غوستاف لوبون) الفرنسي، و(دريبر) الأمريكي، الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية، في كتابه (المنازعة بين العلم والدين)، قال في المقارنة بين مدينتي أوربا في ذلك العهد ومدينة العرب:

(إن أوربا في ذلك العهد – عهد مَدَنيَّة العرب – كانت غاصَّة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة، وكانت المستنقعات قد كثُرت حوالي المدائن، فكانت تنتشر منها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم.

وكانت البيوت في باريس ولوندرة تُبنى من الخشب والطين المعجون بالقشِّ والقصب، ولم يكن بها نوافذ ولا أرضيات خشبية، أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم، وكان يقوم مقامها القش، ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف البيوت، ثم يتسرَّب من ثقب صنعوه له في السقف، فكان الناس في هذه البيوت معرَّضين لكل ضروب الإصابات الخطيرة، وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة، فيلقون بأحشاء الحيوانات، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما وأكداسا، تتصاعد منها روائح قاتله، ولا رقيب ولا حسيب، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة، من رجال ونساء وأطفال، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية.

وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القشِّ فوقه كيس من الصوف كمخدَّة، وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسما.

وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرَّة، ولم يكن للشوارع بحار ولا بلاط ولا مصابيح.

وقال: لم تكن أوربا في مدنيَّها العصرية بأعلى ذوقا، ولا أرفع مدنيَّة، ولا ألطف رونقا، من عواصم الأندلس على عهد حكم العرب، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار، ومبلطة أجمل تبليط، والبيوت مفروشة بالبُسُط، وكانت تدفأ شتاء بالمواقد، وتُهَوَّى صيفا بالنسمات المعطرة، بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض، من خلال أوعية مملوءة زهرا، وكانت لهم حمامات، ومكتبات، ومحلات للغذاء، وينابيع مياه عذبة.

وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات، التي كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب، وكانوا بدل النهم وإدمان السكر في المآدب الليلية – كجيرانهم الأوروبيين – يحملون مآدبهم بالقناعة، وكانت الخمر محرَّمة عليهم، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر في تمشِّيهم في الليالي المقمرة في حدائقهم البالغة منتهى الجمال، أو جلوسهم حول أشجار البرتقال، يسمعون قصة مسلية، أو يتجادلون في موضوع فلسفي. متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم: إنها لو كانت منزَّهة عن الآلام، وعن الإصابات لنسوا حياتهم الأخروية، وكانوا يوفقون بين وجودهم في هذه الحياة، وبين آمالهم في النعيم المقيم في الآخرة)[1] اهـ.

1- دريبر.

زهد الخلفاء والصحابة

وسنقتصر هنا علي ثلاثة منهم، وهما عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب من الصحابة، وعمر بن عبد العزيز ممن بعدهم.

زهد عمر بن الخطاب (23هـ)

طعام عمر:

1. عن الأحنف بن قيس قال: كنا نشهد طعام عمر رضي الله عنه فيومًا كان لحمًاغريضا – أي طريًّا – ويومًا قدِيدًا، ويومًا زيتًا.

2. وعن المسور بن مخرمة قال: أُتي عمر بمال فوضع في المسجد فخرج إليه يتصفح وينظر إليه، فهملت عيناه! فقال له عبدالرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين ما يبكيك فوالله إن هذا لمن مواطن الشكر! فقال عمر: إن هذا والله ما أعطيه قوم قط إلا وقع بينهم العدوان والبغضاء[1]!

3. وكان أشد ما يكون على نفسه، إذا نزلت بالمسلمين نازلة، فهو أول مَن يتحمَّل نصبه منها، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان عمر يأكل الزيت عام الرمادة (المجاعة) وكان قد حرم على نفسه السمن، وكان بطنه يقرقر، فنقر بطنه بأصبعه، وقال: قرقر أو لا تقرقر فليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس[2].

4. وكان يشدد على أهله لأنهم أسوة للناس ويقول لهم: إن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قدم على عمر مسك وعنبر من البحرين فقال عمر: والله لوددت أني وجدت أمرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت له أمرأته عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل: أنني جيدة الوزن، فهلم أزن لك. فقال: لا. فقالت: لم؟ قال: أخشى أن تأخذيه فتجعلينه هكذا، فأدخل أصبعه في صدغيه وتمسحين به عنقك؛ فأصيب فضلا على المسلمين[3].

1– الأثران رواهما أحمد في الزهد صـ 114–115

2– رواه أبو نعيم في الحلية (48/1).

3– رواه أحمد في الزهد صـ 119.

5. وكان عمر رضي الله عنه لا يعيب طعامًا، فقال له غلامه يرفا أو أسلم: لأجعلنَّه حتى يعيبه، فجعل لبنا حامضا، ثم قربه إليه، قال: فأخذ منه فقطب، ثم قال: ما أطيب هذا من رزق الله عز وجل[1]!

6. وعن قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبطأ على الناس يوم الجمعة، ثم خرج فاعتذر إليهم في احتباسه، وقال: إنما حبسني غسل ثوبي هذا؛ كان يغسل ولم يكن لي ثوب غيره[2].

7. وعن الحسن: أن عمر رضي الله عنه خطب الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[3].

8. وركب عمر دابة، فراها تُروث شعيرا، فقال: يأكل هكذا، والمسلمون يموتون هزلًا، لا أركبها حتى يحيا الناس[4].

كلمات في الورع لعمر:

قال رحمه الله تعالى:

1. (إن الدين ليس بالطنطنة من آخر الليل، ولكن الدين الورع)[5].

2. وكتب عمر إلي أبي موسى الاشعري رضي الله عنهما: (إنك لم تنل عمل الأخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا، وإياك ومذاق الأخلاق ودناءتها). مذاق الأخلاق: اختلاط محمودها بمذمومها[6].

3. وقال رحمه الله تعالى: (نظرت في هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أضررت بالآخرة، وإذا أردت الآخرة أضررت بالدنيا، فإذا كان الأمر هكذا أضررت بالفانية)[7].

4. قال عمر: (عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داءٌ)[8].

5. وقال رضي الله عنه: (التُّؤَدَة في كل شيء خير إلا ما كان من أمر الآخرة)[9].

---

[1] – رواه أحمد في الزهد صـ 123.

[2] – رواه أحمد في الزهد صـ 124.

[3] – رواه أبو نعيم في الحلية (53/1).

[4] – رواه أحمد في الزهد صـ 126

[5] – رواه أحمد في الزهد صـ 125.

[6] – رواه أحمد في الزهد صـ 123.

[7] – رواه احمد في الزهد صـ 126.

[8] – رواه هناد في الزهد (1110).

[9] – رواه احمد في الزهد صـ 119.

ولم يكن يرى عمر من ضرورة الزهد، ترك زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، بل أحيانا تكون مطلوبة تتعلق بحق الغير، كالزوجة.

جاءت امرأة إلى عمر بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه، فأمر به أن يحمَّ، وأن تقلَّم أظافره، ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمَن حوله في مجلسه: هكذا فاصنعوا لهن، فوالله إنهنَّ ليحببن أن تتزيَّنوا لهنَّ، كما تحبُّون أن يتزيَّنوا لكم.

وقال عمر: أحبُّ أن يكون الرجل في أهله كالصبي، فإن احتيج إليه كان رجلا[1].

وكتب أبو عبيدة إلى عمر: أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية، لطيب هوائها، ووفرة خيراتها، مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة، فلا يُنتفع بهم بعدها في قتال. فأنكر عمر ذلك عليه وأجابه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك، وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو؟ وأصلِّي على نبيه، وأشكره على ما وهب من النصر للمسلمين، وجعل العاقبة للمتقين، ولم يزل بنا لطيفًا معينًا. وأما قولك: لم نقم بأنطاكية لطيبها. فإن الله عزَّ وجلَّ لم يحرِّم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقال: **{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً}** [المؤمنون:51]، وقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}** [البقرة:57] الآية، فكان يجب عليك أن تُريح المسلمين من تعبهم، وتَدَعهم يرغدون في مطعمهم، ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع مَن كفر بالله[2].

وحَدث أن حذيفة بن اليمان أقبل على الناس، وبين أيديهم القصاع (وعادة يكون فيها الثريد واللحم)، فدعاه عمر إلى الطعام، وعنده خبز غليظ وزيت، فقال حذيفة: أمنعتني أن آكل الخبز واللحم، ودعوتني على هذا؟ قال: إنما دعوتُك على طعامى، فأما ذاك فطعام المسلمين[3].

فعمر لا يريدها رهبانية، ولا يحرِّم ما أحلَّ الله من طيبات، وإنما يعامل نفسه فقط معاملة خاصة.

فهو – أولا – ينفق من بيت المال، وهو أمين عليه، وكيل عن المسلمين في رعايته، فلا غرو أن يتحرَّج غاية التحرُّج من الأكل من هذا المال، وحسبه أن يقتصر على الكفاف ويقتصد، بل

---

[1]– ذكره ابن عبد الهادي الحنبلي المعروف بابن المبرد في محض الصواب (674/2).

[2]– فتوح البلدان (254/1).

[3]– سبق تخريجه.

يتقشَّف ما استطاع. وقد قال: ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم: إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت[1].

ثم هو – ثانيا – خليفة يريد أن يكون قدوة لأمرائه وولاته، فلا يطمع أحد منهم في تكوين ثروة، وهو يرى أمير المؤمنين يعيش عيشة الكفاف أو دون الكفاف.

وقد كان يقول لأهله وأبنائه: إن الناس ينظرون إليكم، نظر الطير إلى اللحم[2].

ثم هو – ثالثا – يريد أن يكون أُسوة لفقراء المسلمين، حتى لا تتكسر قلوبهم، ولا يشتد عليهم بؤسهم.

ولم يكن يطلب من ولاته أن يقتدوا به في مثل ما هو فيه، وما كان يطلب منهم إلا البعد عن الإسراف، كالبعد عن التقتير.

أنكر على عامله باليمن حللا مشتهرة ودهونا. فعاد إليه العام الذي يليه أشعث مغبرا عليه أطلاس، فقال: لا، ولا هكذا ... إن عاملنا ليس بالشعث ولا العاني، فكلوا واشربوا وادهنوا، إنكم ستعلمون الذي أكره من أمركم[3].

الشعور بضخامة المسؤولية:

إن هناك أمر آخر، هو قوَّة الشعور بضخامة المسؤولية!

إننا نرى الطالب الطموح إذا زحفت عليه أيام الامتحان السنوي، وأحسَّ بشبحه يقترب منه، انهمك في تحصيل معارفه، واستذكار دروسه، انهماكا قد ينسيه نفسه وطعامه وشرابه، بل ينسيه نومه وراحته إلا قليلا ... يسوقه إلى ذلك رغبة عارمة في النجاح بدرجة عالية، وخوف من الاخفاق في الحصول على ما يريد، وفضيحة الرسوب أو انخفاض الدرجة بين الأهل والإخوان.

فكيف بقلوب كبيرة أحس أصحابها بهول امتحان الآخرة، ودقَّة الحساب أمام الله، وكثرة الخصوم الذين يسألون عنهم؟ "كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته"[4].

ألا يكون ذلك مدعاة لأرباب تلك المسؤوليات الجسام أن يُشغلوا عن أنفسهم وحظوظها، بأمتهم وحقوقها، وبالآخرة وحسابها؟!

---

[1]– رواه ابن أبي شيبة في السير (33585).

[2]– رواه الخطيب في تاريخ بغداد (218/4).

[3]– انظر: الزمخشري في غريب الحديث.

[4]– متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (893)، ومسلم في الإمارة (1829)، كما رواه أحمد (4495)، وأبو داود في الخراج (2928)، والترمذي في الجهاد (1705)، عن ابن عمر.

ذلك ما نحسُّه ونلمسه في سيرة أولئك الراشدين المهديين من الخلفاء.

نلمسه في قول ابن الخطاب: لو عثرت بغلة في العراق، لخفت أن أسأل: لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق، يا عمر؟

وقد لمست ذلك امرأة خطبها عمر لنفسه، فقالت وصدقت: ذاك رجل أذهل أمر آخرته عن أمر دنياه، حتى كأنه يرى ربه بعينه[1].

---

[1]- رواه الحاكم في معرفة الصحابة (377/3)، وسكت عنه هو والذهبي، وابن عساكر في تاريخ دمشق (198/70).

زهد علي بن أبي طالب (40هـ)

تضييقه على نفسه وتوسعته على غيره:

فقد أعطى عليٌّ الناس في سنة ثلاث عطيات، ثم قدم عليه مال من أصبهان فقال: هلموا إلى العطاء الرابع فخذوا، ثم كنس بيت المال وصلى فيه ركعتين، وقال: يا دنيا غرِّي غيري[1].

وكان لعلي رضي الله عنه امرأتان، كان إذا كان يوم هذه اشترى لحما بنصف درهم، وإذا كان يوم هذه اشترى لحمًا بنصف درهم[2].

وعن يزيد بن محجن قال: كنا مع علي رضي الله عنه، فدعا بسيف فسله فقال: مَن يشتري هذا؟ فوالله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته[3].

ولم يكن فقيرا، ولكنه كان ينفق ويجود على أهل الحاجة ولا يبخل. ولقد حدثهم عن نفسه فقال: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لأربعون ألفًا[4].

واشترى يوما تمرا بدرهم، فحمله في ملحفته، فقالوا: نحمل عنك يا أمير المؤمنين، فقال: لا، أبو العيال أحقُّ أن يحمل[5].

ولكنه رضي الله عنه لم يحب من ولاته وكبار الموظفين في دولته أن يشددوا على أنفسهم فيحرموها من الطيبات، اقتداء به.

مرض الربيع بن زياد الحارثي، فذهب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يعوده، وكان فيما قاله له الربيع: يا أمير المؤمنين ألا أشكو إليك عاصم بن زياد؟ قال: وماله؟ قال: لبس العباء، وترك الملاء، ورغم أهله، وأحزن ولده. قال: عليَّ عاصما. فلما أتاه عبس بوجهه، وقال: ويلك يا عاصم، أترى الله أباح لك اللذات، وهو يكره أخذك منها؟! لأنت أهون على الله من ذلك! أو ما سمعتَه يقول: **{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ**

---

[1]– رواه أحمد في فضائل الصحابة (886).

[2]– رواه أحمد في فضائل الصحابة (889).

[3]– رواه أحمد في فضائل الصحابة (897).

[4]– رواه أحمد (1367)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. وقال الهيثمي في المجمع (164/9): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير شريك النخعي وهو حسن الحديث، ولكن اختلف في سماع محمد بن كعب القرظي من علي، والله أعلم.

[5]– رواه أحمد في فضائل الصحابة (916).

مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن:19-22]، وقوله: **{وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}** [فاطر:12].

أما والله أن ابتذل نعم الله بالفعال، أحبُّ إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعتَه يقول: **{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** [الضحى:11]، ويقول: **{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}** [الأعراف:32]. وأن الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}** [البقرة:172]، وقال: **{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** [المؤمنون:51].

فقال عاصم: فعلام اقتصرتَ أنت – يا أمير المؤمنين – على لبس الخشن، وأكل الجشب[1]؟! قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام؛ لئلا يشنع على الفقير فقره. قال: فما برح حتى لبس الملاء، ونبذ العباء[2].

فهو هنا يرى أن أئمة الناس أي خلفاؤهم ومَن ولاهم الله المسؤولية عنهم، ينبغي أن يكونوا أسوة للناس، وبخاصة الفقراء أو الضعفاء منهم، فلهذا لا يحسن أن يأكلوا من الأطعمة أطيبها، وأن يلبسوا من الثياب أجملها، حتى يهون على الفقير فقره إذا نظر إليهم ورأى ما هم فيه.

شهادة معاوية وعمر بن عبد العزيز والحسن البصري:

روى أبو نعيم في (الحلية)، دخل ضرار بن ضَمرة الكتاني على معاوية، فقال له: صِف لي عليًّا. فقال: أو تعفيني، يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذ لا بد، فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجَّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته.

كان والله غزير العُبرة، طويل الفكرة، يقلِّب كفَّه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصُر، ومن الطعام ما جشُب، كان والله كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان – مع تقرُّبه إلينا وقربه منا – لا نكلمه هيبة له؛ فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم! يعظِّم أهل الدين، ويحبُّ المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيتُه في بعض مواقفه – وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه – يميل في محرابه، قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم – أي الملدوغ – ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا، يا ربنا –

---

[1]– الطعام الردئ

[2]– العقد الفريد لابن عبد ربه (373-374/2).

يتضرَّع إليه – ثم يقول للدنيا: أَلِي تغررت، أم إليَّ تشوفت؟ هيهات هيهات، غُرِّي غيري، قد بَتَتُك ثلاثا، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير! آه آه من قلَّة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق!

فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل يُنَشِّفها بكُمِّه، وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال: كذا كان أبو الحسن رحمه الله. كيف وَجْدُك عليه، يا ضرار؟ قال: وجدُ من ذُبح واحدُها في حجرها؛ لا ترقأ دمعتها، ولا يسكن حزنها! ثم قام فخرج[1].

وعن الحسن بن صالح قال: تذاكروا الزهَّاد عند عمر بن عبد العزيز، فقال قائلون: فلان. وقال قائلون: فلان. فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب[2].

وقال هشام بن حسَّان: بينا نحن عند الحسن البصري إذ أقبل رجل من الأزارقة (من الخوارج خصوم على) فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في على بن أبي طالب؟ قال: فاحمرَّت وجنتا الحسن، وقال: رحم الله عليًّا، إن عليًّا كان سهما لله صائبا في أعدائه، وكان في مَحَلة العلم أشرفها وأقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رباني هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقة، ولا في أمر الله بالنَّئومة، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه، فكان منه في رياض مُونِقَة، وأعلام بيِّنة، ذاك على بن أبي طالب، يا لُكَع[3].

من أقوال وأفعال علي في الزهد:

أورد ابن كثير في (البداية والنهاية)[4]، عن عبد بن حميد بسنده، عن أبي مطر قال: خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك؛ فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك، وخُذ من رأسك إن كنتَ مسلما. فمشيتُ خلفه وهو بين يدي مؤتزر بإزار ومرتد برداء، ومعه الدِّرَّة كأنه أعرابي بدوي، فقلتُ: من هذا؟ فقال لي رجل: أراك غريبا بهذا البلد! فقلت: أجل، أنا رجل من أهل البصرة. فقال: هذا على بن أبي طالب أمير المؤمنين.

حتى انتهى إلى دار بني أبي مُعَيط، وهي سوق الإبل، فقال: بيعوا ولا تحلفوا؛ فإن اليمين تُنَفِّق – تُرَوِّج – السلعة، وتَمْحق البركة. ثم أتى أصحاب التمر، فإذا خادم تبكي، فقال: ما يبكيك؟

1– رواه أبو نعيم في الحلية (84/1– 85)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (401/24– 402).

2– تاريخ دمشق (489/42).

3– المصدر السابق (490/42).

4– البداية والنهاية (106/11) وما بعدها، طبعة هجر.

فقالت: باعني هذا الرجل تمرا بدرهم فردَّه مواليَّ، فأبى أن يقبله. فقال له عليٌّ: خُذ تمرك وأعطها درهمها؛ فإنها ليس لها أمر. فدفعه. (أي لم يبال بقوله) فقلتُ: أتدري من هذا؟ فقال: لا. فقلتُ: هذا على بن أبي طالب أمير المؤمنين! فصَبَّتْ تمره وأعطاها دراهمها. ثم قال الرجل: أحبُّ أن ترضى عني، يا أمير المؤمنين. قال: ما أرضاني عنك إذا أوفيتَ الناس حقوقهم!

ثم مرَّ مجتازا بأصحاب التمر فقال: يا أصحاب التمر، أطعموا المساكين يَرْبُ كسبكم.

ثم مرَّ مجتازا ومعه المسلمون، حتى انتهى إلى أصحاب السَّمك فقال: لا يباع في سوقنا طافٍ. (لأن الطافي مات قبل أن يُصاد، فربما يكون مات بآفة أو مادة سامَّة أو غير ذلك).

ثم أتى دار فُرات، وهي: سوق الكرابيس (الثياب) فأتى شيخا فقال: يا شيخ، أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم. فلما عرَفه لم يشترِ منه شيئا، ثم آخر، فلما عرَفه لم يشترِ منه شيئا، فأتى غلاما حدثا، فاشترى منه قميصا بثلاثة دراهم، وكُمُّه ما بين الرسغين إلى الكفين يقول في لُبْسه: "الحمد لله الذي رزقني من الرِّياش ما أتجمل به في الناس، وأُواري به عورتي". فقيل له: يا أمير المؤمنين، هذا شئ ترويه عن نفسك، أو شئ سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا، بل شئ سمعتُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند الكسوة[1]. فجاء أبو الغلام صاحب الثوب فقيل له: يا فلان، قد باع ابنك اليوم من أمير المؤمنين قميصا بثلاثة دراهم. قال: أفلا أخذت منه درهمين؟ فأخذ منه أبوه درهما، ثم جاء به إلى أمير المؤمنين، وهو جالس مع المسلمين على باب الرَّحبة، فقال: أمسك هذا الدرهم. فقال: ما شأن هذا الدرهم؟ فقال: كان قميصًا ثُمِّن درهمين. فقال: باعني رِضاي وأخذ رِضاه[2].

وروى البغوي عن صالح بيَّاع الأكسية، عن جدته قالت: رأيتُ عليا اشترى تمرا بدرهم، فحمله في ملحفته، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ألا نحمله عنك؟ فقال: أبو العيال أحقُّ بحمله[3].

وعن زاذان قال: كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضالَّ، ويُعين الضعيف، ويمرُّ بالبَيَّاع والبقَّال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ: **{تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا**

---

[1]- رواه أحمد (1353)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف.

[2]- رواه عبد بن حميد (96)، وأبو يعلى (253/1).

[3]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (489/42) من طريق البغوي.

يُرِيـدُونَ عُلُـوًّا فِـي الْأَرْضِ وَلَا فَسَـادًا} [القصص:83]، ثم يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس[1].

قال ابن كثير في (البداية) ومن كلامِه الحَسَنِ، ما رواه ابن أبي الدنيا عن أبي أراكة يقول: صليتُ مع عليٍّ صلاة الفجر، فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلَّى ركعتين، ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيتُ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فما أرى اليوم شيئا يشبههم، لقد كانوا يصبحون صُفرًا شُعثًا غُبرًا، بين أعينهم كأمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سُجَّدًا وقياما، يتلون كتاب الله، يُراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين. ثم نهض فما رُئي بعد ذلك مفترا يضحك، حتى قتله ابن ملجم عدو الله الفاسق[2].

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: تعلَّموا العلم تُعْرَفوا به، واعملوا تكونوا من أهله، فإنه يأتي من بعدكم زمان ينكر فيه من الحقِّ تسعة أعشاره، وإنه لا ينجو منه إلا كلُّ أوَّاب منيب، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم، ليسوا بالعجل المَذاييع – الذين يذيعون الأسرار والفواحش – البُذر – الذين يمشون في الأرض بالنميمة والشرِّ.

ثم قال: إن الدنيا قد ارتحلت مُدبرة، وإن الآخرة قد أتت مقبلة، ولكلٍّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وإن الزاهدين في الدنيا اتَّخذوا الأرض بساطًا، والتراب فراشًا، والماء طيبًا، ألا مَن اشتاق إلى الآخرة سَلاَ عن الشهوات، ومَن أشفق من النار رجع عن الحُرُمات، ومَن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومَن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات. ألا إن لله عبادًا كمَن رأى أهل الجنة في الجنة مخلَّدين، وأهل النار في النار معذَّبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياما قليلة لعُقبى راحة طويلة، أما الليل فصافُّون أقدامهم، تجري دموعهم على خُدودهم، يَجأَرون إلى ربهم: ربنا ربنا. يطلبون فِكاك رقابهم، وأما النهار فظماء حلماء، بَرَرة أتقياء، كأنهم القِداح، ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضَى. وما بالقوم مِن مرض، وخُولِطوا. ولقد خالط القوم أمر عظيم[3].

1– المصدر السابق (489/42).

2– المصدر السابق (492/42) من طريق ابن أبي الدنيا.

3– المصدر السابق (493/42).

وخطب علي فقال: أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإن المضمار اليوم، وغدا السباق، ألا وإنكم في أيام أَمَل من ورائه أَجَل، فمَن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خُيِّب عمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة، ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبُها، ولم أرَ كالنار نام هاربها، ألا وإنه مَن لم ينفعه الحقُّ ضرَّه الباطل، ومَن لم يستقم به الهدى حار به الضلال، ألا وإنكم قد أُمرتم بالظعن (السفر)، ودُللتم على الزاد، ألا أيها الناس، إنما الدنيا عَرَض حاضر، يأكل منها البرُّ والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها مَلِك قادر، ألا إن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم.

أيها الناس، أحسنوا في عُمركم تُحفظوا في عَقِبكم، فإن الله وعد جنَّته مَن أطاعه، وأوعد ناره مَن عصاه، إنها نار لا يَهْدأ زفيرها، ولا يُفَكُّ أسِيرها، ولا يُجبر كَسِيرها، حرُّها شديد، وقعرها بعيد، وماؤها صديد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل.

وفي رواية: فإن إتباع الهوى يصدُّ عن الحقِّ، وإن طول الأمل يُنسي الآخرة[1].

---

[1]- المصدر السابق (497/42).

زهد عمر بن عبد العزيز (101هـ)

ذكر ابن عساكر في تاريخه، أن عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جوارى زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكان قد سألها إياها بيعا أو هبة، فكانت تأبى عليه ذلك، فلما ولي الخلافة ألبستها وطيَّبتها وأهدتها إليه، ووهبتها له. فلما أخلتها به أعرض عنها، فتعرضت له فصدف عنها، فقالت له: ياسيدى، فأين ما كان يظهر لى من محبَّتك إياي؟ فقال: والله إن محبتك لباقية كما هي، ولكن لا حاجة لي في النساء، فقد جاءني ما يشغلني عنك وعن غيرك[1]!!

ودخلت زوجته يوما عليه، وهو جالس في مصلاَّه، واضعا خدَّه على يده، ودموعه تسيل على خدَّيه، فقالت: ما لك؟! قال: ويحك يا فاطمة! قد وُلِّيتُ من أمر هذه الأمة ما وُلِّيتُ، فتفكَّرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، وعلمتُ أن ربِّي عزَّ وجلَّ سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم (أي المحامي عنهم) محمد صلى الله عليه وسلم، فخشيتُ ألا يثبت لي حجَّة عند خصومته .. فرحمتُ نفسي، فبكيتُ[2]!!

وقال مقاتل بن حيان: صليتُ وراء عمر بن عبد العزيز، فقرأ: **{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}** [الصافات:24]، فجعل يكرِّرها، وما يستطيع أن يتجاوزها. وما ذلك إلا لأن الآية تذكِّره بالوقوف أمام الله، المسؤولية بين يديه.

وقالت فاطمة امرأته، تصف إحساسه بواجبه وخشيته لربِّه: ما رأينا أحدا أشدَّ فَرَقًا من ربِّه منه، كان يصلى العشاء، ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه. قالت: ولقد كان يكون معي في الفراش، فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء، فأخرج عليه اللحاف رحمة له، وأنا أقول: يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بُعد المشرقين، فوالله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها[3]!

1- البداية والنهاية (696/12).

2- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (45/197-196).

3- انظر البداية والنهاية (705/12).

وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جدا، فيقول: ما أحسنه لولا خشونة فيه. فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع، ولا يغسله حتى يتسخ جدا، ويقول: ما أحسنه لولا لينه[1]!

الخلافة ومسؤوليتها – إذن – هي التي أذهلته عن النساء واللباس والمتاع والنعيم.

قال له زياد العبدي مرة: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله؟ قال: سيء الحال. قال: فإن كان خصمين ألدين؟ قال: أسوأ حالا. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: ذاك حسبت لا يهنئه عيش. قال: فوالله – يا أمير المؤمنين – ما أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، إلا وهو خصمك. أي: طالب حقه منك.

قال زياد: فبكى عمر، حتى تمنيت أني لم أكن حدثته ذلك[2].

أيٌّ مسؤولية هذه؟ الأمة كلها طالبة له، مطلوبة منه!

---

[1]– انظر: البداية والنهاية (712/12).

[2]– انظر: البداية والنهاية (244/9)، ط. إحياء دار التراث، الطبعة الأولي 1408هـ، 1988م.

ابن أدهم وابن المبارك

ونختار بعد الخلفاء شخصيتين زاهدتين من الزهاد الأوائل، أعنى قبل أن تدخل المؤثرات الثقافية الأجنبية في حياة المسلمين، فتؤثر في تفكيرهم وفي سلوكهم، ولذا أخذنا هذين النموذجين من النماذج التي نعتبرها نماذج إسلامية خالصة، ممن نعتدهم من تلاميذ (مدرسة الإسلام) التي أسست على تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية. قبل ظهور التصوف وتأثره بقوة في المجتمعات الإسلامية.

هذان النموذجان هما: إبراهيم بن أدهم ت 161هـ، وعبد الله بن المبارك ت 181هـ.

أولهما: أقرب إلى العزلة والنسك، والرغبة في الخمول والبعد عن الناس. وإن لم يعتزل الناس تماما.

والثاني: أقرب إلى الاختلاط بالناس في العلم والتعليم والجهاد وعمل الخير.

وكلاهما خرج من خراسان، وإن كان أولهما عربي الأصل، والثاني: تركي الأصل. وقد استقر الأول في بلاد الشام. وسنخص كلا منهما بحديث يليق به، ويُجلّي صورته وسيرته.

إبراهيم بن أدهم (162هـ)

معالم زهد ابن أدهم:

قال عنه مؤرِّخ الإسلام الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: القدوة الإمام العارف، سيد الزهَّاد.

ولد في مكة المكرمة حوالي سنة مائة من الهجرة، وكان أبوه أدهم رجلا صالحا، فرفعه في خرقة، وكان يمرُّ به على العلماء والعبَّاد والصالحين المجاورين في مكة، يلتمس دعاءهم له، ولا ريب أن منهم مَن كانت دعوته مستجابة، فنالته بركة هذا الدعاء.

كان إبراهيم بن أدهم من أبناء الملوك، ولكنه حين أدركته الهداية الإلهية، ترك أبَّهة الملك، وسلطان الإمارة، ورغد العيش، وحياة النعيم في بلخ بأفغانستان، ليعيش حياة الورع والزهد في الدنيا في ديار الهجرة، أو قُل: حياة التعب والكدح والعَرَق.

قالوا: إنه جاءته هذه الصحوة وهو في رحلة صيد، فلما صمَّم على أن يغيِّر منهج حياته ويتَّخذ طريق الصالحين، نزل عن فرسه وصادف راعيًا لأبيه، فأخذ منه لباس الراعي، وأعطاه لباسه الأميري، وأعطاه فرسه وما معه من ثياب ورياش، ودخل البادية، ثم دخل مكة، وانتهى إلي الشام.

إن هذه اليقظة الربانية التي أدركته، غيَّرته تغييرا كليًّا من رأسه إلى قدمه، وأنشأته خلقا آخر، وجعلت من الأمير ابن الأمير، سليل الملوك، وربيب القصور، والذي ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، ونشأ وهو يرفل في الحرير والديباج، وبين يديه الخَدَم والحَشَم، وحوله الحرَّاس والأتباع، يرفض هذه الحياة الرغيدة الناعمة، ويطلِّقها ثلاثا لا رجعة فيها، ليدخل في حياة جديدة، لا تعتمد على نسب ولا حسب، ولا تستند إلى مال ولا جاه، بل حياة العمال الكادحين، ممَّن يكسب لقمة عيشة بكدِّ يمينه، وعرق جبينه، متحرِّيا أن تكون من الحلال البيِّن، بعيدا عن أيِّ شبهة، ولو من بعيد، "فمَن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه"[1].

لا يشكُّ باحث – مسلم أو غير مسلم – أن إبراهيم بن أدهم، كان من كبار الزاهدين، الذين باعوا دنياهم بأخراهم، وتركوا شهواتهم مرضاة لربهم، ولم يركضوا وراء ما يركض وراءه عامة الناس من حب الشهوات من النساء، والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة من

[1]– متفق عليه، وقد تقدم تخريجه.

الأنعام والحرث، بل كانت هذه عنده، وتخلى عنها مختارا، مصرا على أن يحيا حياة العامل الكادح في سبيل نعمة العيش الحلال، بعيدا عن الأضواء وصخب الحياة، وعيشة المنعمين.

وهو يمثل بحق طراز الزهاد المسلمين الأوائل، الذين يستقون زهدهم وطريقة حياتهم من منابع الإسلام الصافية، قبل أن ينشأ التصوف، ويصبح علما له رموزه ومصطلحاته، وله رسومه وشطحاته، وله مصادره ومنطلقاته، وله أهدافه وغاياته، وله شيوخه وقياداته، وله مناهجه ومبالغاته.

ثناء الأئمة على ابراهيم بن أدهم:

أثنى عليه الأئمة من العلماء والزهاد ثناء مستطابا، فعن سفيان الثوري قال: كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل، ولو كان في الصحابة لكان رجلا فاضلا.

وقال عبد الله بن المبارك: كان إبراهيم رجلا فاضلا، له سرائر، وما رأيتُه يُظهر تسبيحا ولا شيئًا من عمله، ولا أكل مع أحد طعاما إلا كان آخر مَن يرفع يده.

وقال بشر بن الحارث الحافي: أربعة رفعهم الله بطيب المطعم: إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، ووهيب بن الورد، ويوسف بن أسباط[1].

وكل واحد من هؤلاء الثلاثة – سفيان وابن المبارك وبشر الحافي – إمام من أئمة الأمة، به يقتدي فيهتدي. وهذه شهادتهم لابن أدهم، وهم شهداء الله في الأرض.

قال الحافظ المزي في (تهذيب الكمال): كان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن في باب الورع، يحكى عنه أنه قال: أطب مطعمك، ولا عليك أن لا تقوم بالليل، ولا تصوم بالنهار!

وقال خلف بن تميم: سألتُ ابراهيم بن أدهم: منذ كم قدمتَ الشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وما جئتُ لرباط ولا لجهاد. قلتُ: ولم جئتَ؟ قال: جئتُ أشبع من خبز الحلال.

وقال: أعز الأشياء في آخر الزمان ثلاثة: أخ في الله يُؤنَس به، وكسب درهم من خبز حلال، وكلمة حقٍّ عند سلطان!

وقال شقيق البلخي: لقيتُ ابراهيم بن أدهم بالشام، فقلتُ: يا إبراهيم تركتَ خراسان؟ فقال: ما تهنيتُ بالعيش إلا في بلاد الشام، أفرُّ من شاهق إلى شاهق، فمَن رآني يقول: موسوس! ومَن رآني يقول: حمَّال! ثم قال: يا شقيق، لم يقبل مَن قُبِل عندنا بالحجِّ، ولا بالجهاد، وإنما قُبِل عندنا مَن قبل: مَن كان يعقل ما يدخل جوفه – يعني الرغيفين – من حلِّه! ثم قال: يا شقيق، ماذا أنعم الله

---

[1]– هذه الآثار ابن عساكر في تاريخ دمشق (6/290–289).

علي الفقراء؟ لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة، ولا عن حجٍّ، ولا عن جهاد، ولا عن صلة رحم – يعنى: الصلة بالمال – إنما يُسأل عن هذا هؤلاء المساكين. يعني: الأغنياء!

وكان يقول: الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض، وزهد سلامة، وزهد فضل، فالزهد الفرض: الزهد في الحرام، والزهد السلامة: الزهد في الشبهات، والزهد الفضل: الزهد في الحلال[1].

مقومات الزهد عند ابن أدهم:

وللزهد عند ابن أدهم مكونات أو مقوِّمات، يستطيع الباحث في مفردات سيرته، وفيما رواه أصحابه وتلاميذه من أقواله وأفعاله ومواقفه: أن يستخلصها ويرتبها في جملة مبادئ أو معالم.

1- تحري الحلال:

المبدأ الأول: تحري الحلال، بمعنى أن يأكل من عمل يده، وأن يكون حلالا صرف. وهذا ما شدد فيه، فلا يقبل لقمة أو درهما أو دانقا من حرام أو من شبهة. وهذا أساس الورع، والورع عنده شرط للزهد، أو مقدمة له، فلا زهد بلا ورع. وله في ذلك مواقف تروى. والسعي إلى الحلال هو السبب في هجرته إلى الشام، وإقامته فيها.

وضع نصب عينيه حديث الرسول الكريم: "ما أكل أحد قط طعاما خيرا من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"[2]. فأصر على أن يكسب لقمة عيشه بجهده وعرقه، ولا يقبل أن يعيش عالة على أحد، أو يتصدق عليه أحد، ويذم الزاهد الذي لا يعمل، ويعتمد على صدقات الناس، عالما أن الصدقة: "لا تحل لغني، ولا لذي مرة سوي"[3].

وقد اختار أن يعمل بأجر للناس فيما يحسنه من الأعمال، مثل حصاد الغلال، وهي مهنة اكتسبها بالممارسة، وهو العائش في بحبوحة من التنعيم. وحفظ البساتين أو نظارتها، بمعنى حراستها، ورعاية شأنها

من هنا كان يأكل من عمل يده، مثل: حصاد القمح وغيره من الغلال، وحفظ البساتين، أي: كان يعمل ناطورًا أو خفيرًا أو ناظرا لهذه البساتين، أي راعيا وحافظا، بأجر زهيد، ولكنه كان سعيدًا بهذه المعيشة المتقشِّفة، لأنه كان مطمئنًّا إلي أنه يكسب عيشه من الحلال. وكان هذا هو الذي يعنيه قبل قيام الليل، وصيام النهار.

---

[1]– رواه أبو نعيم في الحلية (26/8).

[2]– سبق تخريجه.

[3]– رواه أحمد (6530)، وقال مخرجوه: إسناده قوى، رجاله رجال الشيخان، وأبو داود (1634)، والترمذي (652)، كلاهما في الزكاة وحسنه الترمذي، وصححه الألباني في المشكاة (1444)، عن عبد الله بن عمرو.

2- الزهد في الشهرة وفي كلام الناس:

ولم يكن الزهد عنده مقصورا علي الطعام واللباس ونحوهما، بل كان الزهد في الكلام أيضا.

فمن الناس مَن يحبُّ أن يتصدَّر المجالس بالكلام، وأن يكون صوته مسموعًا، وأن يغلب كلَّ الأصوات، وهي شهوة ربما فاقت شهوة البطن، وشهوة الفرج، وكم أدَّت شهوة الكلام هذه إلي ضياع صاحبها أو تلفه في الدنيا، كما قال الشاعر:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنَّك إنه ثعبان[1]!

ولهذا جاءت التحذيرات من آفات اللسان، وجاء في الحديث: "مَن صمت نجا"[2]، وقال ابن مسعود: يا لسان، قل خيرًا تغنم، واسكت عن شرٍّ تسلم[3]!

كان الصالحون يخافون علي أنفسهم من حصاد ألسنتهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ: "وهل يكبُّ الناس في النار علي وجوههم – أو قال: علي مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم؟".

حتي كان بعضهم يضع حصاة في فمه، يحتاج إلي إن يخرجها منه كلَّما تكلم، ليجبره ذلك على قلَّة الكلام فيما لا يعنيه.

قال أبو إسحاق الفزازي: كان إبراهيم بن أدهم يطيل السكوت، فإذا تكلَّم ربما انبسط، فأطال ذات يوم السكوت، فقلتُ له: لو تكلمتَ؟ فقال: الكلام على أربعة أوجه: فمن الكلام كلام ترجو منفعته، وتخشى عاقبته، فالفضل في هذا: السلامة منه. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته، ولا تخشى عاقبته، فأقلُّ ما لك في تركه: خفة المؤونة على بدنك ولسانك. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته، ولا تأمن عاقبته، فهذا قد كفي العاقل مؤونته. ومن الكلام كلام ترجو منفعته، وتأمن عاقبته، فهذا الذي يجب عليك نشره. قال خلف راوي هذه القصة: فقلت لأبي إسحاق: أراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام! قال: نعم[4].

---

[1]- من شعر: الإمام الشافعي. وأورده النووي في رياض الصالحين.

[2]- رواه أحمد في المسند (6481)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي في صفة القسامة (2501)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، والدارمي في الرقاق (2713)، والطبراني في الأوسط (264/2)، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (254/4)، وصححه الألباني في الجامع الصحيح (6367).

[3]- رواه الطبراني في الكبير (197/10)، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (240/4)، عن ابن مسعود، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (538/10)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (2872).

[4]- رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (67/1).

وكان من قوله رحمه الله: أعربنا في الكلام فلم نلحن، ولحنًا في الأعمال فلم نعرب[1]!

وكان إبراهيم يقول: ما صدق الله من أحب الشهرة[2]. وكان رفقائه كثيرا ما يسمعونه، وهو يعمل أو يحصد، يرتجز ويقول:

اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا[3]

فهو يميل إلي الخمول لا إلي الأضواء البراقة. كما قال ابن عطاء الله في ذلك: ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه[4]، لهذا كانت العزلة أحب إلى إبراهيم من الاختلاط بالناس، ولكن العزلة عنده ليست عزلة الرهبان في الصوامع، ولكنها عن أهل الدنيا، وأهل السلطان، وعن حب الظهور، الذي طالما قصم الظهور. ولكنه كان يختلط بالفقراء والصالحين، وبجماهير الناس ماداموا لا يعرفونه من هو؟ فإذا انكشف لهم فرقهم إلى مكان آخر.

روى أبو نعيم بسنده عن خلف بن تميم قال: قال لي إبراهيم بن أدهم: كنت في بعض السواحل وكانوا يستخدموني ويبعثوني في حوائجهم، وربما يتبعني الصبيان، حتى يضربوا ساقي بالحصا، إذ جاء قوم من أصحابي، فأحْدقوا بي فأكرموني، فلما رأوا أولئك إكرامهم لي أكرموني، فلو رأيتموني والصبيان يرموني بالحصا وذلك أحلى في قلبي منهم حيث أحدقوا بي[5].

وإنما قال ذلك، لأن الخمول أحب إليه من الشهرة، يريد أن يكون من الأتقياء الأخفياء، الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا.

وعن داود بن الجراح قال: كان إبراهيم بن أدهم ينظر كرما في كورة غزة، فجاء صاحب الكرم ومعه أصحابه، فقال: إيتنا بعنب نأكل، فأتاه بعنب يقال له: الخافوني، فإذا هو حامض، فقال له صاحب الكرم: من هذا تأكل؟ قال: ما آكل من هذا ولا من غيره، قال: لم؟ قال: لأنك لم تجز لي شيئًا من العنب. قال: فأتني برمان، فأتاه برمان، فإذا هو حامض، فقال: من هذا تأكل؟ قال: لا آكل من هذا ولا من غيره، ولكن رأيته أحمر حسنا، فظننت أنه حلو، فقال: لو كنت إبراهيم بن أدهم

---

[1]- رواه أبو بكر الدنيوري في المجالسة (851).

[2]- رواه أبو نعيم في الحلية (19/8).

[3]- رواه أبو نعيم في الحلية (10/8).

[4]- الحكمة الحادية عشر من الحكم العطائية.

[5]- رواه أبو نعيم في الحلية (371/7).

ما عدا، (أي: ما فعلت أكثر من هذا، ثم إنهم ذكروا صفته لبعض الناس فعرفوه)، قال: فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم وترك كراه[1].

3- التقلل من الدنيا:

فر إبراهيم منذ أدركته الهداية الربانية من نعيم الدنيا وترفها وزينتها، التي يتنافس الناس عليها، ويتهارشون على متاعها تهارش الذئاب، ولكنه طلق هذه الحياة التافهة التي يعيش لها كثير من الناس. طلقها ثلاثا لا رجعة فيها. وأصر ألا يعود إلى ملك الحياة، كما لا يعود البن إلى الضرع إذا خرج منه.

لا يحرم على نفسه الطيبات، ولكنه يتقلل منها ما وجد إلي ذلك سبيلا، ولا يسعى إليها، بل هي سعت إليه أكثر من مرة، فرفضها طائعا مختارا.

سعت إليه حينما أرسل إليه إخوته في خراسان من المال ما يعينه على حياته مما آتاهم الله من فضله، فلم يأخذ منه درهما ولا فلسا، والخبر ذكره أبو نعيم في الحلية فقال: عن علي بن بكار قال: كنا جلوسا عند الجامع بالمصيصة، وفينا إبراهيم بن أدهم، فقدم رجل من خراسان فقال: أيكم إبراهيم بن أدهم؟ فقال: القوم هذا – أو قال: أنا هو – قال: إن إخوتك بعثوني إليك، فلما سمع ذكر إخوته قام فأخذ بيده فنحاه، فقال: ما جاء بك؟ قال: أنا مملوكك مع فرس وبغلة وعشرة آلاف درهم، بعث بها إليك إخوتك، قال: إن كنت صادقا فأنت حر، وما معك فلك، اذهب فلا تخبر أحدا قال: فذهب، قال: وكان إبراهيم يطحن وإحدى رجليه مبسوطة والأخرى قد كفها، فلا يكف تلك المبسوطة، ولا يبسط تلك المكفوفة حتى يفرغ من مدين، فإذا فرغ من مدين بسط تلك، وكف هذه، فيطحن مُدين آخرين[2]. فانظر إلى هذه النفس الغنية بالله، كيف رفضت هذه الهبة الكبيرة من إخوته، وتصدق بها كلها على من جاء بها. وعاش بعد ذلك يطحن الحبوب بالرحى، وهو قرير العين.

وسعت إليه مرة أخرى بعد موت أبيه، واستحقاق نصيبه من ميراث أبيه (فريضة من الله) ورفض مرة أخرى أن يأخذ حقه، فتغير من سير حياته أو نهج حياته الذي ارتضاه لنفسه: أن يعيش من كسبه، وأن يأكل من عمل يده، وان يعمل حصادا لأصحاب المزارع، أو ناطورا لأصحاب البساتين، وتنازل عن ميراثه لمن جاءه به.

---

[1]- رواه أبو نعيم في الحلية (7/372-371).

[2]- رواه أبو نعيم في الحلية (7/383).

روى أبو نعيم بسنده عن عيسى بن حازم، يقول: بينا إبراهيم بن أدهم يحصد حقل زرع، أخذه جزافا، إذ وقف عليه رجلان معهما ثقل ووطاء مع كل واحد منهما نفقة، فسلما عليه، فقالا له: أنت إبراهيم؟ قال: نعم، قالا: إنا مملوكان لأبيك، ومعنا مال ووطا، فقال: ما أدري ما تقولان إن كنتما صادقين فأنتما حران، وما معكما لكما، لا تشغلاني عن عملي[1]!

وكثيرا ما كانت تأتيه الهدايا والهبات من الناس، يتقربون إلى الله بالهدية إليه، فلا يقبلها، إلا نادرا، من بعض إخوانه الموسرين، أو من بعض الناس بشروط معينة.

عرض عليه بعضهم أن يقبل هدية منه، فقال: أقبلها إن كنت غنيا، فقال الرجل: إني ذو مال كثير، وعندي كذا وكذا وكذا. فقال له: تحب أن يتضاعف مالك؟ قال: نعم. قال: لست إذا غنيا، وأنت تطلب المزيد. ولم يقبل هديته. وكان يقبل الهدية بشروطها، ويثيب عليها تأسيا بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعن عيسى بن حازم قال: كان لإبراهيم أخ له من عسقلان، يقال له: أزهر، فسأل عنه فأخبر عنه أنه مريض في حصين على الساحل، فأخذ أزهر كساء صوف، فوضعه على رقبته، ثم لزم الساحل حتى أتاه فوجده مريضا. وإذا هو على بارية ليس تحته شيء، فقال له: يا أبا إسحاق أحب أن تأخذ هذا الكساء فتضع نصفه تحتك ونصفه فوقك، قال: قال: ما يخف عليّ؟ قال: لو فعلت سررتني، فقد غمني، قال: وقد غمك؟ قال: نعم! ضعه، فوضعته ومضيت مخافة أن يبدو له، قال أزهر: فجاء بعد أيام فرفع ردائي ودس تحته شيئًا ومضى، فارفع ردائي فإذا عمامة قطن جديدة، قد لفها على نعل جديدة، فمضيت حتى لحقته خارجا من المدينة فقال: هكذا أدركت الناس يأخذون ويعطون، انصرف بما معك، فانصرفت[2].

ومن زهده في الدنيا وتقلله فيها: امتنع عن الزواج، فالمرأة لا شك من الدنيا، من زينتها ومتاعها، كما في الحديث الصحيح: "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة"[3]، وفي الحديث الآخر: "حُبِّب إلي من دنياكم: النساء والطيب"[4] وهو لم يُرِد هذه الدنيا، لا لأنه يحرم ما أحل لله، أو

---

[1]- رواه أبو نعيم في الحلية (383/7).

[2]- رواه أبو نعيم في الحلية (383/7- 384).

[3]- رواه مسلم في الرضاع (1467)، والنسائي (3232)، وابن ماجه (1855)، كلاهما في النكاح، عن عبدالله بن عمرو.

[4]- رواه أحمد (12293)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والنسائي في عشرة النساء (8836)، وصحح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (501/1)، والبيهقي في الكبرى كتاب النكاح (13232)، وحسنه ابن حجر في تلخيص التحبير (116/3)، عن أنس بن مالك.

يخالف سنة رسول الله، ولكن يخاف من نفسه ألا تقوم بما يجب لها من حق، وهو مشغول عنها، وليس كالرجل الذي يستطيع أن يعطي لكل ذي حق حقه.

ولهذا لما سأله بقية بن الوليد قال: لقيت إبراهيم بن أدهم بالساحل فقلت: أكنيك أم أدعوك باسمك؟ فقال: إن كنيتني قبلت منك، وإن دعوتني باسمي فهو أحب إلي، فقال لي: يا بقية كن ذنبا ولا تكن رأسا، فإن الذنب ينجو والرأس يهلك، قال قلت له: ما شأنك لا تتزوج؟ قال: ما تقول في رجل غر امرأته وخدعها؟ قلت: ما ينبغي هذا، قال: فأتزوج امرأة تطلب ما يطلب النساء لا حاجة لي في النساء، قال: فجعلت أثني عليه، قال: ففطن، فقال: لك عيال؟ فقلت: نعم، قال: روعة من روعة عيالك أفضل مما أنا فيه[1]. فهو يخشى من الزواج أن تطالبه امرأته بما تطالب به المرأة من حقوق على زوجها من المعاشرة الجنسية، ومن المطايبة والمؤانسة وغيرها، وهو مشغول عن هذا كله، وربما من طول الجوع والمعاناة لم تعد لديه قدرة ولا رغبة في النساء، فهذا يظلم أي امرأة يتزوجها وكانت حياته لا تستطيع امرأة أن تتحملها، فقد كان هو وأصحابه يأكلون الخبز بالملح، ولا يجعلون في ملحهم أو كانوا يمنعون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء، ولا يجعلون في ملحهم أبزارا[2] (أي: توابل). وأي امرأة تطيق هذه المعيشة؟ ولا يستطيع هو أن يتنازل عنها.

وقد كان شديدا على نفسه. حتى أنه يصبر على الجوع أياما لا يأكل، أو يأكل ما لا يأكله أحد، كما قيل من أنه يبل الرمل بالماء ويأكله حتى يجد الخبز الحلال.

عن بقية بن الوليد، قال: قلت لرفيق لإبراهيم: أخبرني عن أشد شيء مر بكم منذ صحبته؟ قال: نعم كنا يوما صياما، فلما كان عند الإفطار، لم يكن عندنا شيء نفطر عليه، فقلت له: يا أبا إسحاق هل لك في خصلة أن نأتي باب الرستن فنكرى أنفسنا مع هؤلاء الحصادين؟ قال: وذاك، فأتينا باب الرستن، فجاء رجل فاكتراني بدرهم، قال: قلت: وصاحبي؟ قال: صاحبك ضعيف لا أريده، قال: فما زلت به حتى اكتراه بأربعة دوانق، (أي: ثلثي درهم) قال: – ونحن صيام – فلما كان عند المساء أخذت الكراء منه، فأتيتُ السوق، فاشتريت ما احتجت إليه، وتصدقت بالباقي فقال: أما نحن فقد استوفينا أجرينا، فليت شعري أوفيناه أم لا؟ قال: فلما رأيت ذلك غضبت، فلما

---

[1]– رواه أبو نعيم في الحلية (21/8).

[2]– انظر: البداية والنهاية (500/13).

رأى غضبي قال: لا بأس، تضمن لي أنا أوفيناه عمله؟ قال: فلما رأيت ذلك أخذت منه الطعام، فتصدقت به، فهذا أشد شيء مر بي منذ صحبته.

وقال: عالجت العبادة، فما وجدت شيئًا أشد عليّ من نزاع النفس إلى الوطن. ويقول: ما قاسيت فيما تركت شيئًا أشد علي من مفارقة الأوطان.

وقال: ما قاسيت شيئًا من أمر الدنيا أشد علي من نفسي، مرة علي ومرة لي، وأما هواي فقد والله استعنت بالله عليه، فأعانني، واستكفيته سوء مغالبته فكفاني، فوالله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها.

ويقول: ما كانت لي مؤونة قط على أصحابي ولا على غيرهم، إلا في شيء واحد فقلت: فايش يا أبا إسحاق؟ قال: ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصادين، فيحتاجون أن يكروني، ويأخذون لي الأجرة. فهذه كانت مؤونتي عليهم[1].

ومرة أخرى قال له رجل: لو تزوجت؟ فقال: لو أمكنني أن أُطلق نفسي لطلقتها[2]!

فمن كان يرى نفسه عاجزا عن حمل ذاته، فكيف يحمل غيره معه؟!

4- خوف الله وحساب الآخرة:

ومن مقومات الزهد عند إبراهيم ابن أدهم: استحضار رقابة الله تعالى، وأنه يراك قبل أن تراه، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأن كل ما يعمله الإنسان مسجل عنده، وأنه يحاسب عليه، يوم تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، وتبلى السرائر، ويحصل ما في الصدور، **{يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [النحل:111]، فكانت الآخرة أبدا نصب عينيه، والموت والقبر وما بعدهما، والموت أشد ما قبله، وأهون ما بعده، وكان إبراهيم يقول: دارنا أمامنا، وحياتنا بعد وفاتنا، فإما إلى الجنة، وإما إلى النار[3].

وكان يقول: مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك، وانظر كيف تكون، ومثل له هول المطلع ومساءلة منكر ونكير، وانظر كيف تكون، ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب، وانظر كيف تكون. ثم صرخ صرخة خرَّ مغشيًّا عليه[4].

1- رواه أبو نعيم في الحلية (379/7- 381).

2- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (301/6).

3- رواه البيهقي في الزهد الكبير صـ 213

4- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (331/6-330).

ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك، فقال له: لا تطمع فيما لا يكون، ولا تيأس ما يكون. فقيل له: كيف هذا يا أبا إسحاق؟ فقال: لا تطمع في البقاء والموت يطلبك، فكيف يضحك مَن يموت ولا يدري أين يذهب؛ إلى جنة أم إلى نار؟! ولا تيأس مما يكون، الموت يأتيك صباحا أو مساء. ثم قال: أوه أوه! ثم خر مغشيا عليه[1].

وكان يقول: ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا، ولا نسأل كشفه من ربنا. ثم يقول: ثكلت عبدا أمه أحب الدنيا، ونسي ما في خزائن مولاه!

وقال: إذا كنت بالليل نائما، وبالنهار هائما، وبالمعاصي دائما، فكيف يرضى من هو بأمورك قائما[2]؟!

ورآه بعض أصحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي، ويضرب بيديه على رأسه، فقال: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وقال: إنك كلما أمعنت النظر في مرآة التوبة بان لك قبح شين المعصية.

وكتب إلى الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه[3].

وقال إبراهيم بن أدهم: إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل، من قلب ذليل، لرب جليل، فكر في ذنبك، وتب إلى ربك، يَثْبت الورع في قلبك، واقطع الطمع إلا من ربك[4].

وقال أيضا: ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك، ذم مولانا الدنيا فمدحناها، وأبغضها فأحببناها، وزهدنا فيها فآثرناها[5].

5- سكينة النفس ورضاها بما قسم الله:

---

[1]- رواه أبو نعيم في الحلية (13/8).

[2]- رواه أبو نعيم في الحلية (32/8)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (332/6).

[3]- هذه الآثار رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق (334/6-333).

[4]- رواه أبو نعيم في الحلية (16/8).

[5]- رواه البيهقي في الزهد الكبير صـ 138، وابن عساكر في تاريخ دمشق (339/6)، وانظر البداية والنهاية (509/13-507)، طبعة هجر، الطبعة الأولي 1419هـ،1998م.

ومن مقومات زهده: الاطمئنان إلى ما عند الله، وسكينة النفس بالأنس به، والرضا بما قسم الله تعالى للعبد، واعتياد ذلك هو السعادة العظمى التي لا تدانيها سعادة، والتى حُرِمها الملوك وأبناء الملوك، ونالها طلاب الآخرة، وعشاق ما عند الله عز وجل.

فقد روى أبو نعيم عن إبراهيم بن بشار الصوفي الخراساني خادم إبراهيم بن أدهم قال: أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة وليس معنا شيء نفطر عليه ولا بنا حيلة، فرآني مغتما حزينا فقال: يا إبراهيم بن بشار ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة! لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن صدقة ولا عن صلة رحم – أي بالمال – ولا عن مواساة، وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين – يعني الأغنياء – أغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة، أعزة في الدنيا أذلة يوم القيامة، لا تغتم ولا تحزن، فرزق الله مضمون سيأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء، نحن الذين قد تعجلنا الراحة في الدنيا، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا، إذا أطعنا الله عز و جل. ثم قام إلى صلاته، وقمت إلى صلاتي، فما لبثنا إلا ساعة، إذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير، فوضعه بين أيدينا، وقال: كلوا رحمكم الله، قال: فسلّم، وقال: كل يا مغموم، فدخل سائل فقال: أطعموني شيئًا، فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر فدفعه إليه، وأعطاني ثلاثة وأكل رغيفين، وقال: المواساة من أخلاق المؤمنين[1].

وروى أبو نعيم بسنده أيضًا عن إبراهيم بن بشار الرطابي قال: بينا أنا وإبراهيم بن أدهم، وأبو يوسف الغسولي، وأبو عبدالله السخاوي، ونحن متوجهون نريد الإسكندرية، فصرنا إلى نهر، يقال له (نهر الأردن) فقعدنا نستريح، فقرب أبو يوسف الغسولي كسيرات يابسات، فأكلنا وحمدنا الله تعالى، وقام أحدنا ليسقي إبراهيم. فسارعه فدخل النهر، حتى بلغ الماء ركبتيه، ثم قال: بسم الله فشرب، (أي كَرَعَ بيديه)، ثم قال: الحمد لله، ثم يبدأ ثانية، فقال: بسم الله، ثم شرب، ثم قال: الحمد لله ثم خرج، فمد رجليه، ثم قال: يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم، إذًا لجالدونا بأسيافهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش، وقلة التعب!! – زاد أحد الرواة – فقلت له: يا أبا إسحاق طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم، فتبسم ثم قال: من أين لك هذا الكلام[2]؟

---

[1]– رواه أبو نعيم في الحلية (370/7).

[2]– رواه أبو نعيم في الحلية (371/7–370).

ولقد صدق ابن أدهم، فإن السلطان إن أكل شيئًا خاف أن يكون قد طرح له فيه سم، وإن نام خاف أن يغتال، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة، فإن خرج كان منزعجاً من أقرب الخلق إليه، واللذة التي ينالها تبرد عنده، ولا تبقي له لذة مطعم ولا منكح.

وكلما استظرف المطاعم أكثر منها ففسدت معدته، وكلما استجد الجواري أكثر منهن فذهبت قوته، ولا يكاد يبعد ما بين الوطء والوطء فلا يجد في الوطء كبير لذة؛ لأن لذة الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين، وكذلك لذة الأكل. فإن من أكل على شبع، ووطىء من غير صدق شهوة وقلق، لم يجد اللذَّة التامَّة التي يجدها الفقير إذا جاع، والأعزب إذا وجد امرأة.

ثم إن الفقير يرمي نفسه على الطريق في الليل فينام ولذة الأمن قد حرمها الأمراء فلذتهم ناقصة وحسابهم زائد)[1].

6- السخاء والإيثار:

ومن مكونات الزهد عند ابن أدهم: السخاء بما عنده لإخوانه، ولكل الفقراء والمحاويج، وأبناءهم على نفسه، فهو يرضى بالقليل وبالدون، وبالعيش الخشن، وبالجوع أحيانا، ويؤثر الآخرين على نفسه، عن رضا وطيب خاطر.

قالوا: وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رمى بما وقع بين يديه إلى أصحابه وأكل هو الخبز والزيتون[2].

وذكروا أنه كان يعمل بالفاعل، ثم يذهب فيشتري الخبز الأبيض والزبد، وتارة الشواء والجوذبان (الأرز بالسكر والجوز واللحم) والخبيص (يعمل من التمر والسمن) فيطعمه أصحابه، وهو صائم، فإذا أفطر، يأكل من ردئ الطعام، ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفا لهم وتحببا وتوددا إليهم[3].

وقال مضاء بن عيسى: ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه إلا بالصدق والسخاء[4].

7- خدمة إخوانه وخدمة الناس:

1- صيد الخاطر صـ 250، بتحقيق الشيخ محمد الغزالي.

2- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (298/6).

3- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (307/6).

4- رواه أبو نعيم في الحلية (384/7).

من معالم زهد ابن أدهم: أنه وضع نفسه في خدمة الناس عامة، وفي خدمة إخوانه خاصة، وكان يخدمهم بنفسه وبدنه، وما يبذله من جهد، ويجد لذلك لذته، يتعب ليرتاحوا، ويسهر ليناموا، ويجوع ليشبعوا، ويمشي ليركبوا، ويعمل كل ما في وسعه ليدخل عليهم السرور والبهجة.

وله في ذلك عجائب ونوادر، لا تصدر إلا عن الصديقين.

فعن سهل بن بشر قال: مر بي إبراهيم بن أدهم، وأنا أكسر عود حطب قد أعياني، فقال لي: يا محمد قد أعياك؟ قلت: نعم، قال: فتأمر لنا به؟ قلت: نعم، قال: وتعيرنا الفأس؟ قلت: نعم؟ قال: فأخذ العود ووضعه على رقبته وأخذ الفأس ومضى، فبينا أنا على ذلك إذا أنا بالباب قد فتح والحطب يطرح في الباب مكسرا، وألقى الفأس، وأغلق الباب ومضى. قال: وكان إبراهيم إذا صلَّى العشاء، وقف بين يدي الدور فنادى بأعلى صوته: مَن يريد يطحن؟ فكانت المرأة تخرج القفة، والشيخ الكبير، فينصب الرحى بين رجليه، فلا ينام حتى يطحن بلا كراء، ثم أتى أصحابه[1].

وعن خلف بن تميم قال: سألت إبراهيم بن أدهم: مذ كم أنت ههنا بأرض الشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وقال: دفعت إلى شباب من العرب يحصدون، وقد ضربوا خباءا لهم، فقالوا: يا فتى ادن فاحصد معنا، قال فحصدت معهم، فكانوا يعطونني من الأجر ما يعطون واحدًا منهم من الأستاذين، فقلت بيني وبين نفسي: ما أرى هذا يسعني، هؤلاء الأستاذون وأنا لا أحسن أحصد، قال: فكنت أدعهم إذا أخذوا مضاجعهم وناموا، أخذت المنجل فحصدت، قال: فأصبح وقد حصدت شيئًا صالحا، قال: فسمعتهم يتوشوشون فيما بينهم يقولون: أليس هذا الزرع كان البارحة قائما فمن حصده؟ فيقول بعضهم لبعض: هذا نراه بالليل يقوم فيحصد، فأسمعهم يقولون: ما يسعنا ذا؛ هذا يحصد بالليل والنهار، وإنما يأخذ أجر رجل واحد[2].

وعن أحمد بن الفضل العكي قال: سمعتُ أبي يقول: مرَّ إبراهيم بن أدهم بقَيْسارِيَة، وقد تعجل دينارا من الكرم، فسمع صوت امرأة تصيح، فقال: ما لهذه؟ قالوا: تلد، قال: وأي شيء يعمل بالمرأة؟ قالوا: يشترى لها طحين وزيت ولحم وعسل، فصرف ديناره، واشترى زنبيلا وملأه طحينا، واشترى زيتا وسمنا وعسلا ولحما، وحمله على رقبته إلى الباب، وقال: خذوا، قال: فنظر فإذا هم أفقر بيت في أهل قيسارية وأعبدُهم[3].

1- رواه أبو نعيم في الحلية (7/373-372).

2- رواه أبو نعيم في الحلية (7/378).

3- رواه أبو نعيم في الحلية (7/382).

وكان إذا غزا اشترط على رفقائه أن يكلوا له أمرين: الخدمة والآذان. فقد روى أبو نعيم عن عيسى بن حازم يقول: كان إبراهيم بن أدهم إذا غزا اشترط على رفقائه الخدمة والأذان[1].

وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يخدمه إبراهيم، ويصر على ذلك، مع ما كان له من منزلة كبيرة في أنفس الناس. فكان إذا حضر في مجلس، فكأنما على رؤوسهم الطير، هيبة له وإجلالا[2].

وكان يساعده على خدمة الناس التواضع، الذي جعله من الأذلة على المؤمنين، فكان لا يستكبر عن شيء ولا يتعالى على أحد.

ورآه الاوزاعي ببيروت، وعلى عنقه حزمة حطب، فقال: يا أبا إسحاق، إن إخوانك يكفونك هذا! فقال له: اسكت يا أبا عمرو! فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة[3].

وكان مع شدته على نفسه، لا يكلف أحدًا همَّ نفسه. يقول: ما كانت لي مؤونة قط على أصحابي ولا على غيرهم، إلا في شيء واحد، فقلت: فايش يا أبا إسحاق؟ قال: ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصادين، فيحتاجون أن يكروني، ويأخذون لي الأجرة. فهذه كانت مؤونتي عليهم[4].

وكان مع أصحابه يباسطهم، ويشعرهم بقربه منهم، وقربهم منه، فلا يتكلف معهم، ولا يتكلفون معه. وقد قيل: إذا زادت الألفة سقطت الكلفة.

حدث أبو المنذر بشر بن المنذر – قاضي المصيصة – قال: كنت إذا رأيت إبراهيم بن أدهم كأنه ليس فيه روح، ولو نفخته الريح لوقع، قد اسود، متدرع بعباءة، فإذا خلا بأصحابه فمن أبسط الناس.

وعن عيسى بن حازم قال: كنا مع إبراهيم بن أدهم في بيت ومعه أصحاب له، فأتوا ببطيخ، فجعلوا يأكلون ويمزحون ويترامون بينهم، فدق رجل الباب، فقال لهم إبراهيم: لا يتحركن أحد، قالوا: يا أبا إسحاق: تعلمنا الرياء؟ نفعل في السر شيئًا لا نفعله في العلانية؟ فقال: اسكتوا إني أكره أن

---

[1]– رواه أبو نعيم في الحلية (6/8).

[2]– انظر: البداية والنهاية (501/13).

[3]– رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (316/6).

[4]– رواه أبو نعيم في الحلية (7/379– 381).

يعصى الله فيَّ وفيكم[1]. (يعني: أنه يخشى إذا سمع الطارق اللهو والمزاح أساء الظن بهم فعصى الله بذلك).

8- الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين:

ومن مكونات الزهد عند ابن أدهم: اهتمامه بأمر الإسلام وأمر المسلمين، وعزة الدين ونصرته.

ومن الكلمات البليغة التي تُروى عنه في اعتزازه بالإسلام: أيُّ دينٍ لو كان له رجال[2].

وكان لا يهتم بشأن نفسه، وإنما يهتم بأمر المسلمين، وحاجات المسلمين، ويعمل على اعانتهم، وتفريج كرباتهم وقضاء حاجاتهم.

وعن بقية بن الوليد قال: صحبت إبراهيم بن أدهم في بعض كور الشام، وهو يمشي ومعه رفيقه، فانتهى إلى موضع فيه ماء وحشيش، فقال لرفيقه: أترى معك في المخلاة شيء؟ قال: معي فيها كسر، فنثرها فجعل إبراهيم يأكل، فقال لي: يا بقية ادن فكل، قال: فرغبت في طعام إبراهيم فجعلت آكل معه، قال: ثم إن إبراهيم تمدد في كسائه، فقال: يا بقية ما أغفل أهل الدنيا عنا ما في الدنيا أنعم عيشا منا، ما أهتم بشيء إلا لأمر المسلمين[3].

ومن اهتمام ابن أدهم بأمر الإسلام وأمته، كان اهتمامه بالمشاركة في الجهاد لم يكتف بجهاد نفسه عن جهاد الأعداء، كما فعل بعض المتصوفة بعد ذلك، الذين سموا جهاد العدو الجهاد الأصغر، وأن جهاد النفس الجهاد الأكبر. بل جمع بين الجهادين. وهل يتم جهاد الأعداء إلا بجهاد النفس.

وكان يقول: أشد الجهاد جهاد الهوى، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظا ومعافى من أذاها.

وقال أيضا: الهوى يُردى، وخوف الله يشفي، وأعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك، إذا خفت من تعلم أنه يراك[4].

1- الأثران روهما أبو نعيم في الحلية (9/8).

2- رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة (852).

3- رواه أبو نعيم في الحلية (21/8).

4- رواه أبو نعيم في الحلية (18/8).

ولم يكتف بالزهد والتعبد وما يمارسه من عمل في كسب الحلال، وما يقوم به من السخاء والإيثار، وخدمة الفقراء، بل أصر على أن يكون له نصيب مع الغزاة والمجاهدين.

وكان له في غزواته مواقف في شجاعته وإيثاره وفي تحمل المتاعب، ما يعز نظيره. فهو يصر على أن يمشي، ويدع إخوانه يركبون.

عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعتُ أبا الوليد يقول: غزوتُ أنا وإبراهيم ومعي فرسان، وهو على رجليه، قال: فأردتُه أن يركب فأبى، فحلفتُ. قال: فركب حتى جلس على السَّرج. قال: قد أبررت يمينك، ثم نزل. قال: فسرنا في تلك السرية ستا وثلاثين ميلا، وهو على رجليه، فلما نزلنا أتى البحر، فأنقع رجليه ثم أتى فاستلقى ورفع رجليه على الحائط، فهذا أشد شيء رأيتُه صنع.

وعن أحمد بن أبي الحواري: حدثني بعض أصحابنا قال: أصاب إبراهيم بن أدهم وأصحابه ثلج بأرض الروم، فدخل أصحابه في الخباء، وبقي هو برّا، فأرادوه أن يدخل فأبى، قال: فأدخل رأسه في فروة كانت عليه، فكلما كثر الثلج نفضه، قال: فلما أصبحوا وطلعت الشمس، خرج الذين كانوا في الخباء، فقالوا: يا أبا إسحاق أي ليلة مرت بنا؟ فنسأل الله أن لا يبتلينا بليلة أخرى مثلها، قال إبراهيم: وكيف لنا بليلة أخرى مثلها[1]؟!

وعن بعض رفقاء إبراهيم: أنه كان مرة في الجهاد، فحين رأى العدو، رمى بنفسه في البحر يسبح نحوهم، وسبح معه رجال آخرون، فلما رآهم العدو بهذه الروح، والاستبسال، انهزموا أمامهم[2].

ومع اهتمامه بأمر المسلمين، لم يكن يحب أن يشغل نفسه بالفتن التي أصابت المسلمين في تاريخهم، والدخول في الجدل الذي لا طائل تحته، فعن يحيى بن آدم، قال: سمعتُ شريكا يقول: سألتُ إبراهيم بن أدهم عما كان بين علي ومعاوية فبكى، فندمت على سؤالي إياه، فرفع رأسه فقال: إنه مَن عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومَن عرف ربَّه اشتغل بربّه عن غيره[3].

ولكنه كان يعرف آفات النفوس، وأمراض القلوب، التي تحول بين الناس وربهم، ولماذا لا يستجيب دعاءهم إذا دعوا.

قال شقيق بن إبراهيم: مر إبراهيم ابن أدهم في أسواق البصرة فاجتمع الناس إليه، فقالوا له: يا أبا إسحاق إن الله تعالى يقول في كتابه: **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}** [غافر:60]، ونحن ندعوه منذ دهر

1- الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (387/7).

2- رواه أبو نعيم في الحلية (379/7) بنحوه.

3- رواه أبو نعيم في الحلية (15/8).

فلا يستجيب لنا. قال: فقال إبراهيم: يا أهل البصرة ماتت قلوبكم في عشرة أشياء، أولها: عرفتم الله ولم تؤدوا حقه، الثاني: قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، والثالث: ادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه و سلم وتركتم سنته، والرابع: ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه، والخامس: قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، والسادس: قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها، والسابع: قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له، والثامن: اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم، والتاسع: أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها، والعاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم[1].

9- الابتعاد عن أهل السلطة:

ومن مقومات زهده: البعد عن رجال الحكم، وأهل السلطان، لا يحب أن يلقاهم، ولا أن يزورهم، فيصدقهم بكذبهم، ويعينهم على ظلمهم، فيبرأ منه محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يرد عليه حوضه. فإذا اضطرته الأقدار أن يلقى أحدا من ذوي السلطان قال كلمة الحق في وجهه.

وقد روى عنه قوله: أعز الأشياء في آخر الزمان ثلاثة: أخ يؤنس به، وكسب درهم من حلال، وكلمة حق عند ذي سلطان[2].

وروى أبو نعيم أنه دخل إبراهيم بن أدهم على أبي جعفر (المنصور) أمير المؤمنين فقال: كيف شأنكم يا أبا إسحاق؟ قال: يا أمير المؤمنين:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع[3]

ولم يزد على ذلك، ولا استزاده أمير المؤمنين، ولا أدري متى كان هذا اللقاء، ولا في أي مناسبة.

10- حب الخمول والبعد عن الشهرة:

ومن معالم الزهد عنده: الزهد في الشهرة والجاه، وما يسميه الناس في عصرنا بـ (الأضواء) التي يلهث وراءه الكثيرون، وبعض الناس يحرصون عليها أكثر من حرصهم على المال والثروة. وهذا هو الذي جعل بعض الناس يتقاتلون على الجاه والمنصب، وما وراءه من نفوذ وسلطة. وقد قيل: حب الجاه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

1- رواه أبو نعيم في الحلية (8/16-15).

2- رواه أبو ذر الهروي في فوائده (17).

3- رواه أبو نعيم في الحلية (8/10).

ولكن إبراهيم حين طلق الدنيا وفارقها، طلق معها حب الشهرة والمكانة المحمودة عند الناس، وقد قال ابن عطاء الله ذلك: ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه[1]. يشير إلى أن البذرة التي تنبت وتورق وتنمو هي التي تدفن تماما في الأرض، لا التي تبقى على ظهرها، فبهذه لا يتم نتاجها ولا ينتفع بها.

وقد فر مختارا من الحياة الصاخبة الزاهية، إلى هذه الحياة الجديدة العامرة بتقوى الله، شعاره فيها الحديث الصحيح: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[2].

عن عباس بن الفضل المرعشي قال: لقيت عبد العزيز بن أبي رواد، فتذاكرنا أمر إبراهيم بن أدهم. فقال عبد العزيز: رحم الله إبراهيم بن أدهم لقد رأيته بخراسان إذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكري، ولكنه رحمه الله طلب بحبوحة الجنة.

وعن داود بن الجراح قال: كان إبراهيم بن أدهم ينظر كرما في كورة غزة، فجاء صاحب الكرم ومعه أصحابه، فقال: إيتنا بعنب نأكل فأتاه بعنب يقال له: الخافوني، فإذا هو حامض، فقال له صاحب الكرم: من هذا تأكل؟ قال: ما آكل من هذا ولا من غيره، قال: لم؟ قال: لأنك لم تجز لي شيئًا من العنب. قال: فأتني برمان، فأتاه برمان، فإذا هو حامض، فقال: من هذا تأكل؟ قال: لا آكل من هذا ولا من غيره، ولكن رأيته أحمر حسنا فظننت أنه حلو، فقال: لو كنت إبراهيم بن أدهم ما عدا، (أى ما فعلت أكثر من هذا، ثم أنهم ذكروا صفته لبعض الناس فعرفوه)، قال: فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم وترك كراه[3].

وهذا الخمول، والبعد عن الشهرة، هو الذي جعله يختار طريق العمل لا طريق العلم، فلم يشتغل بطلب الحديث أو الفقه، وتعلمه وتعليمه، كما شغل أصحابه وشيوخه؛ سفيان الثوري والفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، والأوزاعي وغيرهم. وقد قال أبو حنيفة يوما لإبراهيم: قد رزقت من العبادة شيئًا صالحا، فليكن العلم من بالك، فإنه رأس العبادة، وقوام الدين[4]. ومع هذا اشتغل إبراهيم بالعمل عن العلم، وخشي على قلبه، من آفة التصدُّر في المجالس للتحديث، والإقراء والإفتاء، وما فيها من فتنة وإغراء.

1- الحكمة الحادية عشر من الحكم العطائية.

2- رواه مسلم في البر والصلة (2564)، وابن ماجه الزهد (4143)، عن أبي هريرة.

3- الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (7/372-371).

4- البداية والنهاية (13/499).

وسئل مرة: لماذا لم تطلب الحديث؟ فقال: أخاف ألا أقوم بحقه.

وروى ابن أبي الدنيا قال: حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال: جلس إبراهيم إلى بعض العلماء، فجعلوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت، ثم قال: حدثنا منصور. ثم سكت، فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك! فقال: إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قلبي إلى اليوم[1].

وقال رشدين بن سعد: مر إبراهيم بن أدهم بالأوزاعي وحوله حلقة، فقال: لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم. فقام الأوزاعي وتركهم.

وقال إبراهيم بن بشار: قيل لابن أدهم: لم تركت الحديث؟ فقال: إني مشغول عنه بثلاث: بالشكر على النعم، وبالاستغفار من الذنوب، وبالاستعداد للموت، ثم صاح وغشي عليه فسمعوا هاتفا يقول: لا تدخلوا بيني وبين أوليائي[2].

بل جعلوا من فضائله: أنه روى حديثا واحد في الزهد، فنفعه الله به، واستغنى عن كثير مما يطلبه الناس.

روى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال: إنما سمع إبراهيم بن أدهم من منصور حديثا، فأخذ به، فساد أهل زمانه، قال: حدثنا منصور، عن ربعي بن خراش قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس. قال: "إذا أردتَ أن يحبُّك الله فابغض الدنيا، وإذا أردتَ أن يحبُّك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذه إليهم[3].

ولكن زهده في الناس، لا يعني الانعزال عنهم تماما، كما يفعل الرهبان، بل يخالطهم في مساجدهم وصلواتهم وجمعهم وجماعاتهم، ويصاحب الأخيار منهم، ويخدمهم بما يستطيع، ولكنه لا يجعل رضاهم أكبر همه، فرضا الناس غاية لا تدرك، وهو ينظر إلى الله مثل أن ينظر إليهم، ويسعى إلى مرضاته وإن أسخطتهم. شعاره:

إذا صح منك الود فالكل هين		وكل ما فوق التراب تراب[4]

---

[1]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (290/6) من طريق ابن أبي الدنيا.

[2]- المصدر السابق (292/6-291).

[3]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (290/6).

[4]- من شعر: عبد الغني النابلسي.

كان يقول: فروا من الناس كفراركم من السبع الضاري ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة[1].

11- العبادة والعمل الصالح لله خالصا:

ومن معالم زهده، أو قل: من معالم طريقه الذي سلكه: الانشغال بعبادة الله وبالعمل الصالح الخالص، عمن سواه، وعما سواه. فلا يشغله شيء غير طاعة الله، وعبادة الله. وكان عامة دعائه: اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك[2]. وكانت قُرَّة عينه في التعبد لله، وخصوصا إذا كان بعيدا عن أعين الناس.

قال أصحابه: صلى بنا العتمة (أي: العشاء) ثم ما زال راكعا وساجدا ومتفكرا حتى الصبح، ثم صلى بن الصبح على وضوء العتمة[3]!

ولم يكن أكبر همّه كم العبادة، ولكن كيفها. ماذا فيها من إخلاص، وما وراءها من تفكر. قيل لعلى بن بكار من أصحابه: كان إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة؟ قال: لا، ولكنه كان صاحب تفكر، يجلس ليله يتفكر[4].

وكان يستريح بالخلوة مع الله، بمعزل عن الناس. قالوا: رئي إبراهيم بن أدهم خارجا من الجبل، فقيل: من أين؟ فقال: من الأنس بالله عز وجل[5].

وكان يقول: أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم بالنهار[6].

وكان في شهر رمضان يحيى ليله بالصلاة والذكر، ويعمل نهاره في الحصاد.

روى أبو نعيم بسنده إلي إسحاق الفزاري قال: كان إبراهيم بن أدهم في شهر رمضان يحصد الزرع بالنهار، ويصلِّي بالليل، فمكث ثلاثين يوما لا ينام بالليل ولا بالنهار!! أقول: وهل في استطاعة الإنسان ذلك؟ أو هو من المبالغات التي تعتاد في مثل ابن أدهم؟

روى أبو نعيم في (الحلية) بسنده إلى موسى بن عبد الله الطرسوسي قال: سمعتُ أبا يوسف الغسولي يعقوب بن المغيرة يقول: كنا مع إبراهيم ابن أدهم في الحصاد في شهر رمضان، فقيل له:

---

[1]- البداية والنهاية (503/13)، وهو في تاريخ دمشق لابن عساكر (313/6).

[2]- رواه أبو نعيم في الحلية (31/8- 32).

[3]- رواه أبو نعيم في الحلية (385/7- 386).

[4]- رواه أبو نعيم في الحلية (17/8).

[5]- رواه أبو نعيم في الحلية (20/8).

[6]- رواه أبو نعيم في الحلية (31/8).

يا أبا إسحاق لو دخلت بنا إلى المدينة فنصوم العشر الأواخر بالمدينة لعلنا ندرك ليلة القدر؟ فقال: أقيموا ههنا وأجيدوا العمل، ولكم بكل ليلة ليلة القدر[1]!

[1]- الأثران روهما أبو نعيم في الحلية (378/7).

عبد الله بن المبارك (181هـ)

الشخصية الثانية التي اخترتها مع إبراهيم بن أدهم، نموذجا للزهاد المسلمين الأوائل، هي: شخصية عبد الله بن المبارك، وهي شخصية أعجبت بها من قديم، وتمنيت لو يمنحني الله تعالى رزازا من وابل فضلها.

وهي شخصية تجتمع مع ابن أدهم في الورع والزهد، وفي السخاء والإيثار، وفي التعبد لله والإخلاص له، وفي خدمة الأصحاب والرفقاء، والمشاركة في الجهاد، ولكنها تختلف عنه في التجارة والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله، وامتلاك المال والغنى، وتسخيره في عمل الخير، وإنفاقه على طلاب العلم وأهل الحديث، وفي الاختلاط بالناس، وطلب العلم والفقه في الدين، وحفظ الحديث، ثم تعليم الناس، وتفقيههم في دين الله، وفي معرفة كتاب الله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنصح للأمة، وجمع خصال الخير والمكارم، فهو ممن سماهم السلف: (الرباني) وهو الذي يعلم ويعمل ويعلّم. ويزيد على ذلك، أنه يرابط ويجاهد في سبيل الله.

فهو شخصية متعددة المواهب، متنوعة القدرات، ثرة العطاء، ثرية بالمكرمات، انعقدت له الإمامة في عدة مجالات: الإمامة في الحديث، والإمامة في الفقه، والإمامة في الورع، والإمامة في الزهد، والإمامة في العبادة، والإمامة في السخاء، والإمامة في الجهاد، والإمامة في الأدب ومكارم الأخلاق. وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

ترجم له مؤرخ الإسلام، الحافظ الذهبي في (السير) فقال: الإمام، شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم، التركي ثم المروزي، الحافظ الغازي، أحد الأعلام. وكانت أمه خوارزمية. ولد سنة ثمان عشرة ومائة (118هـ). فطلب العلم وهو ابن عشرين سنة.

وبعد أن تحدث عن شيوخه الذين أخذ عنهم، وتلاميذه الذين رووا عنه، قال: وصنف التصانيف النافعة الكثيرة.

وترجم له ابن كثير كذلك في كتابه (البداية والنهاية) ترجمة مركزة، فقال:

عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن المَرْوَزِيُّ، كان أبوه تركيا، مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همذان، فكان ابن المبارك إذا قدِمها أحسن إلى ولد مولاهم، وكانت أمه

خُوارزميّة، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، وسمع إسماعيل بن أبي خالد، والأعمش، وهشام بن عروة، وحميدا الطويل، وغيرهم من أئمة التابعين. وحدّث عنه خلائق من الناس، وكان موصوفا بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة، وله التّصانيف الحسان، والشِّعر المتضمن حكما جمَّة، وكان كثير الغزو والحج، وكان له رأس مالٍ نحوُ أربعمائة ألف يدور يتّجر به في البلدان، فحيث اجتمع بعالم بلدة أحسن إليه، وكان يربو كسبُه في كل سنة على مائة ألف، ينفقها كلها في أهل العلم والعبادة، وربما أنفق من رأس المال[1].

قال سفيان بن عيينة: نظرت في أمره وأمر الصحابة، فما رأيتهم يفْضُلون عليه إلا بصحبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وقال إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثله، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك، ولقد حدّثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة، فكان يطعمهم الخبيص، وهو الدّهرَ صائم[3].

وقال مولى ابن المبارك: اجتمع جماعة مثل الفضْل بن موسى، ومَخْلد بن الحسين، فقالوا: تعالوا نعدّ خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة (الشدة في الجسم)، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه[4].

منزلته بين العلماء:

لم يبلغ عالم من سمو المقام، وعلو المنزلة، ما بلغه عبد الله بن المبارك بين علماء الأمة في مشرقها ومغربها، مع أنه كان من الموالي، فأبوه تركي، وأمه خوارزمية. لم يشذ عن ذلك محدث أو فقيه أو أديب أو مؤرخ.

قال الأوزاعي لعبد الرحمن بن يزيد الجهضمي: رأيت ابن المبارك؟ قال: لا، قال: لو رأيته لقرت عينك[5].

---

[1]– البداية والنهاية (610/13).

[2]– تاريخ بغداد (163/10)، وتاريخ دمشق (321/38)، والمنتظم (58/9، 59).

[3]– تاريخ بغداد (157/10)، وتاريخ دمشق (332/38)، والمنتظم (58/9).

[4]– سير أعلام النبلاء (397/8).

[5]– رواه أبو نعيم في الحلية (162/8).

وقال عبد العزيز بن أبي رزمة: قال لي شعبة: عرفت ابن المبارك؟ قال: نعم، قال: ما قدم علينا من ناحيتكم مثله[1].

وقال إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك[2].

وقال أبو أسامة: كان ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس[3].

وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء: ما أخرجت خراسان مثل هؤلاء الثلاثة: ابن المبارك، والنضر بن شميل، ويحيى بن يحيى[4].

وقال ابن مهدي: ما رأيت رجلا أعلم بالحديث من الثوري، ولا أحسن عقلا من مالك، ولا أقشف من شعبة، ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك[5].

وكان يقول: كان ابن المبارك أعلم من الثوري[6].

قيل لابن مهدي مرَّة: أيهما أفضل عندك، ابن المبارك أو سفيان الثوري؟ فقال: ابن المبارك، فقيل: إن الناس يخالفونك، قال: إن الناس لم يجربوا[7].

وقدم ابن مهدي بغداد في بيع دار له، فاجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: جالست سفيان الثوري وسمعتَ منه، وسمعتَ من عبد الله، فأيهما أرجح؟ فقال: ما تقولون لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يوما مثل عبد الله لم يقدر[8].

وقال سفيان نفسه: إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام[9].

وكان أبو إسحاق الفزاري يقول: ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين – قال الذهبي: أي في زمانه – وقال المسيب ابن واضح، ورأيت أبا إسحاق بين يدي ابن المبارك قاعدا يسائله[10].

---

[1]- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (157/10)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (413/32).

[2]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (426/32).

[3]- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (156/10).

[4]- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (155/10).

[5]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (421/32).

[6]- انظر: تاريخ الإسلام (223/12).

[7]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (419/32).

[8]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (420/32).

[9]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (412/32).

[10]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (417/32).

وهل تدري من أبو إسحاق هذا؟ هو من كان الأوزاعي يقول فيه: إنه والله خير مني، وقال أبو داؤد الطيالسي: ما على وجه الأرض أفضل منه[1].

ونعى ابن المبارك إلي ابن عيينة، فقال: لقد كان فقيهًا، عالمًا، عابدًا، زاهدًا، سخيًا، شجاعًا، شاعرًا[2].

ونعي إلى الفضيل بن عياض، فقال: رحمه الله أما أنه ما خلف بعده مثله[3].

وقال شعيب بن حرب: ما لقي ابن المبارك رجلا إلا وابن المبارك أفضل منه[4].

وقال الحاكم: هو إمام عصره في الآفاق، وأولاهم بذلك علمًا، وزهدا، وشجاعة، وسخاء[5].

وقال النسائي: لا نعلم في عصر ابن المبارك أجل من ابن المبارك، ولا أعلى منه، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه[6].

وقال أبو عمر بن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله، وجلالته، وإمامته، وعدله[7].

وقال الأسود بن سالم: إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام[8].

وقال الخليلي في الإرشاد: ابن المبارك الإمام المتفق عليه، له من الكرامات ما لا يحصى[9].

وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ: الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، فخر المجاهدين، قدوة الزاهدين، وقال في ترجمته: والله إني لأحبه وأرجو الخير بحبه، لما منحه الله من التقوى، والعبادة، والإخلاص، والجهاد، وسعة العلم، والإتقان، والمواساة، والفتوة، والصفات الحميدة[10].

وأنا (القرضاوي) أقول ما قال الإمام الذهبي: والله إني لأحبه وأرجو الخير بحبِّه، وأحبُّ مَن يحبُّه، وأتقرَّب إلى الله بحبِّه، وأدعو الله أن يحشرنا معه تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم.

ملك غير متوج:

1– انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (58/12).

2– رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (415/32).

3– رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (417/32).

4– رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (425/32).

5– انظر: تهذيب التهذيب (337/5).

6– انظر: تهذيب التهذيب (338/5).

7– انظر: البداية والنهاية (613/13).

8– انظر: تهذيب التهذيب (338/5).

9– انظر: تهذيب التهذيب (337/5).

10– تذكرة الحفاظ (254/1).

وقد قدم مرَّة إلى الرَّقة، وبها هارون الرشيد، فلما دخلها انجفل الناس يُهرعون إلى ابن المبارك، وازدحم الناس حوله، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت: ما للناس؟ فقيل لها: قدم رجل من علماء خراسان يقال له: عبد الله بن المبارك، فانجفل الناس إليه. فقالت المرأة: هذا هو الملك، لا ملكُ هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسَّوط والعصا والرغبة والرهبة[1].

شعر ابن المبارك:

قال الذهبي: وقد كان ابن المبارك رحمه الله شاعرا، محسنا، قوالا بالحق.

وهو كذلك. ففي شعره كثير من الحكم والمواعظ، ووصف آفات الأنفس، ومداخل الشيطان إليها، وقد روى شعره المتصوفة وأرباب السلوك، ومن شعره:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها؟

لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي اللب إنتانها!

وروى إسحاق بن سنين لابن المبارك:

إني امرؤ ليس في ديني لغامزه ... لِينٌ ولست على الإسلام طعانا

فلا أسُبُّ أبا بكر ولا عمرا ... ولن أسب مَعَاذَ الله عثمانا

ولا ابن عمِّ رسول الله أَشْتِمُه ... حتى أُلَبَّس تحت التُّرب أكفانا

ولا الزُّبَير حواريِّ الرسول ولا ... أُهدي لطلحة شَتْمًا عزَّ أَوْهانا

ولا أقول عَلِيٌّ في السحاب إذَنْ ... قد قُلتُ والله ظُلما ثُمَّ عدوانا

ولا أقول بقول الجَهْم إن له ... قولا يضارع أهل الشرك أحيانا

ولا أقول تخلى من خليقته ... رب العباد وولى الأمر شيطانا

ما قال فرعون هذا في تمرده ... فرعون موسى ولا هامان طغيانا

الله يدفع بالسلطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ورضوانا

لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل ... وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

---

[1]– رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (447/32).

يقال: إن الرشيد أعجبه هذا، فلما أن بلغه موت ابن المبارك بهيت[1] قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. يا فضل: إيذن للناس يُعَزُّونا في ابن المبارك. وقال: أما هو القائل:

الله يدفع بالسلطان معضلة...

فمن الذي يسمع هذا من ابن المبارك، ولا يعرف حقَّنا[2]؟

معالم الزهد عند ابن المبارك:

وللزهد وسلوك طريق الآخرة عند ابن المبارك معالم تميز طريقته عن طريقة غيره، فهو – كما أشرنا من قبل – يلتقي مع إبراهيم بن أدهم في أشياء كثيرة، ويختلف معه في بعض الأشياء.

وهنا نشير إلى معالم طريقته في الزهد والسلوك، حتى تتبين لنا الملامح الأساسية لهذه الطريقة، وهذه الشخصية الربانية.

هذه المعالم هي:

1- تشدده في الورع.

2- الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة.

3- الاجتهاد في العبادة مع إخفائها.

4- السخاء والتوسعة على أهل العلم.

5- سخاؤه في الجهاد والحج.

6- الحرص على الجهاد والرباط.

7- أدبه مع أصحابه، وحسن تربيته.

8- الفقه في الدين وبث العلم.

9- البعد عن أهل البدع وأهل السلطة.

ولنتحدث عن كل معلم من هذه المعالم بكلمة مناسبة.

1- تشدُّده في الورع:

كان لابن المبارك رحمه الله سلوك في الورع يذهب فيه مذهب التشديد على نفسه في تحري الحلال، ولا يتساهل في القليل، خشية أن يجر إلى الكثير، ويريد ألا يدخل عليه أيّ شيء فيه أدنى شبهة، عالما بأن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وهو يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه.

---

[1]– هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد. انظر: معجم البلدان (420/5).

[2]– انظر: سير اعلام النبلاء (414/8).

من ذلك أنه كان لأبي عبد الله بن المبارك بستان بمرو، فنحله (عبد الله)، فلما كبر عبد الله وترعرع وجالس أهل العلم وطلب العلم، جاء إلى أخواته، فقال لهن: إن أبانا كان صنع أمرا لم ينبغ له أن يصنعه، نحلني هذا البستان دونكن، وليس أحد أحق أن يخرج أباه مما جعل فيه مني، فقد رددت هذا البستان وجعلته ميراثا بيننا على كتاب الله عز وجل، فحلِّلوا أبانا مما كان دخل فيه، فقلن له: أنت في حل، وأبونا في حل، وهو لك كما كان والدنا نحلك، قال: لا، ولكنه ميراث بيننا فحلِّلوه، فحلّلوه، فتزوج عبد الله فولد له ابن، فنحل الأخوات ابن عبد الله حصصهن من البستان، فمات الغلام، فورثه عبد الله، فرجع إليه البستان كما كان أبوه نحله[1].

وفي هذا عبرة لمن تدبّر، فإن الرزق لا ينقص إذا عرف الإنسان حق الله فيه، وتورع عما فيه من شبهات.

ومن عجيب ورعه: أنه استعار قلما من رجل بأرض الشام، فنسيه وذهب عليه أن يرده إلى صاحبه، فلما قدم بلده مرو نظر فإذا القلم معه، فرجع إلى أرض الشام حتى رده على صاحبه[2].

وقال له رجل: احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله، فقال: حتى استأمر الحمّال فإني قد اكتريت. فانظر كيف تورع من استصحاب كتاب لا وزن له، وهو طريق الحزم في الورع، فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرًا يسيرًا[3].

وروي أنه خرج إلى الغزو فنزل إلى نهر، ونصب رمحه وربط فرسه، فتوضأ وشرع في الصلاة، فلما سلم رأى أن فرسه انفلت بأكل الزرع، فقال: أنه أكل حراما فلا ينبغي أن يغزى عليه، وتركه لصاحب الزرع، واشترى فرسا أخرى وقضى سبيله[4].

وكان لا يأكل من كسْب غلامه إذا باع شيئًا، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عند بيعه، فكان يقول: إنك أطريت عليه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدحته بها حتى اشتراه الناس[5]. فهو يرى أن الصلاة على رسول الله عبادة، لا ينبغي أن تستغل في ترويج السلع والمبيعات.

1– رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (268/1).

2– رواه الخطيب في تاريخ بغداد (167/10).

3– إحياء علوم الدين (238/1).

4– كنوز الأولياء صـ 186.

5– تنبيه المغترين صـ 121

وكان لا يصلي بمرو في المسجد الجامع إلا الجمعة لا يرى أن يتطوع فيه بسبب أن أبا مسلم كان قد اغتصب منه شيئًا[1].

وقال الحسن: رأيت في منزل ابن المبارك حمامًا طائرة, فقال ابن المبارك: قد كنا ننتفع بفراخ هذه الحمام, فليس ننتفع بها اليوم, قلت: ولم ذلك؟ قال: اختلطت بها حمام غيرها, فتزاوجت بها, فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك[2].

ردّ ما فيه شبهة أعظم من الصدقة بأضعافه:

ومن أقواله في الورع، قوله: لأن أرد درهما من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى يبلغ ستمائة ألف[3].

ويقول: لأن أتصدق بدرهم من حلال أحب إليّ من أتصدق بستين درهما من شبهة[4].

وقال عن الورع: لو أن رجلا أنفق مائة شيء، ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعًا، ومن كان فيه ضلة من الجهل كان من الجاهلين، أما سمعتَ الله تعالى يقول لنوح عليه السلام: **{إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي}** [هود:45]، فقال الله تعالى:**{إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}** [هود:46][5].

منهجه في الزهد:

قال علي بن الفضيل: سمعتُ أبي يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل، والبُلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي! إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي. لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به، قال له الفضيل: يا ابن المبارك! ما أحسن ذا، إن تم ذا[6].

ومن فقهه في الزهد: أنه إذا اشتهت نفسه شيئًا لا يحرمه على نفسه، ولكن يأكل مع إخوانه فيشركهم معه، حتى لا ينفرد هو بما يشتهي.

تجارته وضربه في الأرض:

---

[1]- رواه أحمد في الورع صـ 25.

[2]- انظر: صفة الصفوة (136/4).

[3]- رواه ابن أبي الدنيا في الورع (206).

[4]- رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (280/1).

[5]- رواه أبو نعيم في الحلية (167/8).

[6]- رواه البيهقي في الشعب (1266).

كان ابن المبارك تاجرا، كما كان بعض الصحابة تجارا مثل أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان وغيرهم. والإسلام لم يذم التجارة، ولكنه حذر من أن تشغل صاحبها عن التجارة التي لا تبور، وهي المذكورة في قول الله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ* لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}** [فاطر:29،30].

وأعتقد أن عبد الله بن المبارك، وإن اشتغل بتجارة الدنيا لم تلهه عن تجارة الآخرة. وأنه من الرجال الذين قال الله فيهم: **{رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}** [النور:37].

ولاسيما أن تجارة الدنيا لم تنسه أربح تجارة في الدنيا والآخرة، وهي التي قال الله تعالى فيها: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [الصف:11،10].

وقد قدر رأس مال ابن المبارك ب 400000 أربعمائة ألف درهم، وهذا مبلغ كبير بالنسبة للقوة الشرائية للنقود، وكانت تدر عليه سنويا حوالي 100000 مائة ألف درهم. كان ينفقها كلها على طلبة العلم وأهل الحديث، ويفرج بها كربة المكروبين. وربما أنفق من رأسماله.

وقد قال للفضيل بن عياض: لولا أنت وإخوانك ما اتجرت[1].

وقيل له: لم لا تنفق أموالك في بلدك، وتخرج أكثرها إلى بلاد أخرى؟ فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم، ضاع علمهم، وإن أغنّاهم، بثوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم[2].

2- الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة:

ومن معالم زهده: خشيته الله تعالى، والخوف من حسابه، وذكر الموت، والدار الآخرة.

قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق، يصير كأنه ثور منحور، أو بقرة منحورة، من البكاء، لا يجتزئ أحد منا أن يسأله عن شيء إلا دفعه[3].

1- انظر: الثقات لابن حبان (8/7).

2- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (160/10).

3- رواه البيهقي في الشعب (986).

وقال أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب: سمعتُ الخليل أبا محمد، قال: كان عبد الله بن المبارك إذا خرج إلى مكة قال:

بُغض الحياة وخوف الله أخرجني   وبيع نفسي بما ليست له ثمنا

إني وَزنتُ الذي يبقى ليَعْدِله   ما ليس يبقى فلا والله ما اتَّزَنَا[1]

وقيل لابن المبارك: إن رجلا ختم القرآن في ركعة! فقال ابن المبارك: ولكني أعرف رجلا ظل ليلة كاملة لم يغادر: **{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}** [التكاثر:1]! يعني نفسه[2].

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن ابن وهب قال: رأى رجل سهيل بن علي في المنام، فقال: ما فعل بك ربك؟ قال: نجوت بكلمة علمنيها ابن المبارك. قلت له: ما تلك الكلمة؟ قال: قول الرجل: يا رب عفوك عفوك[3].

وقد روى بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق شداد بن أوس: "الكَيّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"[4].

وروى عنه كذلك من حديث أبي هريرة: "ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، وما رأيت مثل النار نام هاربها"[5].

وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيرا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضّل هذا الرجل علينا، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلِّي إنا لنصلِّي، وإن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج. قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام نتعشى في بيت، إذ أطفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج، وخرج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضّل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة، ذكر ظلمة القيامة[6].

---

[1]- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (166/10).

[2]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (435/32).

[3]- رواه أبو نعيم في الحلية (171/8).

4- رواه أحمد في المسند (17123)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لضعف أبي بكر ابن أبي مريم، وباقي رجال الإسناد ثقات، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (2459)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الزهد (4260)، والحاكم في المستدرك كتاب التوبة (280/4)، وأبو نعيم في الحلية (174/8)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[5]- رواه الطبراني في الأوسط (1638)، والبيهقي في الشعب (389)، وأبو نعيم في الحلية (178/8).

[6]- انظر: صفة الصفوة (145/4).

وعن الفضيل بن عياض قال: قال ابن المبارك: أكثركم علما ينبغي أن يكون أشدكم خوفا، وقال لي ابن المبارك: استعد للموت ولما بعد الموت، قال الفضيل: فشهق علي شهقة، فلم يزل مغشيا عليه عامة الليل[1].

وقد روى في كتابه (الزهد) عن ابن مسعود قوله: كفى بخشية الله علما، وكفى باغترار بالله جهلا[2].

3- الاجتهاد في العبادة مع إخفائها:

وكان ابن المبارك مجتهدا في عبادة الله تعالى، ويجد فيها قرة عينه، وسعادة قلبه، فالحياة الحقيقية عنده هي حياة الروح، وهي روح الحياة، لا حياة البطن والشهوات.

وكان يقول عن أهل الملك وأهل الثروة: مساكين هؤلاء، خرجوا من الدنيا ولم ينعموا بأطيب ما فيها! قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل.

وكان يقوم الليل، ويصوم النهار، ولا يكاد أحد يراه صائما.

قال قطن بن سعيد: ما أفطر ابن المبارك قط، ولا رئي صائما قط[3]! يعني أنه كان لا يتظاهر بالصيام، ولا يحس به أحد.

روى الفضيل بن محمد الشعراني، قال حدثنا عبدة بن سليمان، قال: سمعتُ رجلا يسأل ابن المبارك عن الرجل، يصوم يوما ويُفطر يوما. قال: هذا رجل يضيع نصف عمره، وهو لا يدري. يعني: لم لا يصومها[4].

قال الذهبي: أحسب ابن المبارك لم يذكر حينئذ حديث: "أفضل الصوم صوم داود"[5] ولا حديث: النهي عن صوم الدهر.

قلت (القرضاوي): ومن المعلوم أن هناك من السلف من صاموا الدهر – إلا الأعياد – ولهم في ذلك تأويلات.

وقال نُعيم: ما رأيت أعقل من ابن المبارك، ولا أكثر اجتهادا في العبادة[1].

1- رواه أبو نعيم في الحلية (168/8).

2- الزهد (46).

3- رواهما أبو نعيم في الحلية (167/8).

4- انظر: سير أعلام النبلاء (406/8).

5- متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (5052)، ومسلم في الصيام (1159)، كما رواه أحمد في المسند (6915)، والترمذي (770)، والنسائي (2377)، وابن ماجه (1706)، ثلاثتهم في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

وعن عبد الكريم السُّكَّري قال: كان عبد الله يعجبه إذا ختم القرآن أن يكون دعاؤه في السجود[2].

ومع هذا كان يستقل طاعته وعبادته، بالنظر إلى حق الله تعالى عليه، ويخاف على نفسه من العجب، وهو يراه شر الذنوب، قال أبو وَهْب المروزي: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلِّين شيئًا شرا من العُجْب[3].

4- سخاؤه وتوسعته على إخوانه من أهل العلم:

ومن معالم زهده: سخاؤه الذي عرف به، وخصوصا على إخوانه من أهل الحديث، وطلبة العلم. فكان يتقرب إلى الله بإكرامهم، ويسعى إلى إعانتهم بالمطعومات الطيبة، والحلويات الشهية، التي لا يجدونها في بيوتهم، ولاسيما في رحلاته وأسفاره معهم، في طلب العلم، أو الحج، أو الجهاد.

قال حبان بن موسى: رأيت سُفرة ابن المبارك حُمِلَت على عَجَلة.

وقال أبو إسحاق الطالْقاني: رأيت بعيرين محمَّلين دجاجا مشويا لسُفرة ابن المبارك.

وروى عبد الله بن عبد الوهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن سَهْم، قال: كنت مع ابن المبارك، فكان يأكل كل يوم، فيُشوى له جَدْي، ويتخذ له فالوذق[4]. فقيل له في ذلك. فقال: إني دفعتُ إلى وكيلي ألف دينار، وأمرته أن يوسِّع علينا.

قال الحسن بن حمَّاد: دخل أبو أسامة على ابن المبارك، فوجد في وجهه عبدُ الله أثر الضُّرِّ، فلما خرج، بعث إليه أربعة آلاف درهم، وكتب إليه:

وفتى خلا من ماله ... ومن المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله ... وكفاك مكروه السؤال

وقال المسيِّب بن واضح: أرسل ابن المبارك إلى أبي بكر بن عياش أربعة آلاف درهم، فقال: سُدَّ بها فتنة القوم عنك.

1- رواه أبو نعيم في الحلية (359/6).

2- رواه البيهقي في الشعب (2088).

3- انظر: سير أعلام النبلاء (407/8).

4- الفالوذق، كالفالوذج نوع من الحلوى تسوى من لب الحنطة، فارسي معرب.

قال علي بن خشرم: قلت لعيسى بن يونس: كيف فَضَلكم ابن المبارك، ولم يكن بأسنَّ منكم؟ قال: كان يقدم، ومعه الغِلْمة الخراسانية، والبِزَّة الحسنة، فيصِلُ العلماء، ويُعطيهم، وكنا لا نَقْدِر على هذا.

قال نُعَيم بن حمَّاد: قَدِم ابن المبارك أيْلَة على يونس بن يزيد، ومعه غلام مفرَّغ لعمل الفالوذج، يتخذه للمحدثين[1].

وسأله مرة سائل، فأعطاه درهما، فقال له بعض أصحابه: إن هؤلاء يأكلون في غدائهم الشواء والفالوذَج، وقد كان يكفيه قطعة. فقال: والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز، فأما إذا كان يأكل الشواء والفالوذج، فلا بدَّ من عشرة دراهم! يا غلام: ردَّه وأعطه عشرة دراهم[2].

5- سخاؤه في الحج والجهاد:

وكان أظهر ما يكون سخاؤه إذا سافر مع أصحابه لحج أو جهاد، فهو يؤثرهم على نفسه، ويبالغ في إكرامهم وإعانتهم على أداء طاعة الله عز وجل. وكانت سُفرته تُحمل على بعير وحدها، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك، يُطعمه وهو صائم لله عز وجل في الحر الشديد.

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه: من عزم منكم على الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم، ويكتب على كل صُرَّة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب، وحسن الخُلُق والتيسير عليهم، فإذا قضوا حجتهم يقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصّاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها، فإذا جاءوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية، فإذا قفلوا بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورُمِّم شَعَثُها، فإذا رجعوا إلى أوطانهم عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه، وأخرج منه تلك الصرر، كل صرة عليها اسم صاحبها. ثم يُقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم، وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل[3].

---

[1]- انظر: سير أعلام النبلاء (8/410-409).

[2]- انظر: البداية والنهاية (13/612).

[3]- انظر: البداية والنهاية (13/611).

وأورد الذهبي في أعلامه ما حدث به عمر بن حفص الصوفي بِمَنْبِجَ، قال: خرج ابن المبارك من بغداد، يريد المَصيِّصة، فصحبه الصوفية، فقال لهم: أنتم لكم أنفس تَحْتَشِمون أن يُنفقَ عليكم. يا غلام هات الطَّست، فألقى عليه منديلا، ثم قال: يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم، والرجل يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المصيِّصة، ثم قال: هذه بلاد نفير. فنقسم ما بقيَ، فجعل يعطي الرجل عشرين دينارا، فيقول: يا أبا عبد الرحمن، إنما أعطيت عشرين درهما، فيقول: وما تُنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته[1].

6- الحرص على الجهاد والرباط:

كما اعتاد ابن المبارك على بذل العلم للناس ابتغاء وجه الله، وبذل المال لأهل الحاجة، ولاسيما من طلاب العلم، وأهل الحديث لله تعالى، اعتاد كذلك بذل النفس والروح لإعلاء كلمة الله جل جلاله. ولذا كان الرباط والجهاد جزءا لا يتجزأ من حياته.

وكان له في الجهاد من روائع البطولات ما يستحق أن يحكى ويروى ويعلن، ولكنه كان حريصا كل الحرص أن يصنع ذلك سرا، لوجه الله وحده، ولا يُشِعر به أحدا، حتى يكون جهاده خالصا لله. وكانت دولة الروم البيزنطية تهدد المسلمين باستمرار، ولذا كان كثير من العلماء والصالحين يرابطون على الثغور، أي على حدود الدولة الإسلامية مع الدولة الرومية، ولاسيما الثغور المخوفة، فيقيمون فيها تحسبا لأي اعتداء، فينادي المنادي، فيهمون سراعا لملاقاة الأعداء.

قال محمد بن المثنى: حدثنا عبد الله بن سِنَان قال: كنت مع ابن المبارك، ومُعتمر بن سليمان بطَرَسُوس، فصاح الناس: النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطف الجمعان، خرج رومي، فطلب البراز، فخرج إليه رجل، فشد العِلْجُ عليه فقتله، حتى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إلي ابن المبارك، فقال: يا فلان، إن قتلت فافعل كذا وكذا، ثم حرك دابته، وبرز للعلج، فعالج معه ساعة، فقتل العِلجَ، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر فقتله، حتى قتل ستة علوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لئن حدثت بهذا أحدا، وأنا حي، فذكر كلمة[2]. يعني كلمة تشعر بغضبه عليه إذا أفشى سره.

---

[1]- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (10/158-157)، وانظر سير أعلام النبلاء (8/385).

[2]- انظر: سير أعلام النبلاء (8/408- 409).

وهكذا نراه لم يكن مجرد مشارك في الجهاد، يكثّر السواد، ويحرض الآخرين، بل رأيناه بطلا من الأبطال، وفارسا من أكابر الفرسان، وإن كان لا يحب أن يشار إليه بالبنان، ولهذا كانوا يعتبرون (الفروسية) من فضائله.

وقصة أخرى من قصص بطولاته الجهادية التي كان يجتهد في إخفائها حتى لا تعرف، أوردها الذهبي في (أعلامه) وهي ما رواه أبو حاتم الرازي، قال: حدثنا عبدة بن سليمان المروزي قال: كنا في سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان، خرج رجل من العدو، فدعا إلى البِراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل، فطارده ساعة فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فنظرت فإذا هو عبد الله بن المبارك، وإذا هو يكتم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته، فإذا هو هو! فقال: وأنت يا أبا عمرو ممَّن يشنِّع علينا[1]!!

وقد كان في الجهاد يحدّث الناس ويعلّمهم، ويسخو على من حوله، مع اجتهاده في العبادة، وقد كتب إلى أخيه في الله الورع الزاهد العابد المشهور الفضيل بن عياض، يغريه باللحاق به في الجهاد. قال الذهبي: روى عبد الله بن محمد قاضي نَصيبين، حدثنا محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة، قال: أملى عليَّ ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومائة، وأنفذها معي إلى الفُضَيل بن عياض من طرسوس:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب[2]
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم، فقرأه وبكى، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح[3].

7- أدبه مع أصحابه وحسن تربيته لتلاميذه:

---

[1]- انظر: سير أعلام النبلاء (394/8).

[2]- الرَّهْج والرَّهَج: الغبار، والسنابك جمع سنبك طرف حافر الخيل وجانباه من قدام.

[3]- انظر: سير أعلام النبلاء (412/8).

وكـان مـع أصـحابه مـثلًا عاليـا لـلأدب الرفيـع، يـوقر كبيـرهم، ويـرحم صـغيرهم، ويأخـذ بيـد ضعيفهم، ويتعلم من علمائهم، ويعلّم من طلب العلم منهم، ويؤدب من أخطأ برفق.

قال عبيد بن جناد: ما رأيتُ أحدا مثل ابن المبارك، إذا ذكر أصحابه فخَّمهم، يقول: وأين مثل فلان؟ ثم يقول: الرفيع مَن يرفعه الله بطاعته، والوضيع مَن وضعه[1].

وكان يقدِّر شيوخه، ويعرف منزلتهم، ويعطيهم حقَّهم من التوقير. وقد نوَّه المؤرخون بأدبه مع حماد بن زيد حين قدم عليه. قال إسماعيل الخُطَبي: بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حمَّاد بن زيد، فقال أصحاب الحديث لحمَّاد: سل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا. فقال: يا أبا عبد الرحمن، تحدِّثهم، فإنهم قد سألوني؟ قال: سبحان الله، يا أبا إسماعيل أُحدِّثُ وأنت حاضر؟! فقال: أقسمتُ عليك لتفعلنَّ. فقال: خذوا. حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد ... فما حدَّث بحرف إلا عن حماد[2].

وسُئل مرَّة: مَن الأئمة؟ فقال: سفيان وأصحابه.

وقال: قد جمعتُ علم العلماء، فليس فيما جمعتُ أحب إليَّ من علم الفضيل بن عياض[3].

وحدَّث ابن حميد قال: عطس رجل عند ابن المبارك، فلم يحمد الله، فقال ابن المبارك: إيش يقول العاطس إذا عطس؟ قال: يقول: الحمد لله، فقال له: يرحمك الله! قال ابن حميد: فعجبنا كلُّنا من حسن أدبه[4].

وقال يحيى بن يحيى الأندلسي: كنا عند مالك، فاستؤذن لابن المبارك، فأذن له، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه، ثم أقعده بلصقه، ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارئ يقرأ على مالك، فربما مر بشيء فيسأله مالك: ما عندكم في هذا؟ فكان عبد الله يجيبه بالخفاء، فأعجب مالك بأدبه، ثم قال لنا: هذا ابن المبارك فقيه خراسان[5]. وقال: ابن المبارك عندنا آدب من سفيان.

وقال ابن المبارك: كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين[6].

وقال أيضا: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون[7].

---

[1]- رواه أبو نعيم في الحلية (169/8).

[2]- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (155/10)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (444/32).

[3]- رواه أبو نعيم في الحلية (168/8).

[4]- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (155/10).

[5]- انظر: سير أعلام النبلاء (420/8).

[6]- انظر: صفوة الصفوة (145/4).

[7]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (445/32).

حسن تربيته وتعليمه:

ولم يكن ابن المبارك مثل كثير من المحدّثين، همّه أن يكثر من الرواية، وأن يطلب علو الأسانيد، بل كان محدّثا ومربيا في الوقت نفسه، يُعنى بإصلاح عيوب تلاميذه وأصحابه، وينبّههم على خطئهم، وقد يؤدبهم عليه. فقد امتنع أن يكلم أحدهم ثلاثين يوما؛ لأنه أكل على مائدة صاحب بدعة. وهذا نوع من الزجر بالهجر، والتأديب بالمقاطعة. وقد خاصم ابن عُلية حينما تولى القضاء، حتى استعفى منه وتركه، فعاد إلى وصله[1].

وكان يرى أن التربية تنفع مع العدد القليل، أما الجم الغفير والحلقة الواسعة فلا تصلح لهذا.

وكان يقول: الحديث مع الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة، فإذا عظمت الحلقة، فأنصت أو انشز[2].

وقال بشر بن الحارث (الحافي): سأل رجل ابن المبارك عن حديث، وهو يمشي، فقال: هذا ليس من توقير العلم. قال بشر: فاستحسنته جدا[3].

وسأل بعضهم ابن المبارك فقال: إنا نقرأ بهذه الألحان! فقال: إنما كره لكم منها، إنا أدركنا القراء، وهم يؤتون تسمع قراءتهم، وأنتم تُدْعَون اليوم كما يُدْعى المغنون[4]!

فزجرهم إلا أن يعطوا القرآن حقه من التعظيم والتوقير. فكيف لو رأى زماننا؟!

8- الفقه في الدين وبث العلم:

ومن معالم طريقته: الفقه في الدين، سعيا إليه وطلبا له، استجابة لقوله تعالى: **{فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ}** [التوبة:122]، وتحصيلا لما بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"[5] ثم نشره بعد ذلك وتعليمه للناس، والسعي في طلب العلم، والتفقه فيه، وفي طلب الحديث، وقد رحل في سبيل ذلك إلى أقطار شتى، ليلتقي الشيوخ ويأخذ عنهم، حتى إنه قال: حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ، ثم رويت عن ألف منهم. قال العباس مصعب: وقع لي من شيوخه ثمانمائة[6].

---

[1]- انظر: ابن أبي يعلي في طبقات الحنابلة (100/1).

[2]- رواه أبو نعيم في الحلية (169/8).

[3]- رواه أبو نعيم في الحلية (166/8).

[4]- رواه أبو نعيم في الحلية (169/8).

[5]- متفق عليه: رواه البخاري في العلم (71)، ومسلم في الزكاة (1037)، وأحمد في المسند (16883)، عن معاوية.

[6]- انظر: تاريخ الإسلام (224/12).

وقال أصحابه: ما رأينا أطلب للعلم منه. وكان يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي وأصحابه[1]؟!

وقال علي بن الحسين بن شقيق: قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، أو ذاكرته، فمازلنا نتذاكر، حتى جاء المؤذن للصبح[2].

وكان يكتب ما يسمعه، برغم قوة حفظه، **وقد قيل: العلم صيد، والكتابة قيد. وكتب عمن هو أصغر** منه.

ومما رووا عنه: أنه كان في الطريق، فسمع سكران ينشد:

أذلنيَ الهوى فأنا الذليل وليس إلى الذي أهوى سبيل

فأخرج عبد الله كراسته ليكتب البيت، فقيل له: تكتب عن سكران؟ فقال: أما سمعتم المثل القائل: رب جوهرة في مزبلة! فهذه جوهرة خرجت من هذه المزبلة[3].

وقد كان يطلب الحديث، والسيرة، ويطلب الفقه، ويطلب اللغة والأدب والتاريخ وأيام الناس.

قال الذهبي: حدث عنه خلق لا يحصون، من أهل الأقاليم، فإنه من صباه ما فتر عن السفر[4].

وقد تفقه بفقه أبي حنيفة، وهو يعد من تلاميذه. وروي عنه قوله: أبو حنيفة أفقه الناس[5].

روى الطحاوي بسنده إلى ابن المبارك قال: سألت أبا حنيفة رضي الله عنه عن الرجل يبعث بزكاة بلده إلى بلد آخر! فقال: لا بأس أن يبعثها من بلده إلى بلد آخر لذي قرابة. فحدثت بهذا محمد بن الحسن، فقال: هذا حسن، وهذا قول أبي حنيفة، وليس لنا في هذا سماع عن أبي حنيفة. قال: فكتبه عني: محمد بن الحسن عن ابن المبارك عن أبي حنيفة[6].

وقال ابن المبارك: كان أبو حنيفة يكره بيع المصحف[7].

1- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (154/10).

2- انظر: سير أعلام النبلاء (404/8-403).

3- انظر: المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي (320/2).

4- انظر: تذكرة الحفاظ (202/1).

5- انظر: سير أعلام النبلاء (403/6).

6- انظر: طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء (282/1).

7- انظر: الجواهر المضيئة (282/1).

وقد ظل مستمرا في طلب العلم، ولم تمنعه مكانته في الناس أن يطلب العلم، وقد سئل: إلى متى تطلب العلم، فقال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد[1].

وقال ابن المبارك: لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم[2].

طلب العلم الذي يعين على فهم القرآن أولى:

ومن فقهه: أن رجلا سأله: في أيّ شيء أجعل فضل يومي: في تعلم القرآن أو في طلب العلم؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك؟ قال: نعم. قال: فاجعله في طلب العلم الذي يعرف به القرآن[3].

الجمع بين الأثر والرأي:

ورغم أنه تفقه على إمام مدرسة الرأي أبي حنيفة، كان يؤثر الجمع بين الأثر والرأي، فقال: ليكن الذي يعتمدون عليه هذا الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الحديث.

وهو ما انتهى إليه صاحبا أبي حنيفة: أبو يوسف ومحمد، فقد جمعا الأثر إلى الرأي، ورجعا عن كثير من آراء إمامهما الأعظم، لما تبين لهم من الحديث والأثر.

على أن الأثر يشمل أقوال الصحابة والتابعين، وهي لا تخلو من دخول الرأي والاجتهاد فيها.

مذهبه في الحديث:

كان ابن المبارك إماما في الحديث، باعتراف أئمته المعدودين، كما ذكرنا. وكان له رؤيته ومذهبه في الحديث، قبل أن يوضع علم مصطلح الحديث أو أصول الحديث.

فكان لا يقبل إلا الحديث المتصل الإسناد من مبدئه إلى منتهاه، روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي إسحاق الطالْقاني، قال: سألت ابن المبارك عن الرجل يصلّي عن أبويه. فقال: مَن يرويه؟ قلتُ: شهاب بن خراش. قال: ثقة. عمَّن؟ قلتُ: عن الحجاج بن دينار. قال: ثقة، عمَّن؟ قلتُ: عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم مَفَاوِزُ تنقطع فيها أعناق الإبل[4]!

1- رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (280/1).

2- رواه البيهقي في الشعب (1761).

3- رواه أبو نعيم في الحلية (165/8).

4- ذكره مسلم في مقدمة صحيحه (16/1)، والمفاوز جمع مفازة: الأرض القفر البعيدة عن العمارة، وعن الماء التي يخاف الهلاك فيها.

وهو لا يكتفي بالاتصال، بل لا بد أن يكون ثقة عن ثقة. روى المسيِّب بن واضح: أنه سمع ابن المبارك، وسأله رجل عمَّن يأخذ، فقال: قد يلقى الرجلُ ثقة، وهو يحدث عن غير ثقة، وقد يلقى الرجلُ غير ثقة يحدث عن ثقة، ولكن ينبغي أن يكون: ثقة عن ثقة[1].

وكان يعتمد على الكتاب أكثر مما يعتمد على الحفظ، وإن كان من أحفظ الناس، وتروى عنه عجائب في الحفظ من صغره، حتى إنه سمع خطبة فحفظها، ثم أعادها كما سمعها!

ولما سئل عن كتابة العلم، قال: لولا الكتاب ما حفظنا[2].

وكان يقول: الحبر في الثوب خلوق العلماء (أي هو طِيب كالمسك لهم)[3].

وقال الإمام أحمد: كان ابن المبارك يحدث من الكتاب، فلم يكن له سقط كثير، وكان وكيع يحدث من حفظه، فكان يكون له سقط[4].

وكان ينكر التدليس في الحديث، قال عبدان: قال ابن المبارك، وذكر التدليس، فقال فيه قولا شديدا[5]، ثم أنشد:

دلس للناس أحاديثه   والله لا يقبل تدليسا[6]

وكان يقول: في صحيح الحديث شغل عن سقيمه[7].

وهذا منهج قويم، فعندنا من صحاح الأحاديث وحسانها ثروة هائلة، تغنينا عن رواية الأحاديث الضعيفة، ولو في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال. وقد تحدثت عن هذا الموضوع بتفصيل في مقدمة كتابي (المنتقى من الترغيب والترهيب) وهو مذهب يحيى بن معين والبخاري وغيرهما.

وإن كان الحق يقال: إن ابن المبارك في باب الزهد والرقائق روى الضعيف أيضا كغيره.

أما الأحاديث المنكرة والموضوعة، فهو لها بالمرصاد.

---

[1]- انظر: سير أعلام النبلاء (404/8).

[2]- رواه الخطيب في تقيد العلم صـ 114

[3]- انظر: سير أعلام النبلاء (409/8).

[4]- انظر: سير أعلام النبلاء (421/8).

[5]- التدليس: أن يروي الراوي عمن عاصره ما لم يسمع منه بصيغة لا تقتضي السماع، أو يصف الشيخ الذي روى عنه بأوصاف لا تعرف، وهو مذموم على الإطلاق، حتى بالغ إمام الجرح والتعديل شعبة بن الحجاج، فقال: لان أزني أحب إلي من أن أدلس، وقال: التدليس أخو الكذب، والصحيح الذي رجحه أئمة الحديث وجهابذته أن ما رواه الموصوف بالتدليس بلفظ محتمل لم يصرح فيه بالسماع لا يقبل، وما صرح فيه بالسماع يقبل، وهذا إذا كان المدلس ثقة في روايته.

[6]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (443/32).

[7]- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (441/32).

قيل له يوما: هذه الأحاديث الموضوعة! – يشكون من انتشارها – قال: تعيش لها الجهابذة! وهو قطعا واحد منهم، الذين يستطيعون أن يفرزوا الخبيث من الطيب، والصحيح من المغشوش.

فقهه للأولويات:

وخرج مرة إلى الحج، فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه على مزبلة، وسار أصحابه أمامه وتخلَّف هو وراءهم، فلما مرَّ بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت، فكشف عن أمرها وفحص، حتى سألها، فقالت: أنا وأختي هاهنا، ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وقد حلّت لنا الميتة، وكان أبونا له مال عظيم، فظُلم وأُخذ ماله وقُتل. فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ فقال: ألف دينار. فقال: عُدَّ منها عشرين دينارا تكفينا إلى مَرَو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام. ثم رجع[1].

فهذا هو الفقه حقا، فقه مراتب الأعمال، أو الترتيب بين الخيرات بعضها وبعض، أو ما سميته (فقه الأولويات). وليت المسلمين في عصرنا يتعلمون منه هذا الدرس: أن تفريج كربة مسلم، أو حل مشكلة أسرة، أفضل في ميزان الإسلام من حج التطوع، على ما له من فضل.

إيثاره للخلوة والخمول:

وكان ابن المبارك، رغم اشتهاره في الناس، وعلو مقامه بين الفقهاء والمحدّثين والأسخياء والمجاهدين، وشهادة الجميع له بالإمامة، والتقدم على الأقران، مما فصّلنا بعضه قبل ذلك .. يود لو اعتزل هذه الحياة، وعاش خاملا في الناس بحيث لا يعرف إذا حضر، ولا يفتقد إذا غاب.

روى ابن الجوزي عن الحسن أنه قال: كانت دار ابن المبارك بمرو كبيرة، صحن الدار نحو خمسين ذراعا في خمسين ذراعا، فكنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم، أو صاحب عبادة، أو رجلا له مروءة وقدر بمرو، إلا رأيته في داره يجتمعون في كل يوم خلقا يتذاكرون، حتى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه. فلما صار ابن المبارك بالكوفة نزل في دار صغيرة، وكان يخرج إلى الصلاة ثم يرجع إلى منزله، لا يكاد يخرج منه، ولا يأتيه كثير أحد، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن! ألا تستوحش هاهنا مع الذي كنت فيه بمرو؟ فقال: إنما فررت من مرو من الذي تراك تحبه، وأحببت ما هاهنا للذي أراك تكرهه لي، فكنت بمرو لا يكون يوم إلا أتوني فيه، ولا مسألة إلا قالوا: اسألوا ابن المبارك، وأنا هاهنا في عافية من ذلك[2].

---

[1]– المنتظم (62/9).

[2]– انظر: صفوة الصفوة (135/4).

مجالسة الصحابة والتابعين أولى:

ومن فهمه للأولويات: ما رواه شقيق البلخي، قال: قيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال: أذهب مع الصحابة والتابعين! قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أذهب فأنظر في علمي (في كتبي) فأدرك آثارهم وأعمالهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس[1].

قال: وكنت مع ابن المبارك يوما فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا، يعني حيث لم نعرف ولم نوقر[2].

وحكى المروزي راوي كتاب الزهد عنه، أنه قال: كن محبًّا للخمول كراهية الشهرة, ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول، فترفع نفسك, فإن دعواك الزهد من نفسك هو خروجك من الزهد؛ لأنك تجر على نفسك الثناء والمدحة[3].

فانظر إليه كيف يغوص في أعماق النفس ويحللها، ويحذر من آفاتها التي قد تخدع عنها.

9- اعتزاله أصحاب البدع ورجال السلطان:

وكان يخالط المجتمع، ويعمل لخيره بعلمه وماله وجهده، ولكنه كان يبتعد عن صنفين من الناس:

الأول: أصحاب (البدع) ويعني بها: البدع الاعتقادية والفكرية، التي نشأت من التأثر بالملل والنحل المختلفة، من وثنية وكتابية محرفة، وهو يبتغي الإسلام صافيا من كل شائبة.

ومن قوله: ليكن مجلسك مع المساكين، واحذر أن تجلس مع صاحب بدعة[4].

وقال الحارث من أصحابه: أكلت يوما عند صاحب بدعة أكلة، فبلغ ذلك ابن المبارك، فقال: لا كلمتك ثلاثين يوما[5].

وذكر عنده يوما جهم بن صفوان، صاحب البدع الاعتقادية الثقيلة المعروفة، فأنشد يقول:

عجبت لشيطان أتى الناس داعيا ... إلى النار، وانشق اسمه من جهنم[6]!

---

[1]- رواه أبو نعيم في الحلية (8/164-165).

[2]- انظر: صفة الصفوة (4/135).

[3]- انظر: صفة الصفوة (4/137)

[4]- رواه البيهقي في الشعب (9481).

[5]- رواه أبو نعيم في الحلية (8/168).

[6]- انظر: سير أعلام النبلاء (8/411).

وعن أحمد بن يونس، قال: سمعتُ ابن المبارك قرأ شيئًا من القرآن، ثم قال: من زعم أن هذا مخلوق، فقد كفر بالله العظيم[1].

واحتج ابن المبارك على أهل الإرجاء، الذين يقولون: إن الإيمان لا يتفاوت، بما روى بسنده عن عمر قال: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض، لرجح[2]. قال الذهبي: مراد عمر رضي الله عنه أهل أرض زمانه[3].

قال عمر ذلك بمناسبة موقف أبي بكر يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتداد العرب ومنعهم الزكاة، وإصراره على أن يقاتلهم حتى يودوا حق الله.

والصنف الثاني: رجال السلطان، فهو يتجنبهم، ويحذر من مخالطتهم، ومعاونتهم على ما هم فيه من ظلم.

وقال الحمّادان: كان ابن المبارك يتّجر، ويقول: لولا خمسة ما اتَّجرت: السفيانان، وفُضَيل، وابن السماك، وابن عُلَيَّة، فيصلهم، فقدم سنة، فقيل له: قد ولي ابن عُلَيَّة القضاء فلم يأته ولم يصله، فركب ابن علية إليه فلم يرفع به رأسا، فانصرف فلما كان من غد كتب إليه رقعة، يقول: قد كنت منتظرا لبرّك وجئتك فلم تكلمني، فما رأيته مني؟ فقال ابن المبارك: يأبى هذا الرجل إلا أن تقشعر له العصا، ثم كتب إليه:

يا جاعل الدين له بازيا	يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها	حيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونا بها بعد ما	كنت دواء للمجانين
أين رواياتك في سردها	لترك أبواب السلاطين؟
أين رواياتك في سردها	عن ابن عون وابن سيرين؟
إن قلت: أكرهت فماذا باطل	زل حمار العلم في الطين

---

[1]– رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (410/32).

[2]– رواه البيهقي في الشعب (36).

[3]– انظر: سير أعلام النبلاء (408/8).

فلما وقف على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء، فوطئ بساط الرشيد، وقال: الله الله، ارحم شيبتي، فإني لا أصبر على القضاء، قال: لعل هذا المجنون أغراك، ثم أعفاه، فوجه إليه ابن المبارك بالصرة[1].

وقيل: إن ابن المبارك إنما كتب إليه بهذه الأبيات لما ولي صدقات البصرة، وهو الصحيح[2].

وقال الحسن بن الربيع: لما احتضر ابن المبارك في السفر قال: أشتهي سويقا، فلم نجده إلا عند رجل كان يعمل للسلطان، وكان معنا في السفينة، فذكرنا ذلك لعبد الله، فقال: دعوه، فمات ولم يشربه[3].

وقال أبو نعيم في الحلية:

سئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: فمن الغوغاء؟ قال: خزيمة وأصحابه (يشير إلى أحد الأمراء الذين يعملون للظلمة). قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون بدينهم[4]!

وقال داود بن رشيد: كان ابن المبارك عند أبي الأحوص، فجاء رسول فلان الهاشمي بعض الولاة، فقال: فلان يقرئك السلام، ويقول: يا أبا الأحوص! هذا شهر رمضان وقد وسعنا على عيالنا، وهذه ألف درهم توسع بها عليهم في هذا الشهر، قال أبو الأحوص: فعل الله به وفعل، وقال: قل له يدعها عنده حتى إذا احتجنا إليها بعثنا فأخذناها.

قال: وانسل ابن المبارك إلى منزله فجاء بألف، فقال: يا أبا الأحوص! هذه الألف تنفقها، فإني لا آمن أن يكون قد بلغ أهلك فيخاصمونك، وهذه من وجه أرجو أن تكون أطيب، فقبلها[5].

قال الكُديمي، حدثنا عبدة بن عبد الرحيم قال: كنت عند الفضيل بن عياض وعنده ابن المبارك، فقال قائل: إن أهلك وعيالك قد احتاجوا مجهودين محتاجين إلى هذا المال، فاتق الله وخذ من هؤلاء القوم! فزجره ابن المبارك وأنشأ يقول:

1- رواه الخطيب في تاريخ بغداد (6/236-235).

2- انظر: تهذيب التهذيب (1/243-242).

3- انظر: سير أعلام النبلاء (8/411).

4- رواه أبو نعيم في الحلية (8/168-167).

5- انظر: صفة الصفوة (4/146).

خذ من الجاروش والأرز	والخبز والشعير
واجعلن ذاك حلالا	تنج من حر السعير
وانأ ما استطعت هداك	الله عن دار الأمير
اتزرها واجتنبها	إنها شر مزور
توهن الدنيا وتدنيك	من الحوب الكبير
قبل أن تسقط يا مغرور	في حفرة بير
وارض يا ويحك من	دنياك بالقوت اليسير
إنها دار بلاء	وزوال وغرور
ما ترى قد صرعت	قبلك أصحاب لقصور[1]

وعن إبراهيم بن نوح الموصلي، قال: لما قدم الرشيد عَيْن زُرْبة، طلب ابن المبارك، قال أبو سليمان: فذكرت، وقلت: إن ابن المبارك رجل خراساني، لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره فيقتله، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين، وأهلكت ابن المبارك، وأهلكت نفسي! فأمسك عنه، ثم عاود فطلبه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن ابن المبارك رجل جلف غليظ الطباع ... فأمسك هارون، وكان ابن المبارك علم بطلب الرشيد، فاختفى، ثم ظهر بعد ثلاث، فقيل له: تخفيت ثم ظهرت؟ قال: أردت نفسي على الموت، فأبت عليّ، فلما أجابتني ظهرت[2]. وإنما أراد نفسه على الموت؛ لأنه خشي أن يطلب منه الرشيد شيئًا ولا يقبله، مثل تولي القضاء ونحوه.

[1]– انظر: سير أعلام النبلاء (415/5).

[2]– انظر: تذكرة الحفاظ (204/1–203).